aljadeedmagazine.com
فـكر حـر وإبداع جـديد

الجديد

AL JADEED

ثقافية عربية جامعة تصدر من لندن
نوفمبر/تشرين الثاني 2018 العدد 46

عدد خاص

ثقافة الموبايل

أفكار ومواقف في الثقافة والتكنولوجيا والعصر

ISSN 2057-6005

الياس إيزولي

هذا العدد

عدد خاص آخر هذا العام مكرس، هذه المرة، لظاهرة وعدنا منذ مطلع العام في تناولها، وهي ما اقترحنا تسميته بـ«ثقافة الموبايل». يتكون العدد من ملف يقوم على ثلاثة أقسام مقالات من كتاب ومفكرين وأصحاب رأي من بلدان عربية شتى، إلى جانب حيز لمقالات تغطى جانباً من جغرافية التفكير الغربي في الظاهرة، من ثم استطلاعات موسعة للرأي من المغرب، الجزائر، مصر، اليمن، السعودية وبلدان الخليج العربي.

تغطي المقالات المنشورة، في الحيز المتروك للرؤى والأفكار الغربية جانبا من الجدل الدائر في الغرب، بين المفكرين وعلماء الاجتماع، عن جهاز الموبايل وما أدخله من جديد، وما أتاحه من فرص، وما أثاره من تحديات اجتماعية، وقضايا فكرية.

الإشكاليات التي تتعرض لها المقالات المنشورة تفتح باباً للباحثين عن أجوبة لأسئلتهم الحائرة، بصدد هذا الجهاز الخطير الذي دخل على حياتهم من دون استئذان، فصدم المخيلة والعقل معاً، وخلخل الصيغ القديمة التي كانت الناس قد ألفتها في سلوكها ومعاشها، وفي طرائق تواصلها مع العالم، وسبل نيلها المعارف، بل وفي طرائق تعريفها لنفسها وطرح هويتها في عالم يزداد اتصالا بين اطرافه على نحو غير مسبوق في التاريخ.

من شأن هذه المقالات، إلى جانب أخواتها التي وضعتها أقلام عربية منشغلة ومهتمة بالتحولات الثقافية والاجتماعية ذات الطابع السلوكي العام للافراد أن تقدم معرفة وتثير نقاشا لم يكونا متاحين، حتى الآن. فباستثناء مقالات متفرقة هنا وهناك، لم يُقرأ هذا الجهاز قراءة ثقافية عربية، ولم يجر تناول الموضوعات والظواهر المتصلة به.

التحقيقات والاستطلاعات التي قامت بها «الجديد» رصدت التحولات التي أدخلها الموبايل على حياتنا بوصفه بوابة ثقافية وطريقة للحصول على المعارف أخذت تسود وتتحول إلى ضرورة لا يمكن مقاومتها على الإطلاق، ما يجعل السؤال الأكثر واقعية ليس: كيف نتجنب الموبايل ولكن كيف نطور أداءنا لنجعل من هذا الجهاز ضرورة إيجابية ■

المحرر

■ لوحة الغلاف للفنانة سكنة حسن

الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون
أمير العمري، مفيد نجم

التصميم والإخراج والتنفيذ
ناصر بخيت

رسامو العدد:
الياس إيزولي، محمد عبدالرسول
ياسر أبو الحرم، أليكس غروس
زينب الماحوزي، غازي باكر
سكنة حسن، ناصر بخيت

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن) UK
1st Floor
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London
W6 8BS
Dalia Dergham
Al-Arab Media Group

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

المحتويات

العدد 46 - نوفمبر/ تشرين الثاني 2018

كلمة

4 **ثقافة تحرير العقل والمخيلة**
أهو خوف على الماضي أم خوف من المستقبل
نوري الجراح

ملف/ ثقافة الموبايل
أفكار ومواقف في الثقافة والتكنولوجيا والعصر

مقالات

6 **إنسان متواصل**
في زمن مفتوح
سميّة عزّام

8 **الست الحديد**
الأنا والآخر والموبايل
(منظور فلسفي)
أحمد برقاوي

12 **عوالم ذكية لمجتمعات تمضي في المجهول**
حسن مشهور

16 **نافذة متعددة الزوايا**
رجاء البوعلي

18 **شاشات الخلاص**
عمّار المأمون

22 **النظر في فراغ الموبايل**
أحمد العجمي

24 **الكتاب المشع**
الموبايل والثقافة المعاصرة
جعفر حسن

28 **الشاشة الكونية وميتافيزيقا الحضور**
عبدالله الهميلي

32 **الثقافة الإلكترونية وإعادة تشكيل المعرفة**
أحمد الماجد

88 **الكواكب المستوحشة**
الأرنب الأبيض والجيل الديجتالي وفتنة الموبايل
ميموزا العراوي

100 **التفاحة التي غيرت العالم**
محمد الحجيري

106 **الإنترنت والأدمغة**
أي علاقة وأي نتائج
رضا إبراهيم محمود

110 **نبوءة بيل غيتس**
عباس الحايك

114 **الموبايل وحاجاتنا السلوكية والثقافية**
طاهر الزارعي

116 **نحن والهاتف الذكي**
ريما إبراهيم حمود

120 **شعرية اللحظة الراهنة**
قراءة في جدل الافتراضي والواقعي
محمد السيد إسماعيل

122 **وسيلة المحبين والمثقف الشبكي**
علي كريم السيد

124 **تحرير الذاكرة من الأعباء**
أيمن بكر

126 **إعادة هيكلة القيم**
محمد عبدالباسط عيد

128 **سينما المستقبل**
الموبايل والسينما وفوضوية الحياة في مصر
إيهاب سلطان

134 **العيش في غلاف معلوماتي**
أي هوية لنا في المستقبل؟
محمد طيفوري

136 **صندوقنا الأسود**
هيثم حسين

رؤى غربية

38 **كيف غيّرت الهواتف المحمولة حياتنا**
ابراهيم قعدوني

44 **جامع القرية المعولمة**
أبو بكر العيادي

50 **السيلفي بوصفه تمجيدا للتفاهة**
جونثان دوداي

تحقيقات واستطلاعات

56 **استطلاع قاهري**
حنان عقيل

62 **اللعنة المدهشة**
خليجيون ويمنيون: لم نعد نخاف العزلة
زكي الصدير

72 **موبايل بورخيس**
مثقفون مغاربة يتحدثون عن فتنة الموبايل
مخلص الصغير

80 **عولمة المعلومة وهتك الأسرار**
صابر بليدي

أصوات

140 **ثقافة الفيسبوك**
من مواجهة التضليل إلى تكفير التنوير
أمين الزاوي

سينما

142 **الموبايل والسينما**
الاستخدام الإشكالي للجوال في السرد الفيلمي
طاهر علوان

رسالة القاهرة

146 **قنص الأحلام**
"تسجيل دخول"
مسرحية الحياة الافتراضية والواقع المفقود
شريف الشافعي

إلياس إيروي

كتب

152 **النساء والجنس**
من الثأر إلى المغامرة
حنان عقيل

المختصر

156 عواد علي

الأخيرة

160 **المصباح الذكي X**
السارق من الآخرين كل عزيز
هيثم الزبيدي

غلاف العدد الماضي أكتوبر/تشرين الأول 2018

ثقافة تحرير العقل والمخيلة

أهو خوف على الماضي أم خوف من المستقبل

الخوف من الجديد عنوان راسخ في ثقافتنا العربية. فمع كل حدث لا سابق له، أو ظاهرة جديدة، أو اختراع متقدم مبتكر في العالم تقفز الشياطين في وجه العربي، وتصرخ الذات الخائفة على إرثها وقيمها وما قرّت عليه من صيغ ومقولات، لتعاند الجديد محاولة استبعاده وإنكاره، ومرات محاصرته بلغة "التشكيك" و"التكفير"، ثم فجأة تستسلم له مهزومة ومقهورة أمام وجوده الجامح المفروض بقوة الواقع وقوانين السوق والعصر، من دون أن تتوقف هذه الذات المرتعدة أمام لغة المستقبل وأدواته المبتكرة عن الشكوى جرّاء غربتها الوجودية بإزاء سطوة الجديد.

ذلك شأن الذات الخائفة من عصرها، المتقوقعة على وسائلها المتقادمة، والمستهلكة رغما عنها للظواهر الجديدة، من دون أن يكون تكيّفها مع الجديد الحادث اختيارا عقلانيا دائما، وإنما يكون خضوعا واستسلاما لسلطة الظاهرة من قبل مستهلك وطّن نفسه على حراسة الماضي، ولا شأن له بالمستقبل. وبالتالي لم تكن -ولن تكون له في المدى القريب- يد في ما يستهلك من أدوات العصر، ولا قسط حقيقي من المعرفة بجوهر ما يستهلك، وإمكاناته القصوى القائمة على قوة العلم.

يبدو الخوف من الموبايل لدى فئات واسعة من المجتمعات العربية عنوانا مستجدا للخوف المزمن من الجديد. فها هو ذا ابتكار داهم تصب عليه العائلات العربية اللعنات ليل نهار لما أدخله على حياتها من فوضى ثقافية عصفت بالبيت وطمأنينته، واستولت على أفراد الأسرة من الطفل إلى الشيخ.

***

منذ أن لوح ستيف جوبز بيده في ذلك المؤتمر الصحافي ذات يوم من أيام العقد الثاني من الألفية الثالثة من هذا القرن الجامح، مستعرضا علبة صغيرة أكبر قليلا من علبة السجائر وأرق منها، والعالم يخطو بسرعة البرق من محطة إلى أخرى مع جهاز سحري ما قبله شيء وما بعده شيء آخر. حدث نسف لغة الماضي وأخذ يغير كل شيء في علاقة إنسان العالم بذاته وبالآخر وبالمعرفة وبمجمل المنظومة التي تشكل حياته اليومية. إنه المارد الذي سيضع نفسه في خدمة الجميع، في الوقت نفسه وفي كل مكان، ويلبّي طلباتهم كلّ على حدة. سيكون الآمر المطيع، وحلقة الوصل للأفراد والمجموعات. الحياة قبله تاريخ له طبيعة، وبعده تاريخ له طبيعة أخرى مختلفة تمام الاختلاف.

***

نعود إلى صراع الذات العربية مع ذاتها، في مراوحتها المأسوية بين ماض لا يمضي وحاضر يعاند المستقبل، لنتأمل في جوهر هذا الصراع؛ كيف نقرأه ونقرأ تلك الاستنامة إلى الماضي والركون إلى صيغه المتقادمة، لنفهم أسباب تلك المكابرة التي تجعل من العربي شخصا يمشي إلى الأمام، ورأسه متجهة إلى الخلف!

ولكن كيف نترك أنفسنا نستغرب عندما نتذكر كيف أن شرائح واسعة من المتعلمين العرب أخذت على مدار عقدين من السنوات، وحتى وقت قريب تبذل الوقت والطاقة في إبداء تخوفات ليست في مكانها من النشاط الواسع لحركة الثقافة عبر التكنولوجيا؟

***

أول الأمر عبّر المثقفون العرب، بلغة رثائية، عن قلقهم على حياة الكتاب الورقي، وهو ما جعلهم يتوجسون طويلا من فكرة النشر الإلكتروني، ولا ضير في فهم أسباب هذا التخوف، لكن كيف يمكن لنا أن نقبل مواصلة البحث عن مبررات للاستغراق فيه. عندما لا مناص من التعامل مع لغة العصر؟

من تأمّلي الشخصي في فكرة علاقة الثقافة بالتكنولوجيا والتحول المستجدّ الذي تشهده الثقافات في علاقتها بأدوات الاتصال ووسائله الحديثة، يبرز لدي تساؤل أستطيع الآن أن أفكر فيه بصوت عالٍ: ممّ نخاف؟ وعلى ماذا نخاف؟ أعلى الكتاب وشكله أم على القراءة؟ وما الذي يمكن أن يتراجع، عمليا، إذا كان هناك تراجع، حضور الكتاب أم حضور القراءة؟

***

من تاريخ الكتابة نعرف أن الكتاب مرّ بأطوار عديدة فهو لم يكن منذ الأزل ورقيا، فقد سبق وكان طينيا وحجريا و(برديا) وجلديا، إلى أن جاء وقت وتطور فأصبح ورقيا.

لعلّ بعضنا يعيش، اليوم، محنة نوستالجية تشبه محنة قارئ قديم يودع الرقم الطينية ويستقبل الكتاب الورقي في صيغته المبكرة بشيء من الأسف والأسى على ما اضطر إلى تركه. هناك باستمرار في تاريخ الناس شيء من الفقد وشيء من الأسف على ما نترك ونهجر، فألفة الشيء تورث الفزع من تركه، والتوجس من كل جديد. وتحوّلنا اليوم من الورق إلى تكنولوجيا الإنترنت والأوعية الأجدّ يكاد يكون محكوما بشيء من هذا الفزع وذاك الأسى على ما أخذنا نهجر من الوسائل بفعل التطور. وإن كنت، شخصيا، أشك في أن الكتاب الورقي سيختفي بفعل ظهور تكنولوجيا الإنترنت، بل أكاد أقول إنه سينتشر أكثر فأكثر بفعل الدعاية الواسعة التي يمكن أن توفرها للكتاب شبكة الإنترنت.

في نظري أنه ما لم يظهر الكتاب الإلكتروني مستقبلا بمواصفات أكثر

إلياس إيروفي

إغراء (من الناحيتين العملية والجمالية) من الكتاب الورقي، فلا خوف على الكتاب، بل إن انتشاره سيعم أكثر. وسيظل لأصحابه خير جليس.

***

ما ينبغي أن نخاف عليه، حقيقة، ليس شكل الكتاب وإنما طبيعة علاقتنا بالقراءة، وليس الصيغة التي تقدّم لنا المادة المعرفية وفقها، وإنما القراءة نفسها. فالمهدد اليوم من قِبل الصورة مقابل الكلمة ليس الكتاب الورقي وحسب، وإنما حتى الكتاب في الإنترنت. وما أراه أن الكتاب في حالتيه الورقية والإلكترونية هو جسدٌ متصل لا تناقض أو تناكر بين الشكلين المتاحين له. المشكلة الحقيقية هي في ثقافة الصورة بالمعنى الاستهلاكي، والتي تقدمها الفضائيات والإعلانات والسينما والسبل الأخرى لانتشار الصورة، وخصوصا عبر الموبايل.

المهم في النهاية ألّا تُهدّد القراءة، فالشكل عبر التاريخ كان متحولا وهذا شيء بديع وليس مفزعا. التطور الحديث الذي وفّر لنا تكنولوجيا المعلومات هو تطور لصالح المعرفة وليس ضدها، فأنت تستطيع اليوم بمبلغ زهيد أن تحصل على مكتبة من آلاف الكتب عبر الموبايل. وهذا تطور مذهل قياسا إلى ما كانت عليه الحال في الماضي القريب جدا. فأنت لا تستطيع أن تحمل معك مكتبة من آلاف الكتب متنقلا بها حيثما ذهبت، ومستفيدا مما فيها أينما كنت، إلا بفعل هذا التطور ومعطياته التي باتت تتيح لك قراءة الكتاب بأي حرف تريد، وتمكّنك من أن تقرأ الكتاب وقد دخل عليه الصوت والموسيقى، ناهيك عما تستطيع الحصول عليه من معلومات إضافية جمّة على هامش قراءتك الكتاب الذي تقرأه إلكترونيا.

ولنفترض أنك تطالعُ رواية تدور حوادثها في سمرقند وتريد معلومات أخرى إضافية عن هذه المدينة فبكبسة زر على الكلمة سوف تتمكن بواسطة الإنترنت من الدخول إلى حقل تقرأ فيه معلومات عن المدينة ليست موجودة في متن الكتاب، بل وتتجول في شوارعها. أيّ جمال هذا وأيّ سحر.

التطور الحديث يتيح لنا إمكانات معرفية جمة في وقت أقلّ، وبالتالي، فهو يتيح لنا تجاورا بين قارئ للكتاب الورقي وقارئ للكتاب الإلكتروني. إذن نحن بإزاء ثورة علمية علينا استيعابها والأخذ بمعطياتها، وعدم التأخر عن التعامل مع ما تحمله إلينا من جديد.

***

وبينما نحن نتابع تطور علاقة الثقافة بالتكنولوجيا، علينا ألّا نرى تناقضا سلبيا في هذا اللقاء، فهو يتيح، بالنسبة إلينا، زواجا بين ذاكرتنا ومستقبلنا، بين زمنٍ يتوارى وزمن يتسيّد، وعلى ما في هذه المعادلة من عناصر مؤلمة، إلا أن تجارب الإنسانية تؤكد أن لا جديد يخرج إلا من رحم القديم، ولا لاحق بلا صلةٍ بسابق. نحن بإزاء وسائل مستجدة لانتشار الثقافة جِدّتها لا تمنع من إمكان استعمالها بطرق وأهداف نترسّمها بأنفسنا، ونريد لها أن تتحقق في مواجهة التحديات التي تمليها على البشر سنّة التطور. المهم، بداهة، هو كيف نستعمل التكنولوجيا؟

***

كل ما يمكن أن يحدث على الأرض يمكن أن يحدث بطريقة ما في الإنترنت. فالإنترنت، مجازا، أرضٌ وفضاءٌ مفتوحان. إنه العالم منعكسا في صور وخطوط ومناطق وموضوعات بلغة وإمكانات لا سابق لهما. يخيل إليّ أن ما يجرى، اليوم، على شبكة الإنترنت، وعبر الموبايل خصوصا، هو صورة من صور الانفتاح الواسع للثقافات والحضارات على بعضها البعض، وصورة، أيضا، من صور التسابق الحضاري، فهذا الواقع الافتراضي بات حقيقة قصوى، إنه أرض وسماء لحركة الفكر، ومناطق شاسعة محررة للعقل البشري.

فلنهجر الخوف، ولنتقدّم أماما جهة المستقبل ■

نوري الجراح

لندن في نوفمبر/ تشرين الثاني 2018

ملف

إنسان متواصل
في زمن مفتوح

سميّة عزّام

السؤال عن معنى الموبايل أو الهاتف الذكي المحمول، ودوره في حياة الإنسان العصري، يافعا كان أو ناضجا، يشبه سؤال الكتابة وما تمثّله بالنسبة إلى من يحترفها. فإن كانت الكتابة هي الحياة لمبدعها، فإنّ الهاتف المحمول تخطّى أن يكون وسيلة لإتقان فنّ العيش، ولم يبلغ حدود كونه غاية. غير أنّه، لحضوره الكثيف والمبالغ به، كاد يتملّكنا متجاوزا الحدّ الذي رسم له بأن يكون خادما، حين ابتكره العقل البشري وطوّره. قد يأخذنا هذا المشهد، في رؤية سوداويّة، إلى قصة انقلاب فرانكنشتاين على العالم الذي صنعه؛ فيمسي الصانع ضحيّة صنيعه. أو نذهب، في رؤية منفتحة، إلى مقولة الإمام علي بن أبي طالب: وتحسب أنّك جرم صغير / وفيك انطوى العالم الأكبر؛ فنستعيرها لنصف هذا الهاتف الذّكي الذي طوى العالم في صندوقه الصغير، وطوانا في حناياه، لنغدو جزءا من هذا الكلّ، والكلّ فينا ومعنا في آن.

غير أنّ السؤال لا يخلو من الإرباك؛ فماذا سيقدّم هذا المقال أكثر من توصيف لظاهرة؟ وماذا سيضيف من حقائق على واقع معلوم لدى كلّ فرد؟!

أوّل فكرة راودتني في استهلال كتابتي، حادثة طلبي من ابني الذي لم يبلغ عشرة أعوام، أن يضع الموبايل جانبا وينظر إلى العالم حوله، وأن يعيش واقعه ويستمتع بجماله؛ وقد استيقظ صباحا، ذاهبا للتّو إليه كي يشاهد حلقة مسجّلة من الرسوم المحرّكة «الأنيميشان». الأمر يتكرّر في الإجازة الصيفيّة، إمّا اندماجا مع لعبة إلكترونيّة، وإمّا مشاهدة فيديوهات متنوّعة. دار بيننا حوار أفضى به إلى التأثّر الشديد؛ إذ كان ردّه سؤالا أراد به إفحامي، عن براءة، قائلا: هل صديقي ريّان هنا مثلا، كي ألعب معه؟ ماذا أفعل؟ دلالة كلام هذا الطفل أنّه تصاحب مع هاتفه الذكي؛ فبات من أدواته النفسية والمعرفيّة، وقد استحوذ على تفكيره بغياب أصدقاء في محيطه الواقعي. في بيت يعجّ بالهواتف المحمولة في كلّ يد، لِمَ يحرم هو من حمله واستخدامه؟

وليس أصدق من طرح السؤال على فتى نشأ في جو التكنولوجيا، عن معنى الهاتف الذكيّ في حياته. ينظر باستغراب لتوحّش المصطلح. وبإعادة السؤال نفسه مع استبدال مصطلح «موبايل»؛ يستسيغ التعبير، ويهزّ كتفيه بعينين زائغتين ولا يجيب. أنكفئ نحو ذاتي متسائلة عن جواب عصيّ، ليأتيني الجواب من مراهق آخر معلنا أنّ الموبايل «كل شيء في حياته». فهذا الجهاز الذي يملأ حياة شاب وعقله، ويتملّك أحاسيسه ويشغله باستخدامه، ليصير الوسيلة والغاية، وضع الفتى الأوّل في مأزق الإجابة عن معناه، ليس لأنه بغير معنى، بل لأنّ الدلالات شديدة الوضوح، فانحجب الجواب، وربما يكون النّفي علامة على سخف السؤال.

تنبّأ بيل غيتس Bill Gates منذ ما ينوف عن العشرين عاما في كتابه «المعلوماتيّة بعد الإنترنت- طريق المستقبل»، بطريق المعلومات فائق السرعة، وبالنمو السريع لشبكة التليفونات بعيدة المدى، الأمر الذي يتطلّب تطوير منصّات البرمجيّات. كما تفاءل بشيوع استخدام تطبيقات طريق المعلومات السريع، وبكلفة متدنّية، مشبّها الإنترنت بـ«ممرّ أوريجون»، وهو الطريق الذي سلكته على دفعات، قوافل من أصحاب العزيمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بين ولايتي ميسوري وأوريجون للوصول إلى مناجم الذهب في ولاية كاليفورنيا. والقصة تحكي خطورة الرحلة بطول مئتي ميل عبر البرّية، تعرّض خلالها الكثير منهم إمّا للنهب، وإما للكوليرا، وإما للجوع، وإما لعوامل مناخيّة قاسية.. فهذا الممرّ المحفوف بالمخاطر كان بمنزلة البداية لنظام الطرق السريعة الذي وفّر مسار مرور ذا اتّجاهين للعابرين. هي تحدّيات الطبيعة ولّدت استجابة ذكيّة من الإنسان، بتوصيف أرنولد توينبي.

لعلّ تسمية الهاتف المحمول «بالخليويّ» Cellulaire، نسبة إلى الخليّة cellule، في الفرنسيّة، تعود إلى الشبه بين الحمض النووي DNA الذي يحمل المعلومات الوراثيّة داخل نوى الخلايا، وبين خارطة البيانات المخزّنة في برامج أجهزة الهواتف المحمولة، لا سيما الذكيّة منها؛ فباستطاعتها الاحتفاظ بالمعلومات بقدر ما تحويه خزانة للملفّات، بحيث نتمكّن من استعادتها وقت نشاء، وفق «نمط النقل غير المتزامن». غير أن تطبيقات تكنولوجيّة أخرى تتيح، عبر شبكة الاتصالات،

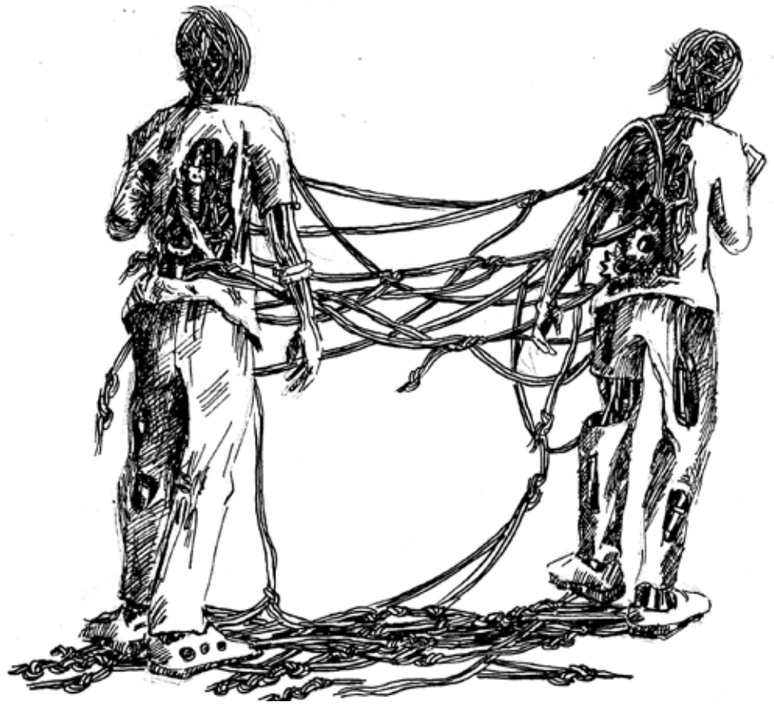

محمد عبدالرسول

نقلا متزامنا للبيانات والصوت والصورة؛ ويطلق على هذه التكنولوجيا «البيانات الرقمية الصوتية المتزامنة». تجاور التزمين واللا تزمين فعّل القدرات البشريّة بالسّير في مسارات التلقّي والإنتاج، والتشارك في صنع المعلومات عبر شبكة اتصالات، والمشاركة والتفاعل مع مجتمع افتراضي، ولسنا ندري إن كانت هذه التسمية لا تزال صالحة في هذا «الزمن المفتوح» بوصفه مختبرا من عمليّات التحاور المفتوحة أمام الجميع؛ إذ تمّحي الحدود الفاصلة بين أن يكون المستخدم ذاتا أو موضوعا، مؤثّرا أو متأثّرا، منتجا أو مستخدما. هو كلّ هذا في آن معا، بما يحمل من تعقيد وتطلّب؛ يشعر الإنسان بأنه لم يعد أسير الجغرافيا، بل أمسى منفتحا على أمزجة وأذواق ومعتقدات مختلفة، ما حدا بالبعض إلى تسمية إنسان العصر بـ«الإنسان المتواصل».

من الصعب أن نطلق صفة «الجدّة» على شيء بالغ الديناميّة. وإذا كان العصر الماضي «عصر الكهرباء» بوجود معجزة المصباح الكهربائي في سقف كلّ بيت، فإنّ هذا العصر هبة الوسائط المعلوماتيّة التي تحدّث عن دورها وحضورها في كلّ مكان وزمان، فرانك كولش Frank Koelsch في كتابه «ثورة الإنفوميديا»؛ إذ أتاحت تواصلا بلا حدود، وكيف أنّها غيّرت عالمنا وحياتنا؟ منبئا منذ أكثر من عشرين عاما بعالم يصاغ من جديد، في ظلّ هذا الصعود المطّرد لها، وداعيا إلى إسقاط جدران مكاتب العمل؛ حيث أنّها غدت كيانات تخييليّة أكثر منها وحدات مكانيّة ثابتة. ومع الهواتف المحمولة، وكمبيوترات الجيب، خطا أصحاب العمل نحو عالم «موقع العمل المتنقّل» «Mobile Work Place».

عود على بدء؛ ماذا عن انشغالنا نحن، الآباء والأمّهات، عن أبنائنا نتيجة انخراطنا في عالم الهاتف الذّكي؟ خير تعبير عن هذا الواقع فيلم قصير يصوّر حوارا بين مدرّسة تصحّح أوراق التعبير الكتابي لتلامذتها، مساء، وبين زوجها الذي استوضح منها سبب ضيقها وتوقفها المفاجئ عن التصحيح؛ فأردفت مبينة أنّ أحد التلامذة تمنّى، في معرض توسيع الموضوع المطروح، أن يكون هاتفا ذكيا في الحياة؛ ذلك لانشغال أمّه وأبيه والمحيطين به جميعهم بهذا الجهاز، معرضين عنه، غير مكترثين به وباستفساراته.. كان هذا التلميذ ابنهما. لا يخفى على أحد هذا الوجه السلبي في الإغراق في استخدام الهواتف الذكيّة، وليست العلّة فيها بحدّ ذاتها؛ ما يدفعني إلى العودة إلى مقولة الإمام عليّ بذكر البيت السابق لما ذكرته أعلاه، لأربط الخيط الذي مددته: داؤك منك وما تبصر / دواؤك فيك وما تشعر.

إذا ما استشففنا شعور إنسان هذا الزّمان إزاء الحضور الدّائم للهواتف الذكيّة والوسائط المعلوماتيّة وشبكة الاتصالات، لا يعود غريبا هذان الانبهار والدهشة بما توفّره له من عناصر أمان، وراحة بال، ومرونة؛ فعبرها يكتشف العالم من حوله، يبحث عن عمل، وعن صداقات وحبّ، يدوّن، يقرأ تدوينات، يزجي وقته باللعب، يعزّز نرجسيته... ذلك، لميله الفطري إلى التفاعليّة والاندماج، والاستمتاع باستثارة رد الفعل من الآخر، ولأنّه لا يرضى بأن يبقى بمنأى عن المستجدّات المتلاحقة؛ غايته القصوى التكيّف.

فللحديث عن ظاهرة تغشى أيّامنا يحتاج منّا إلى ترك مسافة زمنيّة كي نفهم الدوافع الكامنة خلف الحدوث. وهو ليس بالأمر اليسير في زمن لا مجال فيه للتفكّر المتأنّي. فنحن في قلب الحدث، ولا يزال يكتسحنا نبضه بسرعة مطّردة تفوق الذاكرة على تمثل الظاهرة والإحاطة بها من جوانبها كافّة، وفهمها في عمقها السوسيونفسي.

ناقدة وأكاديمية من لبنان

ملف

البيت الجديد

الأنا والآخر والموبايل

(منظور فلسفي)

أحمد برقاوي

لم يعُد هناك شك عند أي مشتغل في مشكلة علاقة التقنية بحياة الإنسان، بأن التطور العاصف بالإنسان الراهن ثمرة لهذه العلاقة، لم يألفه التاريخ البشري، اللهم إلى بعد اختراع الآلة البخارية. ولعمري بأن أدق تعريف فلسفي لجهاز الموبايل هو: الموبايل هو بيت الإنسان الجديد. أجل الإنسان يسكن الآن في بيت لا تتجاوز مساحته 30 سنتيمترا مربعا، والزمن الذي يقضيه خارج هذا البيت لا يتجاوز نسبة ضئيلة من زمنه اليومي. داخل هذا البيت مختلف أشكال الحياة المعرفية والروحية والتواصلية.

تنزع الأنا مُذ وعت حريتها على الظهور والكبت معاً، فتعاني من ازدواجية الأنا الظاهر والأنا الخفي. وها هي بعد أن أقامت في الموبايل صارت تطل على العالم من عدة شُرَف، وتظهر في كل شرفة على نحو خاص، فمن شرفة الهاتف وأشكاله المتعددة راحت تطلّ على الآخر تعرفه بالصوت متى شاءت، ومن أي مكان شاءت. فلقد ازداد حجم حرية الأنا في المخاطبة المباشرة مع الآخر أضعاف مضاعفة بالقياس إلى الهاتف الثابت الذي هو جهاز مشترك في البيت، أو المؤسسة، فيما صار الموبايل بيت الصوت المتحرّر من الآذان القامعة.

فالأنا مع الموبايل صار أقدر على الظهور كما يشاء، وضاق حجم المكبوت الشعوري الأخطر على الذات. فلقد أصبح التواصل الذي ينطوي على البوح بما كان مقموعاً حالة عادية من حالات التعبير دون أي إحساس بالخطر. فالهاتف والمسنجر والواتسآب والسكايب والفايبر وغيرها.. كلها وسائل وفّرت للأنا حرية الظهور وسهولته أمام الآخر.

من هو الآخر في هذا البيت الجديد؟ لقد وفّر الموبايل للذات أنماطا متعددة من الآخرين الذين يمكنها أن تتواصل معهم. ففضلاً عن الآخر الصديق المعلوم الذي عشنا معه تجربة حيّة في الحيّ والعمل والمقهى، فهناك الصديق المجهول. فلأول مرة في تاريخ البشرية مصطلح الصديق المجهول.

الصديق المجهول الذي لا تعرف عنه شيئا سوى المعلومات التي يضعها هو في تعريفه الشخصي، وقد ترى صورته وقد لا تراها، وقد يكون اسمه مستعاراً، لقد وفّر لك الموبايل آخر تجهله وتجري معه حوارا مكتوباً.

وهناك الصديق الآخر الذي صرت تزوره لتقرأه دون أن يعلم هو بذلك.

في الواتس يبني جمهور صغير ما يسمّونه الغرفة المشتركة، فتتشكل أسرة الصداقة ممن شيئاً فشيئاً يتحوّلون إلى عالمك الجديد. ويقوم الحوار والقيل والقال والشجار وكل أنماط القول الممكنة.

ولد الآخر الذي لا تعرفه ولا يعرفك بالأصل، هذا النوع من الآخر ذو سمات جديدة، إنه في لحظة يكفّ عن أن يكون آخر بالنسبة لديك بكبسة زرّ من الحظر منك أو منه أو بسبب إغلاق البيت الذي كان يجاور بيتك.

الفيسبوك وأشكال الظهور

قالت دائرة الفيسبوك بأن عدد المشتركين في وسيلة التواصل هذه قد بلغ مليارين من الذين يجيدون القراءة والكتابة. وهذا يعني أن نسبة كبيرة من أفراد المجتمع صارت قادرة على التواصل اليومي من جهة والتعبير عن أفكارها وآرائها ولا شعورها وعدائها وأحقادها وثأرها وعشقها وحبها وكرهها وذكرياتها ورغباتها وحياتها اليومية ومواقفها السياسية والأخلاقية وجديتها وسخريتها وآلامها وفرحها وسخافاتها وجهلها وشجاعتها وجبنها وحيائها ووقاحتها ومعرفتها وثقافتها وصدقها وكذبها واهتماماتها وشهوتها في الحضور بشكل مختصر ومكتوب.

لقد قدّم الفيسبوك والتويتر والواتس، كنوافذ مهمة من نوافذ بيتنا الجديد -الموبايل، منصة ما كانت لتخطر على بالٍ لممارسة شهوة الحضور التي لا يخلو منها كائن بشري مهما كان عالمه ضيقاً. فلقد صار كل مشتهٍ للحضور قادراً على أن يحضر كما شاء، ويُظهر وجوده كما شاء، من الظهور المبتذل للرعاعي عبر الكلام الخالي من المعنى والفائدة، وعبر الأخبار الفردية التي لا تهم أحداً، إلى حضور المثقف المبدع: الشاعر والروائي والمفكر والفيلسوف والنحات والرسام وكاتب المقال، المتحقق بالأصل، ولكنه شهوتهم للحضور

غرافيك «الجديد»

راحت عبر آلاف المتابعين. والملاحظ أن شهوة الحضور تبرز بشكل قوي عند الفيسبوكيين العرب من المثقفين العاديين، لا سيما عند أولئك الذين ليس لديهم إلا هذه الوسيلة للحضور، وعند جمهور من المثقفين الذين لم تسعفهم مواهبهم البسيطة في الحضور عبر الكتاب والمجلات والصحف وشاشات التلفزيونات التي كانت وحدها وسائل حضور الكاتب الكلاسيكية. وعدد هؤلاء في عالم العرب كثير جداً.

الموبايل والمكبوت العنفي

لقد وفّر الموبايل بما ينطوي عليه من وسائط ظهور في الكلمة والصورة لنزعة العنف أن تعبّر عن نفسها دون خوف من الآخر ودون إحساس بالذنب.

فلقد كان الشجار المباشر، أو العنف المباشر بين شخصين أو أكثر مشروطا بالوجود الواقعي بين المتشاجرين، الذي من شأنه أن يستدعي الحذر، والأخذ بعين الاعتبار النتائج غير المحمودة.

لكن الأمر قد اختلف مع الموبايل، فالشجار يتم عبر مسافات طويلة دون أي إحساس بالخطر، وهذا مما وفّر للعنيف أن يظهر كل مكبوتة العنفي، وبخاصة بالنسبة لمن تنقصهم الشجاعة، حيث وجدت نفوس الرعاديد في الموبايل أداة لتعويض جبنهم في الحياة، فيظهر مكبوتهم العنفي بأعلى أشكاله الفجة.

ومما هو لافت للنظر في الفيسبوك العربي -من خلال متابعتي للمكتوب- حجم العنف والعدوانية في القول مع الندرة في التعفّف عن هذا الأسلوب في التعبير. فإذا استثنينا الجمهور القليل والمحدود جداً من الكتّاب المعروفين والمشهورين عربيّاً ممن حررتهم مكانتهم من هذه النزعة فإنّا لواجدون غياباً لقيمة الحياء واحترام الآخر لدى جمهورٍ كبير من كتبة الفيسبوك، يصل حدّ التطاول على الآخر بالكلمات البذيئة والشتائم المباشرة.

لقد نشرت مرة كلمات حول الاختلاف بين عالم اليوم والعالم القديم والمدينة اليوم والمدينة القديمة، وإن ما كان قبلاً من سلطة وقيم ومعايير لم يعُد قابلاً للحياة. فإذا بمئات من الإسلامويين، والذين كنتُ أظنهم عفيفي اللسان، يهجمون عليّ بالكلمات البذيئة والتي طالت أمي وأبي وأختي. وقس على ذلك. والحق إن دراسة العنف اللغوي الذي يعجّ به الفيسبوك عند الأغلبية تضع أمام الباحثين الاجتماعيين والنفسيين قضية جديرة بالتأمل والدرس، لأن المسافة بين العنف اللغوي والعنف الجسدي قصيرة جداً.

زوار يلتقطون صوراً لإحدى روائع الفنان روبنز في متحف بلجيكي

ثقافة المعرفة وثقافة التسلية

يحتوي هذا البيت الجديد على مكتبة تزخر بآلاف الكتب والمقالات، وعلى أرشيف بكل أنواع المعرفة يتزايد ثراؤه يوماً بعد يوم، حتى ليمكن القول: لقد حطم الموبايل احتكار المعرفة. ووفّر لغير القادرين على شراء الكتاب فرصة للإطلاع على أهم الكتب مجاناً.

بل إن الأسئلة التي تخطر على البال مباشرة، سرعان ما تجد الأجوبة عنها في هذه المكتبة التي بين يديك. وليس هذا فحسب، بل وتجد تعدّد أجوبة عن سؤال واحد.

وبالمقابل، وفي الوقت نفسه، تحوّل الموبايل إلى أهم أداة من أدوات التسلية وقتل الوقت. حيث غدت التسلية حالة أو قل نمط حياة يعيش فيها المرء خارج أيّ ثقافة ذات معنى من شأنها أن تسهم في زيادة معرفة الإنسان بالعالم، وتفعل فعلها في تكوين موقف أخلاقي أو سياسي أو اجتماعي، بل قل التسلية عندما تصبح نمط حياة يومية فإنها تعبّر عن موقف سلبي من كل مشكلات الإنسان المعاصر، وتزيد اغترابه غير الواعي وفقره الروحي، وهشاشة موقفه الأخلاقي والسياسي.

إذا ثقافة التسلية ببرامج الموبايل وألعابه هي ثقافة نسيان الواقع أولاً، ثقافة التسلية هذه تحاول أن تُنسي الإنسان العربي المسحوق والمعذب والمضطهد والفقير واقعه النفسي المعذب والواقعي المدمر، بل لقد صارت ثقافة التسلية الموبايلية أشبه بمدمن يولي وجهه شطر الخمرة أو الحشيش لكي ينسي همومه الواقعية.

ناهيك عن أن ثقافة التسلية تحشو ذهن الشاب العربي بمعلومات لا قيمة لها ولا تنفعه لا في حياته العملية ولا في تنمية حياته الروحية.

الموبايل والكينونة الجديدة

مع الموبايل تأسست كينونة إنسانية جديدة، بمعزل عن تقويمنا لهذه الكينونة سلباً أو إيجاباً. وليس لأحد القدرة على أن يمنع تشكلها واستمرار تعينها غير المتوقع.

وأهم سمة من سمات هذه الكينونة أنها كينونة صارت تملك أوسع حقل لممارسة حريتها. وراحت تشعر باستقلالها العاصف. فالكينونة التي كانت تتشكّل بفعل إرادي من قبل الآخر بما يملك من سلطة أيديولوجية وإعلامية، صارت كينونة حرة في الشرب من أي ينبوع تشاء.

وبالتالي صارت حرة في أن تختار لذاتها ما تشاء من معرفة وموقف قبولا أو رفضا أو نقداً.

وإذا كان صحيحا بأن الأيديولوجيا قد وجدت في الموبايل وسيلة لتسويق نفسها، فإن الكينونة الجديدة التي تنوعت مصادر معرفتها ووعيها صارت قادرة على الاختيار. وعليه، فإن أمام الباحثين السوسيولوجيين والسيكولوجيين ومؤرخي الأفكار مادة مفرطة الغنىً لدراسة الوعي المعرفي والجمالي والأخلاقي والسياسي في الخطابات قراءة هذه الآلة الجبارة.

والأهم من هذا فإن الموبايل قد ولد ذات قادرة على الظهور في الخطاب، والتعبير عن الموقف بالخطاب أمام جمهور واسع جداً. فولادة الخطاب الموبايلي حطم ثقافة الصمت والسكوت، بل إن التحايل على الخوف من صدور الخطاب يتم الآن عبر الاسم المستعار. بل إن الكينونة تخوض التعبير عن الاختلاف والتناقض والتضادّ في حلبة الموبايل، وتغدو الصراعات مكشوفة للخلق. بكلمة واحدة صار للكينونة رأي يقال بالعلن دون إذن من أحد.

فضلاً عن أن حالة الكينونة النفسية من حبّ وكره وحقد وفرح وحزن وتأفف وقرف وإحباط وأمل ويأس لم تعُد قارة في النفس، بل راحت تعبّر عن ذاتها، مما وفّر لها الراحة الوجودية.

أجل الموبايل بيتنا الجديد الذي لا يستطيع أحد أن يهدم جدرانه مهما حاول ذلك، إنه تطر جديد للكينونة البشرية.

كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات

عوالم ذكية لمجتمعات تمضي في المجهول

حسن مشهور

في مجتمعاتنا الحضارية ثمة مخترعات قد غيرت البنية السوسيولوجية لهذه المجتمعات وأحدثت جملة من التحولات فيها، ويأتي الهاتف المحمول على رأس هذه التقنيات التي تراوح تأثيرها على المكون البنيوي للمجتمع؛ بين المؤثر الإيجابي والسلبي منه.
وبتأمل جملة التغييرات التي طالت المجتمعات العربية تحديدا، جراء حضورية جهاز الجوال وخاصة جيل الهواتف الذكية منه؛ فإننا سنجد في ذلك الشق الإيجابي منه بأن هناك نقلات يشار إليها بالبنان في الواقعية المجتمعية العربية.

لو أخذنا جانب بيداغوجيا التعليم كأنموذج، فإننا قد ألفينا أبناءنا وبناتنا يتلقون دراستهم التكميلية من خلاله ويتعاملون كذلك مع التعيينات المدرسية والمشاريع الدراسية ومواقع التعلم الذاتي وغيرها العديد من مواقع التثقيف المعرفي؛ الأمر الذي يشير إلى أن هذه الهواتف الذكية قد حققت دوراها الإيجابي المتوقع منها في هذا الجانب.

ونفس الأمر قد تحقق للمواطن البسيط الذي ألفيناه يجري تعاملاته البنكية ويسدد فواتير خدماته الاستهلاكية ويحجز مواعيد سفره ومراجعاته الصحية عبر الخدمات الإلكترونية التي يوفرها له هذا الهاتف المحمول.

وحتى في الجانب الحقوقي، نجد تلك الوسائط التي يتصفحها الفرد عبر هاتفه الجوال وعبر التبادلية المعرفية الجمعية التي تتحقق في برامج السوشيال ميديا، فإن هذا المواطن العربي- وخاصة الذي يعيش في ظل نظم حكم شمولية- قد أصبح أكثر وعيا بحقوقه وواجباته ومن ثم لم تعد مسألة تهميشه وتجاوزه في إقرار النظم والتشريعات الدقيقة التي تتناول جانب معيشته بالأمر الهين.

الأجمل من ذلك أن هذا المواطن قد غدا أنموذجا للإعلامي المواكب للحدث أو «البابارازي» المصغر، إذ قد كانت هناك جملة من الأحداث والتجاوزات وبعض الوقائع التي قد كان طابعها داميا، ولكن تمكن بعض الأفراد في المجتمعات العربية التي جرت فيها هذه الوقائع من توثيقها عبر هواتفهم المحمولة الذكية ومن ثم نشرها أو تنصيبها في مواقع التواصل الاجتماعي الشهيرة، قد أدى بالتالي إلى تشكل قضايا رأي عام مثلت ورقة ضغط على الأنظمة الحاكمة تجلت في سرعة اتخاذ قرار حل إزائها وبالتالي تحقُّقْ سرعة المعالجة.

كما أن ما كان يمارس في السر من عمليات تهريب وفساد مالي وإداري، فإن عمليات تسجيله وبثه، التي وفرتها هذه الأجهزة الجوالة، قد مكّنت من إيصال مثل هذه الأمور والقضايا إلى السلطات وبالتالي تمت معالجتها للحد من تفشيها وامتداد ضررها بشكل كبير.

وفوق ذلك لن ننسى أن تلك البرمجيات ووسائل التواصل التي وضعها الهاتف المحمول بين أيدي مواطني العديد من دول العالم، وخاصة تلك التي تقطن في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وتحوي نظما أحادية، وتمارس أجهزتها الأمنية قمعا بحق معارضيها؛ وتجاوزات أمنية بحق مواطنيها قد أدت إلى سهولة تواصل مواطني هذه الشعوب مع بعضهم البعض وتنسيق جهودهم للخروج في تظاهرات مليونية في فترات زمنية بعينها، أدت بالتالي إلى سقوط هذه الدكتاتوريات.

بيد أن هذه الإيجابيات التي تولدت عن استخدام الهواتف المحمولة في حياتنا وانتشارها في الأوساط المجتمعية على اختلاف تشكيلاتها وثقافاتها؛ قد كان من المنطقي، بل والطبيعي، أن تصحبها على الجانب الآخر جملة من السلبيات والمساوئ. وهو أمر، في تقديري، مرده باعثان اثنان، أحدهما يكمن في مفهوم «الثنائيات الضدية»، الذي تشكل عبر الدراسات النوعية لليفي شتراوس حول أساطير الشعوب. وهو طرح يقوم على منظور فلسفي مُتَصَوَرْ لهذا العالم بما فيه حياتنا الدنيوية المعيشة، يقول بأن هناك ثنائيات بعينها تتسم بالتضاد كالخير والشر والظاهر والباطن والليل والظلام...إلخ، وهي ثنائيات وجودية تسير بالتوازي بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى إلا بالقدر اليسير، في حين يمثل الأمر الآخر؛ تلك الثقافة المشاعة التي ينتظم فيها عقد المجتمع، فالمجتمعات النامية محدودة التعليم ومتوسطة أو متدنية الدخل، من الطبيعي والمنطقي عندما تتوفر بين يديها تقنية ثورية في تمثيلاتها؛ فإن أغلب استخداماتها لها ستكون مرتكزة بالأساس على تلك المناطق الرمادية والجوانب السوداء من تطبيقات وتوظيف هذه التقانة. وهو الأمر الذي يدعونا مليا إلى التفكير حول تلك المقاربة التي تدعو إلى ضرورة تثقيف مجتمعات العالم الثالث حول الوسائل المثلى لتوظيف أي مخترع تقني ثوري قبل طرحه في أيدي شعوب هذه الدول. وهي دعوة تتشكل من منطلق توظيف هذا الجانب التوعوي كوسيلة احترازية ووقائية تحول دون ظهور الإشكاليات المتولدة من الاستخدام السلبي لهذه المنجزات العلمية الحديثة، فنحن لو تأملنا تلك السلبيات التي تمخضت عن الاستخدام الخاطئ للأجهزة المحمولة من قبل أفراد في عالمنا العربي، فإننا سنصاب بصدمة فكرية مهولة من حالات انتهاك الخصوصية التي مورست بحق العديد من الأفراد والأسر. من ذلك أن هناك أسرا بعينها قد تعرضت لحوادث مرورية، وعوضا عن تقديم المساعدة لها فقد وجدنا غالبية من شهدوا الحادث يتسابقون لتصوير أحداثه وإصابات الذين تعرضوا له في سعي محموم من كل فرد منهم؛ إلى أن يكون هو صاحب السبق في نشر الخبر في مجموعات التواصل الإلكتروني التي هو عضو فيها.

كما أن ظاهرة الابتزاز قد تنامت في المجتمعات العربية، وأصبح من يضطلع بها ليس مجرد أفراد منحرفين أخلاقيا وسلوكيا، وإنما عصابات أشبه ما تكون بالجريمة المنظمة، حيث سعت لتوجيه نشاطها في المجتمعات العربية في سبيل الحصول على الكسب المادي السريع خاصة من أفراد المجتمعات الخليجية الثرية.

وأكثر من ذلك، فقد وجدنا بعض النظم السلطوية قد دخلت على الخط كذلك. فأصبحت تعمل على تمرير أجنداتها السياسية عبر برامج التواصل الاجتماعي التي تحويها هذه الهواتف الجوالة الذكية، فتطلق حملات تعبوية لتشكيل رأي جمعي نحو قضية بعينها تهدف بالأخير لصالح استمرارية هذه النظم الحاكمة وتعزيز بقائها على المدى الطويل. فالإصلاحي الذي يطالب بالعدالة

محمد عبدالرسول

محمد عبدالرسول

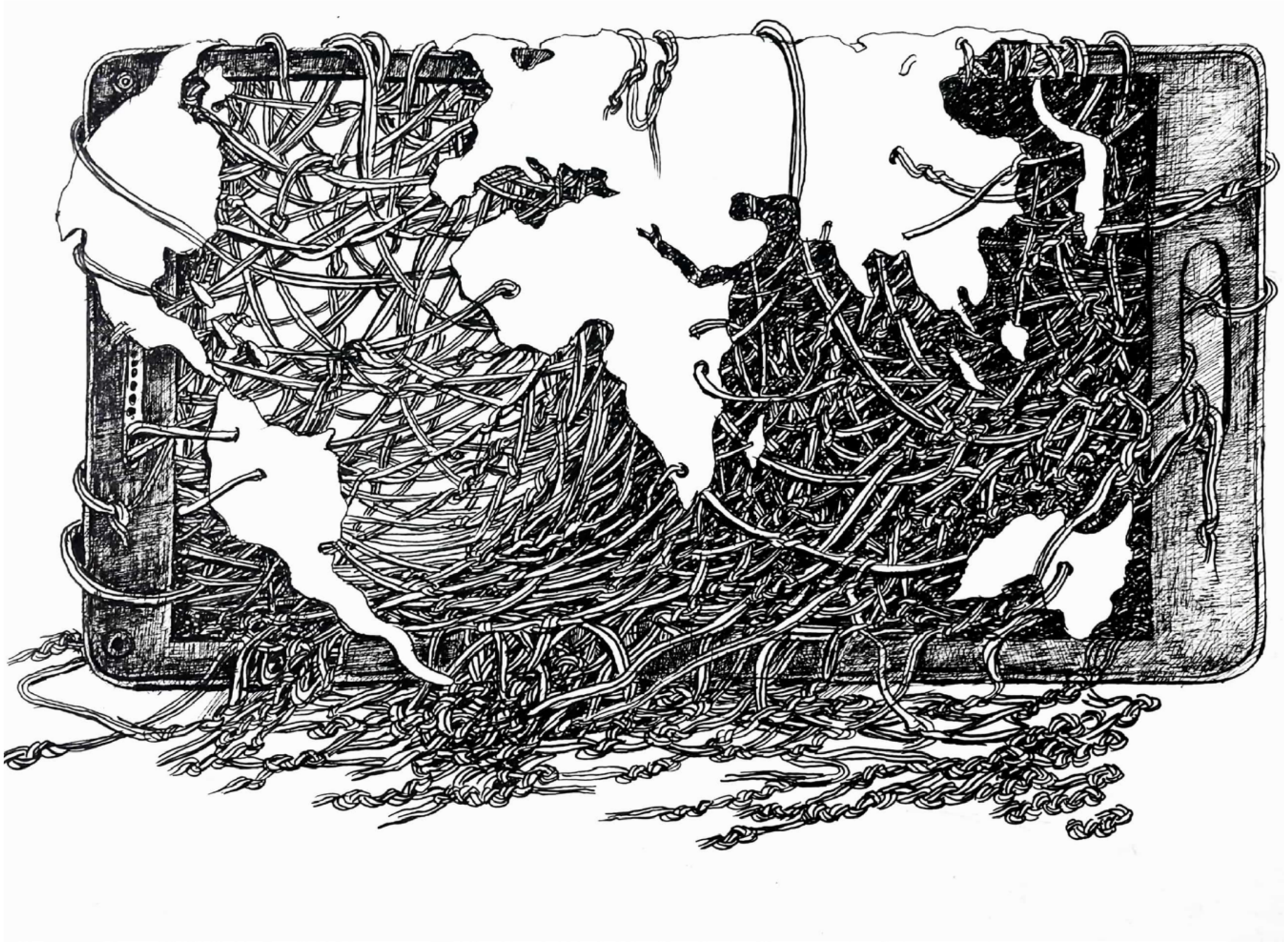

والحرية والمساواة قد أصبح في نظر الجماهير الموجهة سياسيا والمنقادة كليا، متطرفا فكريا ومعاديا للسلم الأهلي كذلك، والناشط الذي ينادي بحقوق الأقليات، قد أضحى موسوما بالطائفية المقيتة والسعي لإثارة القلاقل وربما وصم بالإرهاب.

وهنا تكمن الكارثة، إذ في الوقت الذي يسهم فيه الهاتف المحمول في تثقيف الفرد بحقوقه وتمكينه من مقارنة تشريعات ونظم دولته مع الأخرى الأكثر ديمقراطية وصيانة لحقوق الإنسان، ومن ثم سعيه للمطالبة بأن تحسن الظروف السياسية والمعيشة لأبناء بلده، فإننا نجد على الطرف المقابل أن هؤلاء الذين تتم المطالبة بحقوقهم قد تم توجيههم فكريا من لدن الدكتاتوريات ليتحولوا إلى قطيع منصاع لصانع القرار في بلدانهم ويرون في النشطاء المطالبين بحقوقهم أعداء للدين وللوطن.

وإذا ما حدثتهم عن تلك المظالم التي تمارس بحقهم من قبل النظم القمعية الحاكمة، فإنك ستجد منهم إجابات جاهزة لتبرير ما يتعرضون له من صنيع لا إنساني، بعضها قائم على تأويلات خاطئة للنص الديني، قد مررت إليهم من قبل المشيخيات النفعية المرتبطة بهذه النظم، عبر برامج الهاتف المحمول.

ومن هنا يتولد سؤال؟ هل أصبحت التقنية الحديثة التي تمثلت في الثورة المعلوماتية، تسهم في تقدم شعوب منطقة الشرق الأوسط، أم تعمل على النقيض في تعزيز رجعيتها المقيتة؟ يقيني أن الإجابة الناجعة على مثل هذا السؤال لا نملكها إلى حينه، وعليه، سيبقى الهاتف الجوال مثار جدل طالما كان باعثا للعديد من التحولات الاجتماعية ووسيلة لإحداث التغيير السوسيولوجي بشقيه.

كاتب من السعودية

ملف

نافذة متعددة الزوايا

رجاء البوعلي

«نافذة مترامية الزوايا تطلُّ على العالم» هذا هو معنى أن تمتلك جهازا ذكيا بحجم الكف. ففي هذه الإطلالة تجاوز لحدود الزمان والمكان والأنظمة الفكرية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية السائدة في بقعة أرضية دون أخرى، وبها تتفتح البوابات المعرفية على مصراعيها في قبضة اليد دون قانون أو سلطة تُقيد حركة الاكتشاف والبحث والاطلاع ومحاولات التعرف على الأشياء. ستظل تجمع عقول الآخرين وأحاسيسهم وقضاياهم وأخبارهم في ذاكرتك الشخصية وربما تستحضر شيئا منها وقت الحاجة.

التقنية الحديثة، متمثلة في هذا الجهاز الذكي، شرعت أبواب المعرفة والانفتاح الثقافي العالمي، فلم يعد العالم قرية واحدة على مستوى التجارة والاقتصاد فحسب، بل إن التبادل الفكري والمعرفي أيضا بات منافسا شرسا على حلبة العولمة وربما هذا أحد التحديات الصارمة التي تواجهها المعرفة والثقافات لدى الشعوب المختلفة، الأمر الذي يقدم مخرجاته على الصعيدين؛ الإيجابي والسلبي، فعلى سبيل المثال وليس الحصر؛ أصبحت بعض الأفكار تحت وطأة التحدي العالمي من أجل اختبار صمودها أمام التغييرات والتحولات عبر الظروف الزمكانية؛ فالثنائيات المعروفة كالحسن والقبح والخير والشر باتت أسيرة الامتحان أي خير يصمد؟ وأي شر يبقى شرا بمعايير محايدة تنطبق عالميا؟ هذه إحدى نتائج الانفتاح المعرفي والتبادل الفكري والثقافي الذي يحدث تارة في الواقع المباشر وفي الكثير من الأحيان لا يحتاج إلا إلى جهاز ذكي بحجم الكف. أما التأثير السلبي فلا يمكنني الجزم بطرائقه عبر هذا الجهاز «الموبايل» لأن السلبية معيار شخصي متفاوت بين الناس فربما ما أعتبره سلبيا يعتبره الآخر ليس كذلك والعكس صحيح، ولكن يمكن لفت الانتباه في ما يتعلق بثقافة الموبايل إلى أنها خلطت الشرائح المجتمعية بشتى مستوياتها واختلاف أنماطها، وبالرغم من أن للدمج بين المختلفين مزايا حسنة إلا أن هناك خلطا وإتاحة الفرص لمن هو ليس أهلا وفتح بابا مشبوها يعود بالسلب على القيمة المعرفية والثقافية.

تُعتبر تطبيقات الهواتف الذكية هي الأيقونات للدخول إلى المواقع العالمية والتي قدمت لكل فرد فرصة امتلاك منصة لعرض ما يرغب ويشاء ويختار لنفسه مشركا معه تفاعل المنصات الشخصية الأخرى، فما صنعه Google Search من دور لا يُقدر بثمن لعمليات البحث والاطلاع على مختلف الاحتياجات المعرفية للأفراد كما الوصول إلى أبعد المواقع، فلم تعد الإجابات محصورة في ذاكرة الإنسان بل أصبحت مصفوفة بشكل منظم في أرفف غوغل سيرتش، فأي سبيل يمكن أن يكون أسرع وأسهل وأرخص ثمنا من طريق غوغل؟ كذلك المكتبة لم تبق على نمطها القديم، فهي اليوم لا تحتاج إلى الخروج من البيت وتشغيل السيارة ودفع كلفة الوقود ومواجهة طرقات مختلفة، وربما يكون الكثير منها بعيدا، فقد أصبح «الموبايل» يحمل مكاتب ضخمة على ظهره ويركب بها طرائق البر والبحر والجو بلا أدنى مجهود سوى بعض الريالات مقابل تشغيل الخدمة. وربما ما يفوق الروعة هو التبادل والتواصل الإلكتروني عبر برامج التواصل الاجتماعي والحسابات الشخصية التي تمنح المتعلم طريقا مختصرا للتحدث لأي معلم يراه مناسبا، وتعطي الباحث عن المعرفة والثقافة فرصة رحبة للانفتاح على عقول الآخرين وتطارح الأفكار معهم والتأثير عليهم أو التأثر بهم.

ينبت سؤال مفصلي: هل هناك مقارنة بين رحابة هذا التواصل الافتراضي ومحدوديته في العالم الواقعي؟ فاللقاء ليس حكرا على الأحياء من المفكرين والمثقفين والمبدعين بل يتجاوزه إلى لقاء الراحلين عبر أشخاص يتبنون قناعاتهم ويدافعون عنها وفي حالات متقدمة يحتربون من أجلها احترابا جادا ينتقل من بعده الافتراضي إلى الواقعي.

الكثير الكثير يمكن قوله في هذا الشأن - تطبيقات الهواتف الذكية - ولكن المقام لن يتسع لإسهاب يضاهي رحابة هذه التقنية المتقدمة جدا، وفي الوقت ذاته الحديث عن كل هذا المجال الإثرائي للإنسان لا يغفل البعد السلبي الذي قد تخلفه استعمالات هذه التطبيقات، لأنها كما ذكرنا بوابة حرة تنفتح بضغطة زر أصغر من حجم رأس الإصبع وتترك للمستعمل خيار التحكم ليأتي دور الذات العميقة في الفرد ويحرك البوصلة.

إن «وجود الطوب يعني احتمالية بناء أو هدم»، يمكننا أن نقول بناء وهدم كما يمكننا أن نقول بناء أيمن وبناء أيسر، كذلك يمكن اختيار مسمى آخر وهو بناء إلى الأعلى وبناء إلى الأسفل. كلها فضاءات افتراضية تمهد الطريق لمدينة واقعية تجمع على أرضها المتشابه من الناس، وتمنحهم فرصة كبيرة في رؤية أنفسهم في وجوه الآخرين؛ الأفكار، الأنماط الشخصية، المعارف، التصنيفات، المبادئ، الطبائع، الثقافات، إنها فرصة مدهشة لنعرف من نحن بالنسبة لعالم كبير بمجرد إمساكنا بهذا الجهاز الصغير؟

بطبيعة الحال؛ الارتباط -المعرفي- الوثيق بالموبايل يثير استفهاما جوهريا: ما الذي أدخله الموبايل على سلوكياتنا الاجتماعية وتوجهاتنا وخياراتنا الثقافية؟ شخصيا لا يمكنني التحدث بصيغة الجماعة، فأنا أؤمن بفردانية التأثر، الأمر الذي يجعل الأثر متفاوتا بين هذا وذلك. ولكني أرى أن انفتاح بوابة ثقافية بحجم بوابة العالم الافتراضي يتيح للفرد خيارات أكثر تنوعا، بالتالي هذا الانفتاح قادر على إعطاء الفرد الحرية أكثر وتقديم الذات كما هي. ومع هذا نرى بصورة جلية أن الجماعات المنقادة تظل على حالها، بل قد يزيدها الفضاء الافتراضي انقيادا وانبهارا أشد، وهنا تبرز الفروقات الفردية بين شخص وآخر. فهل نخاف هذا الجهاز؟ «كلما نغوص إلى العمق، كلما ينخفض منسوب الخوف»، فالتجربة خير برهان وامتحان، وليس هناك من يستطيع امتحانك أكثر صدقا من نفسك، ماذا فعلت وماذا فعل بك هذا الجهاز؟ هل حدثت معركة ما؟ من الذي انتصر فيها؟ هل استطاع تبديل ملامحك وإلى أي مدى؟ ما الذي يخيف في استعماله؟ وما الذي يوحي بالأمان له؟ إنها مسالك كشوارع مدينة للتو نزورها، قد نخشى دهاليزها الضيقة الممطرة، وربما المظلمة، ولكننا نأمن الطريق بعد تجربة المرور بسلام فهي فرصة لنكتشف شيئا جديدا في المكان، وفي أنفسنا. ومؤكد بعد هذا الحدث سنكون أكثر لياقة ومهارة وقدرة على خوض المسير مرة واحدة وثانية وثالثة.. إلخ.

وعلى هذا فالتعامل مع الموبايل ليس اتصالا طارئا بالمستشفى أو البنك أو مركز التموين الغذائي، بل هو تواصل عابر للمجالات العملية فقط، وهذا ما يفسر ارتباط الأفراد بالأجهزة الذكية؛ ففي قبضتك بوابات متعددة؛ العمل، الأسرة، الأصدقاء، المفكرون والأفكار، الفكاهيون والمرح، العلماء والمعرفة، الأدباء والأدب، التاريخ والجغرافيا والفلسفة والدين وغيرها من مجالات يمكننا الإحاطة بها أو لا.

في الختام، لا ننس أن هذا الموبايل يحمل العالم كله ويقدمه طوعا لمختلف المراحل العمرية، ولأن الناشئة عرضة للاهتزاز أكثر من غيرهم، فماذا يمكننا فعله معهم؟ على المستوى الثقافي والمعرفي، حاجة الناشئة للتنبيه أو التوجيه قبل استعمال الموبايل كحاجتهم قبل الدخول إلى مدرسة جديدة أو ملعب رياضي جديد أو لقاء أبناء الحي لأول مرة أو رحلة ابتعاث جديدة، فالناشئ يأتي ببنية فكرية تأسيسية تربوية أولى تلقاها من أسرته ودمجها بصفاته الشخصية ليواجه بها العالم الافتراضي لأول مرة، قد يلاطخه الموج ويصفع بأفكاره المعلبة عرض الحائط ليشيّد أفكارا جديدة، وقد يستطيع الإمساك بزمام الأمور دون هزة واحدة، وقد يكون بين الاثنين. ومع هذه التماوجات ستكون ثقافة الموبايل بالنسبة للمهتم بالمعرفة سماء ماطرة ومجيبة للنداءات والاحتياجات الفكرية مهما حملت من عواصف.

كاتبة من السعودية

تحول تويتر إلى أهم محطات الأخبار والتواصل البرقي في العالم

شاشات الخلاص

عمّار المأمون

نشاهد في الحلقة الأولى من الموسم الثالث من المسلسل البريطاني الشهير «المرايا السوداء»، تخيلا مستقبليا للعالم، الجميع فيه أسرى هواتفهم النقالة، بسبب هيمنة شكل جديد من التواصل الاجتماعي، إذ يقوم كلّ فرد بتقييم الآخرين والإطراء على سلوكهم، أو العكس، ينتقدهم ويقلل من مدى «شعبيتهم»، ليتحول جهده ونشاط الفرد الواقعيّ إلى معيار لـ«تقييمه» على الشاشة، فـ«الحياة الرقميّة» هي التي تحدد مدى القبول الاجتماعيّ للفرد، وترسم طبيعة الدور الذي يمكن له أن يؤديّه أمام الآخرين، هذه الرؤية المستقبليّة، لا تنتمي إلى الخيال العلميّ كليا، بل ويمكن اعتبارها قريبة التحقيق، خصوصا أن الهواتف النقالة أصبحت جزءا من حياتنا، وامتدادا لأجسادنا الماديّة، أشبه بحاسة جديدة، تتيح لنا إدراك أنفسنا والآخر بصورة مغايرة، هذا الآخر ليس فردا فقط، بل فضاء متكامل، إذ امتد تأثير الشاشات حد تأسيس عوالم افتراضيّة متكاملة، ذات تأثير على الظاهرة الثقافيّة والسياسية على أرض الواقع، وكأن تغييرا أنطولوجيا قد حصل مع مطلع الألفية الثانيّة، تحولت فيه الشاشة/الموبايل إلى «عامل-agency» أعاد تقسيم الموجودات، مما غيّر طبيعة تفاعلها وحدودها.

غرافيك «الجديد»

يمكن تلمس دور الهواتف النقالة عبر رصد وجودها ضمن القطاع الفنّي، سواء كانت وسيلة للإنتاج أو عنصرا ضمن عملية تكوين العمل الفنّي، إذ تحول الهاتف المحمول ذو الكاميرا والشاشة ومجموعة التطبيقات التي يحويها إلى مولد لظواهر ثقافية دخلت ضمن النشاط الفنّي التقليدي، وغيرت من خصائصه ومرجعياته، بل وحلّت أحيانا مكان الدلالة الواقعيّة، ليكون الأصل وليد الشاشة لا التجربة الحيّة، في مقاربة لهذه الفكرة، قام المخرج السوري عمر بقبوق بتأليف وإخراج عرض مسرحي باسم FB Syrialism، بالاعتماد على منشورات وسائل التواصل الاجتماعي، والصور التي نتبادلها على الهواتف النقالة، وتلك التي تظهر أمامنا أثناء تصفحنا للشاشات، يقول بقبوق إنه كتب نص العرض مستفيدا من الكم الهائل من الصور والنصوص التي ينتجها مستخدمو الفيسبوك، في محاولة للسخرية من طبيعة بعض النقاشات التي تثيرها بعض منها، وخصوصا أن الفيسبوك لعب دورا كبيرا في الثورة السورية، ويضيف «حاولت أن أجمع منشورات لشخصيات معروفة وأخرى غير معروفة وعرضها أمام الجمهور، والتعليق عليها بصورة ساخرة أو جديّة، في محاولة لإبراز التناقض الذي تحويه عملية التصفح ذاتها، خصوصا أنّ تتالي المنشورات قد ينقل الفرد من حدث مضحك، إلى آخر شديد المأساوية، إلى جانب إمكانية التصفح في أي مكان وزمان، بسبب توافر الهواتف النقالة بأيدينا، وهذا ما استفدت منه أثناء إخراج المسرحيّة، محاولا اكتشاف ردود الأفعال المختلفة حين تتحول المنشورات إلى مادة فنيّة، بغض النظر عن قيمتها».

تحول الموبايل أيضا بسبب تقنيات التصوير المتطورة التي يحويها، إلى كاميرا صالحة لإنتاج أفلام من نوع جديد، خصوصا أنه متوافر في مختلف الأوقات ويمكن أن يبدأ الشخص التصوير في أقل من ثانيّة، كحالة المخرج السوري الشاب محمد حجازي، الذي يعمل حاليا على مونتاج فيلمه الأول، والذي يوثق رحلته من تركيا نحو أوروبا، إذ عمد باستخدام عدسة الموبايل، إلى تسجيل رحلته وتفاصيل عبوره الحدود البرية والبحرية، إضافة إلى الصعوبات المختلفة التي واجهها، ومن عرفهم من فنانين في بلدان المهجر، ويرى حجازي أن وجود الموبايل جعله في بعض الأحيان يأخذ مسافة مما يحدث، ليصور بعين المخرج الذي يريد أن يروي حكاية بصريّة، لا الهارب أو المشغول بنجاته. فالموبايل يتجاوز تعقيدات الكاميرا التقليديّة، فحجمه وسهولة التحكم به جعلاه أداة إنتاج فنيّة متاحة في أي لحظة، ويضيف، «كنت أحاول دوما التقاط تفاصيل مختلفة من رحلتي إلى جانب الحفاظ على تسلسل الأحداث ومنطقيتها، إذ لم يكن هناك سيناريو سابق، كنت أسجل ما أراه واختبره جسديا ونفسيا، إلى جانب مراعاة خصائص التصوير السينمائي والصناعة البصريّة، ما جعل رحلتي أقرب إلى اكتشاف فنّي، واختبار قدرة هذه الوسيلة على نقل التجربة التي عشتها بصورة مفهومة، بعيدة عن التصوير الهاوي أو التركيز على التوثيق المرتبط بالمجال الإنسانيّ».

يمتد حضور الموبايل أو الأجهزة اللوحيّة إلى صناعة النشر، إذ أصبح النشر الرقميّ ضرورة ملحّة، في ظل الحدود الجغرافية وسياسات الرقابة والمنع، وتكاليف الشحن المرتفعة، لذلك عمدت الكثير من دور النشر العربيّة إلى اعتماد هذه التقنيّة، كدار سرد حديثة التأسيس، والتي تتيح للقراء شراء الكتب إلكترونيّا وقراءتها على الشاشة، تعقيبا على ذلك، يقول فايز علام مؤسس ومدير دار سرد «شخصيا مازالت أفضل القراءة من الورق، وأفضل الكتب المتناثرة من حولي، إلا أن المتغيرات الجديدة في الساحة الثقافيّة وارتباطها بالتكنولوجيا، جعلت النشر الرقميّ خيارا ناجحا في بعض الأحيان، خصوصا أن

شاب مصري يصور مظاهرة في إحدى قرى مصر تطالب بتحسين خطوط الإنترنت

هناك الكثير من الطلبات على كتب وروايات من الصعب شحنها، سواء بكميات كبيرة أو قطع منفردة، بسبب السياسات المختلفة، وتحديدا أثناء معارض الكتاب في المنطقة العربيّة، ما جعل النشر الإلكتروني وسيلة لتجاوزها، إلى جانب تزايد أعداد المهاجرين في أوروبا والذين من الصعب إيصال الكتب لهم في ظل ارتفاع أسعار الشحن، إذ يمكن للقارئ حاليا دفع ثمن الكتاب وقراءته مباشرة دون أي تعقيدات، ومع ذلك مازلت حريصا على نشر الكتاب ورقيا، كون الكتاب الورقي مازال أساس صناعة النشر».

لعبت الأجهزة المحمولة والموبايلات دورا كبيرا في الربيع العربي، إذ جعلت المتظاهرين مرئيين للعالم ولبعضهم البعض، ما دفع بأجهزة القمع وأنظمة الرقابة إلى أن تحارب بشدة تقنيات «التقاط وتسريب الصور»، سواء تلك التي تبث مباشرة، أو تلك التي تتيح تناقل الصور بين الناشطين، فالأجهزة المحمولة ساهمت بإيصال أصوات الآلاف من المحتجين إلى العالم بأسره، بل إن الأفراد اضطروا إلى تطوير تقنيات بصرية تعتمد على الهاتف المحمول لتوثيق ما تشهده بلدانهم، أشهرها تلك التي شهدتها الثورة السورية، حيث اضطر مصورو المظاهرات إلى وضع ورقة أو صحيفة يومية رسميّة أمام عدسة الموبايل، لتوثيق المكان والزمان اللذين تدور فيهما المظاهرة، وفي حديث مع أحد الناشطين السوريين الذي رفض الكشف عن اسمه، يقول إن النظام في سوريا كان يحارب الأجهزة المحمولة بأيدي الجميع، إذ كان ممنوع التصوير في الشارع خلال الأعوام الخمسة الأولى من الثورة، ويقول إنه كان مضطرا مع منظمي المظاهرات في الأعوام الأولى إلى حمل عدة أجهزة موبايل للتصوير والبث المباشر، ثم الحرص الشديد على عدم لفت النظر أثناء المشي في الأماكن التي يسيطر عليها النظام، وخصوصا على الحواجز التي كانت تخضع فيها الهواتف النقالة للتفتيش إن كانت هوية الفرد تثير الشكّ بسبب المنطقة التي ينتمي إليها، ويضيف «كان امتلاك هاتف نقال متطور يعتبر تهمة في بعض الأحيان، لذلك كان لدي اثنان، واحد بدائيّ لا يثير الشبهات، وآخر استخدمه في المظاهرات لبث وتوثيق ما يحصل، خصوصاً أن بعض الهواتف المتطورة كالثريا وغيرها التي تتيح لنا البث الفضائي، كانت ذات شكل مميز، ما يعني الاعتقال مباشرة في حال شُوهدت بيد شخص ما، ما جعلنا نطور طرقا مختلفة لتهريبها ونقلها بين أشخاص لا يثيرون الريبة، لتجنب خسارتها، إذ كانت الهواتف النقالة سلاحا ذا حدين، لكن لا غنى عنها».

تحضر الهواتف النقالة وتطبيقاتها ضمن تفاصيل الحياة اليوميّة للمهاجرين واللاجئين، فالصعوبات البيروقراطيّة وحواجز اللغة، جعلت حياة الكثيرين معطلةً، خصوصا أثناء عمليات طلب اللجوء أو تسيير الشؤون الإدارية، وهذا ما دفع مجموعة من المصممين المقيمين في فرنسا إلى إنتاج تطبيق على الهاتف المحمول باسم «يد واحدة»، وعبره يتمكن الواصل إلى فرنسا من الحصول على الكثير من المعلومات التي تفيده في حياته، لا مجرد لحظة وصوله، لأن التطبيق لا يتناول فقط الإجراءات القانونية أو المرتبطة بالدولة ومعاملاتها، بل يحوي أيضا عناوين وأرقام هواتف الأطباء السوريين والمترجمين المقيمين، بالإضافة إلى عناوين السفارات والدوائر الحكومية.

لا يمكن أيضا تجاهل حقيقة أن الهاتف النقال تحول إلى وسيلة للنجاة، فالكثير من الأخبار المتواردة عن الآلاف من المهاجرين من مناطق الحروب تتحدث عن المهاجرين وتاركي أوطانهم الذين استعانوا بالهواتف النقالة لإيجاد طريقهم عبر الحدود غير النظاميّة، ففي حديث مع باسل كرجوسلي، يخبرنا كيف قام بشراء هاتف نقال متطور من تركيا يحوي نظام تحديد المكان العالميّ قبل توجهه نحو ألمانيا، ليكون دليله أثناء عبوره للحدود الأوروبيّة، ويضيف «في بعض الأحيان كان الطريق يبدو غير مأهول أو كأني ضعت مع رفاقي في مكان لا نعرفه، لكن كان نظام تحديد الموقع والهاتف المحمول وسيلتنا الوحيدة للحفاظ على مسارنا، وكان علينا دوما الاحتفاظ ببطاريات إضافية والتواصل مع أصدقاء لنا في تركيا كي يبقى الخط فعالا».

كاتب من سوريا مقيم في باريس

ملف

النظر في فراغ الموبايل

أحمد العجمي

يعيش العالم الآن لحظة الذكاء الاصطناعي؛ هذه اللحظة الحضارية التي تكون فيها الأجهزة الذكية هي الأدوات التي يستخدمها الإنسان في تحسين وتسريع وتوسيع نطاق حياته. ومن ضمن هذه الأجهزة الذكية يكون الهاتف متعدد الوسائط، والذي يتضمن تطبيقات متعددة ومتنوعة يمكن استخدامها للتواصل وللتفاعل الاجتماعي والثقافي والاقتصادي أيضا. فهي نوافذ تتيح لاستيراد ولتصدير الأفكار والمهارات والأنشطة والسلوكيات. وهذه النوافذ المفتوحة متاحة لأي فرد يمتلك هاتفا ذكيا متعدد الوسائط باختلاف الأعمار والفئات.

أدى انتشار استخدام هذه الهواتف وتطبيقاتها إلى تفشي ظاهرة التواصل الافتراضي وظاهرة الفوضى المعرفية التي أصبح من السهل بث وتوصيل ما يتعارض مع العلم والتفكير الناقد والقراءة الإبداعية باعتباره حقائق.

هذه النوافذ لا تنفتح على ثقافة واحدة، وإنما على ثقافات متعددة. وهي تقوم بدورين قد يبدوان متناقضين وهما: التواصل والوصول، والاختراق؛ ومن هنا فإن التعامل الإيجابي مع هذه الأجهزة يفترض الوعي والمهارة والتحصين. فالوعي والمهارة يسهلان انسيابية التواصل مع الثقافات الأخرى أو مع الجماعات والنخب، ويسهلان الوصول إلى الأفكار والمعلومات ومصادرها وإلى الأسواق وأماكن السياحة.... إلخ، كما يسهلان التواصل مع الأهل والأصدقاء. وكذلك الوعي والمهارة يحسنان سبل التحصينات والوقاية ضد أي نوع من الاختراقات سواء الثقافية أو الاجتماعية أو حتى الخصوصية.

لكن هذا الوعي والمهارة في التعامل مع إمكانيات الهاتف الرقمي لا يمكن أن يكونا قويين عند كل مستخدميها، وخاصة الأطفال، وبالتالي يضعف التحصين وتضعف الاستفادة من فضاء النوافذ والبرمجيات المتنوعة في الفن والأدب والتعلّم... إلخ. وفي هذا السياق يمكن أن يكون هناك هدر فائض في الوقت وفي سوء الاستخدام أو تقصير في تحقيق الفوائد الممكنة من إمكانات الهاتف الرقمية.

ومن خلال الملاحظات العامة يظهر أن الكثيرين من مستخدمي هذه الهواتف يقصرون تعاملهم على برمجيات محددة وأنهم قد لا يستخدمون هذه البرمجيات وبما يتناسب وإمكاناتها أو إمكاناتهم هم أيضا. قليلون هم من يوظفون برامج الهاتف لتطوير ولنشر وتصدير اهتماماتهم وأنشطتهم الفنية والثقافية من شعر وموسيقى وفنون تشكيلية، أو قدراتهم الثقافية والعلمية والفكرية، وقليلون أيضا من يتواصلون مع هذه الاهتمامات ومع ما هو موجود في هذا العالم من نتاج عالمي متطور ومتنوع.

أكثر النوافذ المستخدمة في مجتمعنا هي نافذة (الواتساب) والتي تنشغل بلا توقف في خلق شبكات تواصلية اجتماعية صامتة تتلقى وتصدر مشاركات أكثرها مسطحة أو مكررة دون أن تتناغى مع العقل العميق المفكر أو الناقد.

وهذا البرنامج الاجتماعي الذي عادة يكثر استخدامه لحظة الجلوس في المنازل مع الأسرة أو في المقاهي مع الأصدقاء يقوم بتفريغها من وظائفها الاجتماعية والثقافية فتصبح هذه المنازل والمقاهي ممتلئة بالصمت والوحدة وخالية من العلاقات الاجتماعية، وفارغة من التواصل الإنساني. وهذا البرنامج لا يشغل نطاقا كبيرا في الجغرافيا؛ فهو يعمل بقوة ربط الجماعات القريبة جغرافيا (منطقة، بلد، إقليم)، ويقوي بين جماعات القرابة، وبين من يحملون ذاكرة مشتركة كالطلبة أو الموظفين، أو الأدباء والفنانين، أو الرياضيين...إلخ. واسترجاع هذه الروابط والشبكات يعتبر مؤشرا إيجابيا للواتساب. وعلى شاشة الواتساب تنزل وتتداول النوافذ الأخرى مثل التويتر والإنستغرام والفيسبوك واليوتيوب والسناب... إلخ؛ أي أن الواتساب عبارة عن بحيرة لكل هذه البرامج تسبح فيها دون توقّف ويختلط فيها الحقيقي بالمنتحل.

أما التويتر فهو برنامج يلف الكرة الأرضية، وقد لعب منذ ظهوره تأثيرا واضحا في مسارات الأحداث السياسية التي مر بها العالم، وهذا البرنامج يعتبر نافذة للرؤساء وللمسؤولين ولمؤسسات حكومية ولمنظمات حقوقية وثقافية واجتماعية مختلفة، يبثون من خلالها ما يريدون التعريف به. كما أنه يتيح للأفراد نشر أفكارهم وآرائهم وثقافاتهم واهتماماتهم. ولهذا يمكن لأي شخص ناشط في أي مجال أن يكون مؤسسة إعلامية أو إعلانية أو حزبا سياسيا من خلال عدد الأفراد والمؤسسات التي تتابعه على التويتر؛ فتويتر جعل الفرد مؤسسة، وجعل المؤسسة فردا يمكن تتبع نشاطه.

ومع هذا التأثير المتعدد للتويتر يسهل الاختراق الثقافي الاجتماعي والسياسي والشخصي؛ حيث أنه تتوالد وتتكاثر عليه حسابات صحيحة أو وهمية تنشط في ذلك وتبث الخداع والتدليس وصناعة الجهل. وكشف تويتر فداحة الشروخات والانكسارات الطائفية وثقل العنف والتشنج المشحونة بها مجتمعاتنا عموديا وأفقيا، وأصبح شاشة لحروب وتصفيات فكرية ودينية وسياسية، وربما شخصية أيضا.

والفيسبوك من النوافذ التي يتيحها الهاتف. ونرى أن هذه النافذة أو هذا الجدار الرقمي يمنح خيارات متعددة من أجل استثماره ثقافيا وأدبيا وفنيا واجتماعيا، والتشارك في تصفحه على مستوى العالم. ويظهر تصفح الفيسبوك بأن هناك استثمارا أفضل له ضمن التواصل الثقافي والفني والاجتماعي، ويعطي مساحة واسعة وعمقا أكبر من على هذه الشبكات التواصلية والتفاعلية، لكنه مع ذلك يوفر بيئة أيضا لهجومات ولاختراقات من قبل الألسن التي تتغذى على التناحرات والعنف والترهيب، ومن قبل الذين يتلاعبون بالعقول والمشاعر والقيم والأخلاقيات.

ومن البرامج المفيدة التي يضعها الهاتف في تناولنا برنامج إنستغرام؛ وهو برنامج يمكن أن يستثمر بطريقة إيجابية في تداولية الصور والكتابة، وينتظر من الفنانين والأدباء أن يوظفوه لأنشطتهم ونتاجاتهم، لكن نلاحظ أن الكثير من هؤلاء المثقفين والفنانين والأدباء يقتصر توظيفهم على إغراقه بالصور الشخصية أو العائلية أو بصور الطعام أو بما هو بعيد عن الثقافة والفن، أي يغلقونه على أنشطة بعيدة عن أنشطتهم النخبوية؛ وبالتالي يضعف كنافذة ثقافية وفنية.

ومن إيجابيات الهواتف الذكية أنها توفر خاصيات متعددة للمعرفة والبحث والتعلم، وهناك الكثيرون يستخدمونها في ذلك، لكن الانشغال اليومي المتواصل في تصفح وملء هذه النوافذ بالمشاركات يجعل الفرد في دوّامة متواصلة معها ومع مادتها باعتبارها ثقافة أو تواصلا ثقافيا واجتماعيا، ويسلب منه قدراته ووقته في التعامل مع الثقافة الأعمق والتي تحتاج إلى التفكير والتأمل والجهد والصبر والمثابرة؛ ويبقى الكائن متنقلا بين هذه النوافذ ليشحنها ببعضها البعض، ويغرف منها معارفه ويبدد فيها وقته وجهده.

لقد استطاعت ثقافة الهواتف النقالة المسطحة، من خلال برمجياتها، أن تضعنا أمام واقعنا الهزيل والهش والممزق، وأمام مستوى الرغبة الدفينة في دواخلنا للتناحر بأي طريقة، ومقدار حاجتنا لتفريغ كمية الكبت الهائل والنقص الفادح من الحرية، كما أظهرت مساحات سوء استخدامنا لها وإمكاناتها؛ فهناك نقص في الوعي بها، بسبب أننا لم ننتجها بل نحن مستهلكون لها ومبذرون لإمكاناتها وخصائصها، فأصبحت حياتنا مخترقة بها ومدارة من خلالها.

في النتيجة تقودنا ثقافة الذكاء الاصطناعي المقتضبة والسريعة التي نمارسها ونتداولها إلى التشوش والتساهل مع الفكر ومع مشكلاته، ونصبح انتقائيين خاضعين لتأثيرات التداول السريع غير الخاضع للفحص النقدي وتساؤلاته، ومن هنا يحدث الاختراق الذي يجعل عقولنا مستهلكة في القراءة والكتابة السطحية تعويضا عن الصمت الذي ينمو ويتسع في حياتنا.

شاعر وكاتب من البحرين

ليس كل ما يمكن ان نصل إليه عبر الموبايل مفيد أو ليس فارغاً من المعنى العميق

ملف

الكتاب المشع

الموبايل والثقافة المعاصرة

جعفر حسن

الثقافة تسع كل الحياة الإنسانية في مجتمعاتها المتعددة بما فيها ذلك الاختلاف بين الجيل القديم والأجيال الجديدة، لم يكن عمر التلفون كبيرا في حياتنا الاجتماعية، ولكنه بدأ مثل المجتمعات القديمة يسمح بالتشارك الاجتماعي، فكان سلعة لكل العائلة، بينما لم يقف الجهاز عن التطور استجابة لمتغيرات العلم وضغط الاستهلاك، فبات يتحول شيئا فشيئا إلى سلعة فردية يحيطها الفضاء الفردي بسياجه حتى بين أقرب الشركاء في السكن، ولم يتوقف الموبايل عن التطور وبات قادرا على استخدام الكثير من البرمجيات التي كانت حكرا على أجهزة الكمبيوتر، وذلك بشكل متسارع حتى أنه فاق تلك الأجهزة القديمة وباتت برمجياته شكلا جديدا من أشكال التواصل الاجتماعي المكتوب والمنطوق والمرئي.

ومع انتشار العولمة مررت الفردانية إلى مجتمعاتنا التي لم تكمل إنجاز الثورة الصناعية وظلت بناها تقليدية أو شبه تقليدية في تشكيلتها الاجتماعية وأنساق تفكيرها وعاداتها وتقاليدها، وكان المحمول إحدى وسائل تمرير تلك الفردانية، ولعل ذلك هو السبب الأكبر لإنتاج كم كبير من التهويل والتخويف من انتشار الموبايل وتهويل مشاكله، وهو شأن مقصور على الاتجاهات الرجعية التي تحذر من كل جديد، وبحسبة بسيطة نجد كم التحذيرات من المحمول تدخل حتى في الدراسات الأكاديمية الاجتماعية المحكمة، وبطبيعة الحال نجد أن كل جهاز له وجهان ينتجان عن الاستخدام، ولكن فقدان السيطرة على المحمول هاجس لكل من التيارات التقليدية في المجتمع وأجهزة المراقبة والتعقب في الدولة.

لقد ساهم الجيل الجديد من الشبكات اللاسلكية التي تضمن تسارعا فائقا في انتقال البيانات بين المراكز المختلفة وأجهزة المحمول إلى تحول تطبيقات معروفة عند مشغلي أجهزة الكمبيوتر إلى المحمول، وقد فتح ذلك الصراع بين سرعة المعالجات في المحمول واتساع الذاكرة من جهة وتطور برامج جديدة تحتاج إلى معالجات أسرع ومساحات ذاكرة أكبر، مما يدفع الاختراعات لتصغير المكونات وبسط مساحة أكبر للذاكرة وتطوير معالجات أسرع ، حتى بات المحمول يوظف كأداة في التواصل الاجتماعي، ولعل هناك القليل من الناس من ينكر دور تلك البرامج في إحداث الحراك الواسع في ما بات يعرف بالربيع العربي، ولعل أهم تلك البرمجيات التويتر والإنستغرام والواتساب.

من الوجهة الثانية نتكلم عن جيل جديد خلق وفي يده الموبايل منذ الطفولة المبكرة، وبالتالي أصبح أكثر قدرة على التعامل مع هذا الجهاز من الجيل الذي لم ير الكمبيوتر إلا في ثمانينات القرن الماضي، ولعل تعدد البرامج التواصلية يضيق المساحة المتاحة للتواصل المباشر الذي كانت الدراسات التقليدية تشير إليه بأن الإنسان كائن اجتماعي، وقد أضافت تلك البرامج طرقا جديدة لم تكن في حساب تلك الدراسات للتواصل الإنساني، وعندما عجز أمامها الدعاة الذين كانوا يحذرون من استخدامها، صاروا يستخدمونها هم أنفسهم لنشر قضاياهم العامة.

تشكل المعرفة خليطا كبيرا من البيانات المتعددة الموجودة في الكمبيوترات المركزية، ولعلنا اليوم أكثر سرعة في الوصول للمعلومة سواء عن الأزياء أو الطبخ أو حتى التصليح والتركيب، ومعرفة الاتجاهات وأسرع الطرق للوصول عبر المحمول، وربما تكون المعرفة العلمية المتاحة باللغة العربية غير وفيرة بشكل كاف للبحث المتخصص، ويمكننا النظر إلى موسوعة الويكيبيديا ومقارنة نسختيها العربية والإنكليزية لنحس بالفارق الكبير بينهما في الدقة ووفرة المعلومات.

ويبدو لنا أن هناك تعديلا في اتجاهات تبني المعرفة صار بفضل المحمول متاحا، ولكن يظل هناك الجزء المظلم من الثقافة يشتغل في دياجير المواقع المتعددة التي يمكنك الدخول إليها عبر المحمول، الذي بات يسحب البساط من تحت الكمبيوترات البرجية، فتجد استباحة شاملة لكل التابوهات التي تقوم في داخل المجتمع بين ثلاثية الدين والجنس والسياسة، وحتى ملاحقة الدول للمواقع الإباحية تعارض اليوم ببرمجيات تتيح التحايل على أنماط المنع التقليدية التي تتبع العناوين العامة لتلك المواقع وتحصرها.

وربما تشارك الإشاعة بشكل قوي في نشر المعلومات المغلوطة أو الكاذبة وصعوبة متابعتها ووقفها نتيجة انتشارها في مجموعات مغلقة وصغيرة في بعض الأحيان، وتقوم بالشحن الطائفي أو المناطقي أو القبلي لتفتيت المجتمع، تلك الوظيفة التي كانت مناطة بمجموعة من الأفراد الذين يشكلون المثقفين المزيفين والمهيمنين على حفنة من الصحف بنجاح منقطع النظير وبعضهم

سيدة سعودية في ضوء الموبايل خلال حفل غناء في جدة للمغني العراقي ماجد المهندس

شكل الذباب الإلكتروني. ويبدو أن هناك موتا مزدوجا بطيئا للصحافة الورقية، أظن أنه بات يسحب نفسه على الصحافة الإلكترونية أيضا.

وتزداد الصعوبة في اكتشاف التزوير والتدليس مع وجود برمجيات متنوعة يمكن بها فبركة ما لا يحده إلا ذكاء المستخدم، مما يزيد صعوبة اكتشافها على المتلقي العادي، والتأكد من صدق المعلومة من كذبها إلا عبر بناء العقل النقدي، وتوسيع دائرة التربية القائمة على الفهم والتحليل والتخلي عن دائرة التعليم الاستعادي البسيط.

ويبدو أن المحمول قد تجاوز ثغرة مهمة في العالم السبراني بتعميم استخدام الموبايل في كافة فئات المجتمع وطبقاته المختلفة فمن يعرف القراءة ومن لا يعرفها يستخدمه بشكل ما، ولكن تظل عقبة الدخل عند الفئات العمرية التي من المفترض فيها الدخول إلى سوق العمل وتبقى عاطلة، لا تستطيع الدخول في استهلاك الاتصالات أصلا فكيف لها التوصل إلى استخدام الموبايل.

يقوم صراع كبير بين حقوق المؤلف وبين العالم السبراني حتى على المحمول عبر إباحة الكثير من الإنتاج الثقافي على مواقع مفتوحة يمكن منها تنزيل وقراءة الكثير من الكتب التي تعتبر جديدة نسبيا، أي لم يمر عليها خمسون عاما من إنتاجها، وبالتالي يتضح ذلك الفارق الكبير بين وجود القوانين ومتابعة تطبيقها في مجتمعاتنا العربية.

ويظل في تعميم الكتب جانب إيجابي في الثقافة الراهنة معتمدا على نوع الكتاب الذي ينزله المستخدم من جهاز الموبايل، كما أن هناك عقبة تتعلق بمسألة مواصلة القراءة لفترات طويلة على جهاز الموبايل ذي الضوء المشع، ولكنها لا تمنع تمرير الثقافة المعاصرة عبره.

ولعل أكثر الجوانب إهمالا لتطوير الجهاز المحمول هو مسألة تعميم التصوير بأشكاله الفوتوغرافية والفيلمية، وهذا التعميم كما يبدو يفتقد إلى معرفة في فنون التصوير تتوازى مع ما يحمله الكثير من الأفراد في أيديهم، فنجد الكثير من الأفلام التي تصور بواسطة المحمول في وسائل التواصل الاجتماعي يغفل فيها المصور عن أن المتلقي لا يستطيع التعرف على المكان أو الزمان أو حتى الحجم الحقيقي لما يصور، وبالتالي نجد كثيرين يغفلون ذكر هذه المكونات الصوتية التي تتبع التصوير الفلمي، بينما صارت الكاميرا في المحمول تتطور بتسارع كبير في قدراتها ودقتها من حيث عدد البكسلات، منذ إنزال الكاميرات الرقمية التي جاءتنا من علوم الفضاء ودخولها إلى المحمول، وظل الكثير من الناس يهلل ويكبر فقط وهو يصور، وبالتالي تفقد الكاميرا التلفزيونية في المحمول الكثير من مساهمتها البصرية والمعرفية، بينما يضج الفضاء السبراني بالنماذج التعليمية والثقافية التي تتراوح في جدية طرحها وتلعب دورا بالغا في نقل المعلومة عن الأحداث الجارية.

من الجانب الآخر هناك اليوتيوب والقنوات المباعة التي تنشر معارف متعددة بعضها علمي، وبعضها الآخر فلسفي، وبعضها يتعلق بنواحي الحياة المتنوعة، وهو ما يمكن أن يغني الفرد العادي الذي يحاول طرح أسئلة بكر على ذاته خصوصا للجيل الجديد، ولكن ذلك الفضاء أيضا بما يحتوي من ديمقراطية سبرانية يسمح بتمرير فيديوهات تملأ النفوس رعبا أو تدعو إلى تبني الفكر المتوحش وغيره بالتساوي عبر إنشاء قنوات في الفضاء السبراني الذي يسهل الدخول عليه من خلال الموبايل عاكسا بذلك الوجه المظلم للثقافة العربية.

كاتب وناقد من البحرين

ستيف جوبز المهاجر واللاجيء الكوني على حائط مخيم عشوائي في كاليه -فرنسا بريشة فنان الغرافيتي الشهير بانكسي

الشاشة الكونية وميتافيزيقا الحضور

عبدالله الهميلي

ما زال يؤكد هذا التطور الهائل في العلوم والتقنية منذ انبثاق الفجر الصناعي الكبير ووصوله إلى ذروة «المينافاتورة» -على حد تعبير انجلز في «ديالكتيك الطبيعة» في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي- على حتمية شعور الإنسان الاغترابي الذي أصبحت فيه الآلة بديلا عن الطبقة العاملة في المجتمعات المتحضرة رغم أن هذا الحس في ذلك القرن الذي انبثقت وتبلورت فيه العديد من الحقول وانفصلت بشكل منتظم عن الفلسفة وترتبت العلوم الإنسانية (علوم الروح) والعلوم الطبيعية مدشنة حقبة ما بعد الحداثة.

كان ثمة حس نبوئي لم يصل بعد إلى ذروة الشعور الحتمي بالاغتراب كما وصلت إليه إرهاصات القرن العشرين بكل ما فيه من مآلات وأحداث جذرية في التاريخ الإنساني الذي شكلت صورته الحالية، فقد توثق شعور الإنسان الكينوني بالاغتراب مع كينونة هيدغر الزمانية في «الكينونة والزمان» ليتعمق أكثر صاحب الكينونة والزمان في معضلة التقنية مع أنه شاهد إرهاصاتها الأولى فقط من تطورات وتعقيدات المدنية الحديثة والصناعية التي جعلته يؤثر عزلته الكونية في كوخه الريفي، مجسدا حيرة الإنسان الحديث تجاه التقنية، ومعيدا توهج التساؤلات الفلسفية من خلال مساءلة التقنية ودورها في عملية نسيان الوجود؛ فميتافيزيقا هيدغر ليست هي الميتافيزيقا التي تم تناولها من قبل سابقيه من الفلاسفة إنما هي التقنية وتأثيرها على الحس الإنساني المعاصر من وجهة نظري، ما جعله يراهن أكثر على تجليات العمل الفني باعتباره كينونة الإنسان المطهر من تعقيدات المدنية الحديثة وذروة رؤيته التأملية في أنطولوجيا الوجود.

وإلى المزيد من التساؤلات الحديثة وزيادة الحيرة عند الفيلسوف الفرنسي جان بودريار في أطروحة موت الواقع التي تعتبر عنوانا رئيسيا في فكر بودريار في حقل الابستمولوجيا وهو يتناول الفكر الجذري وهذه الأطروحة تنتمي إلى أدبيات ما بعد الماركسية أو ما بعد الحداثة، والتي تعكس مقولة المفكر الأميركي فرانسيس فوكوياما نهاية التاريخ من خلال حتمية الرأسمالية، حيث يعرض بودريار نهاية التاريخ على أنها فشل ذريع للتطلعات الحديثة وقدرتها على التوفيق بين المنطق والعالم لأن المسافة الحاسمة بين العقلانية والواقع قد تلاشت في ما فوق الواقعية المعاصرة.

بمعنى مع ظهور العلوم والتكنولوجيات الجديدة فإن النماذج التي يمكن إنتاجها في العالم باتت أكثر واقعية وتطوراً ودقة من الواقع نفسه. وقد ضاعت الإنسانية في عالم ما فوق الواقعية الذي يرفض أن يعطينا مسافة لتفسح مجالاً لتجاربنا لنستكشفها. بسبب التكنولوجيا المتسارعة مع نهاية السرديات الكبرى كما يرى ذلك أيضا الفيلسوف ما بعد الحداثي فرانسوا ليوتار تعد ما بعد الحداثة عالما من الصور اختفت مر جعيا ته .

هذه الكآبة البودريارية أقلقت الكثير من نقاد اليسار وفي رد بودريار على هذه المسألة أن الركائز الأساسية في جدله هي أن في الثقافة المعاصرة أصبح من الصعب التمييز بين الشيء والعلامة ففي كتابه «مرآة الإنتاج» يرى أن الرأسمالية المعاصرة ليست مجرد تداول للمال والسلع، إنما هي تجتاح كل جانب من جوانب التجربة. فعندما يشتري الإنسان سلعة فإنه لا يشتري ببساطة الشيء المرغوب نفسه، ولكنه يشتري أيضا العلامات والصور والهويات التي تأتي مع ذلك الشيء. وبسبب انعدام التمييز بين السلعة والعلامة فإنهما تولدان اللغة أو الرمز اللذين يشكلان هوية ما بعد حداثية.

ووفقاً لبودريار تقدم وسائل الإعلام المعاصرة «دوامة مدوخة من الواقع» وهي ليست تعبيراً «عما يحدث حقاً» في العالم «الحقيقي» وإنما هي نتاج لعالم محاكٍ، حيث «نعيش محميين بالعلامات في حالة إنكار للحقيقي». وفي كتابه «المحاكاة» الذي يعتبر من أهم إسهامات بودريار في نظرية ما بعد الحداثة يزعم بودريار أن وفرة تمثيل وسائل الإعلام قد حولت طبيعة المظهر نفسها إلى:

•المظهر الزيف، ويمتد من عصر النهضة حتى الثورة الصناعية حيث يزيف المظهر الواقع لأن الصورة تمثل ما هو حقيقي عن طريق عرضها أثناء غيابها.

•الإنتاج، وهو النظام السائد في عصر الصناعة، حيث القيمة المرتبطة بالصورة تتغير ويصبح المهم هو قدرتها على أن تباع وتُشترى، لأن الصور لم تعد تُقيم كنسخ من الصور الأصلية، وإنما كصور في حد ذاتها. يقول بودريار عندما يتم إنتاج الصور والأشياء على نطاق هائل فإن «العلاقة بينها لم تعد علاقة

لقطة لسيدة تستعمل الموبايل في معرض مملكة الألوان في واشنطن

الأصلي مع المرَيف وإنما علاقة تكافؤ ولامبالاة. وفي السلسلة تصبح الأشياء مجموعة محاكاة غير معروفة مع بعضها».

•المحاكاة، وهي المخطط السائد في المرحلة الحالية والمسيطر عليها من الرمز إلى القانون الطبيعي للقيمة، حيث تهمل مسألة الأصالة والواقع تماما لأن الصور والأشياء تصبح ما يشغل المكان في النظام البنيوي إذ تصبح كل القيم معادلة وقابلة للتبادل كلياً، بمعنى نحن موجودون ضمن شيفرة لا نهائية من الصور التي تختفي ضمنها أفكار التمثيل، ولا يملك أحد لها مفتاحاً. لكن تلك عادة الإنسان من أقدم الأزمنة ؛ أن يكون حذرا متأملا لكل ما هو جديد.

إن كائن الموبايل المعاصر أصبح جزءا من حياتنا اليومية وتجاربنا مع الكون، وأصبح هو حقا الوجود هنا، وفي نفس الوقت الوجود هناك، إنه كائن محير منذ ولادته الأولى، حيث كان مقتصرا على فئات معينة من المجتمع المعاصر إلى أن أصبح شيئا أساسيا لا يستغنى عنه من قبلنا نحن البشر، بل أكثر من ذلك غدا الصورة المثلى لنظرية التطور الداروينية، ولكن في شكلها التقني. أصبحنا نمارس عملية التطور على هذا الكائن التقني، وحتى الانتخاب الطبيعي لكي ينجب لنا أجيالا متطورة ومقاومة للعدم.

بدأ هذا الكائن المسمى الموبايل بصيغة صوتية مطلع التسعينات من القرن الماضي، وتطور إلى صيغ كتابية وميديوية، فهو شاشتنا المصغرة والمختصرة عن الكون والحياة والكتابة والبهجة والفرح ونظريات الاتصال والتواصل من قبل الفلاسفة وعلماء السوسيولوجيا والرسامين والشعراء والكتاب والروائيين وبقية أفراد المجتمع، فهو جامع لخصائص أقرانه من كمبيوتر شخصي وآيباد وتلفزيون. إن هذا الموبايل يثبت على مدى التسارع الزمني أنه الأقوى من بين التقنيات التواصلية الأخرى حتى أصبح ذئبا لإخوته الأجهزة التطورية الأخرى إذا شاءت لنا التسمية الهوبزية، إذ بدأ يلتهم التقنيات المجايلة له ويهضمها في مرآته الصغيرة وحتى الكتابات الإبداعية أصبحت لا تستغني عن اعتباره بديلا عن الكتابة الورقية بالكتابة الإلكترونية وبديلا عن الكتابة «الكيبوردية» في الجهاز الكمبيوتري إلى كيبورد رقمي إلى ما هو لا متوقع من التقنيات والتطورات التي يقدمها هذا الجهاز المعجزة.

هذا الكائن التقني المعجز هو الإبداع الإنساني الأكثر حضورا بين التقنيات الأخرى، فقد تمت أنسنة هذا الكائن ليكون رفيقا أمينا لنا في حياتنا اليومية، وحتى حارسا ليلياً لنا في نومنا من الأحلام، فهو مرآتنا التي نتصفحها كل دقيقة إلى أن تتعلق الأوقات والأزمنة. ليس هذا فقط، بل أصبح مستودعا لذاكرتنا وكتاباتنا وانطباعاتنا والصور التي نحبس بها

الزمن وطائرتنا الخاصة التي نتنقل بها عبر فكرة الزمكان.

لقد عبر مفكرو القرن التاسع عشر عن ذم الأيديولوجيا من خلال ماركس وانجلز باعتبارها وعيا زائفا ونخشى أن هذه العبارة أصبحت تنطبق على كائن التقنية المتمثل في الموبايل، قد يكون من ذلك النوع الزائف عن الوجود الواقعي يكاد هذا الكائن التكنولوجي أن يستلب الإنسان من ذاته ووحدته الطبيعية فالكثير من العاهات الإنسانية المعاصرة من القلق والعزلة والاكتئاب يسببها هذا النوع من الإدمان المتكرر لاستخدامه، بل غياب أشكال الحضور الإنساني الأصيل، وهذا التأثير سواء بشكله الإيجابي أو السلبي يحتاج إلى جهود متضافرة وحثيثة من علماء الإنسانيات والاتصال وحتى الفلاسفة. ولعل جهاز الموبايل ليس هو المشكلة بحد ذاته، وإنما تكمن المشكلة في استعمالاته التي يمكن توقعها وعدم توقعها.

رغم أن هذه الملاحظات قد تكون معممة على التقنيات الرقمية الحديثة، فقد اختزلها التطور في شكل هذا الجهاز الصغير الذي يستطيع التسلل إلى حياة الناس عبر برامج التواصل الاجتماعي من فيسبوك وتويتر وسناب شات ويوتيوب وواتساب والألعاب الكومبيوترية وغيرها من البرامج الحديثة التي يصعب حصرها، وهذا لا يعني أن الدول المتقدمة لم تكن واعية بتأثير الموبايل، فالكثير من المنتجعات التي يفد إليها المشاهير من أجل الاسترخاء والنقاهة تشترط التخلي عن الموبايل للاستمتاع أكثر ببحبوحة الحياة الوادعة وجمالها، وكذلك في بعض البلدان كالمملكة العربية السعودية تم وضع مخالفة لاستخدام الموبايل أثناء قيادة السيارة لما يسببه من حوادث. ما نحتاج إليه حاليا هو أن نتحكم في استعمالات هذا الكائن الجميل لا أن يكون هو من يتحكم فينا كسائر تعاملنا مع التكنولوجيات المعاصرة.

كاتب من السعودية

هنا وهناك وفي كل مكان الموبايل ضرورة يومية ورفيق ساحر

الثقافة الإلكترونية وإعادة تشكيل المعرفة

أحمد الماجد

طويلة كانت تلك الليالي التي قضّاها أصدقاء الكتب، في المطالعة وتقصّي جماليات المعرفة، حتى صارت كلمة مثقف، ربيبة ذلك الجنس البشري الذي تخلّى عن كثير من مُتع الحياة من أجل الظفر بمتعة القراءة، والوصول إلى لذّة المعرفة التي لا تضاهيها لذة. كل تلك الملذات والمتع، تبخّرت وفرغت من معانيها، حينما وضعت التقنية كل ذلك على مرمى زرّ، تخرج المعلومات من أيّ وعاء، وتلصقها فورا بالذاكرة، هذه الذاكرة البشرية التي تحتفظ بكل ما يقع أمامها، حتى إذا ما امتلأت وضاقت بها الأمكنة بما رحبت، جرى مسح أجزاء منها لاستقبال المعاصر والجديد.

هذا ما أحدثته الطفرة الإلكترونية المعرفية، حينما صار الدخول إلى أتون المعرفة باليد، وخير من ألف كتاب على رفوف المكتبة يحتاج تقليبها إلى الوقت والزمن والصبر والإرادة، لذلك، شكلت ثقافة «الموبايل والأجهزة الذكية» حالة من اختلاط الحابل بالنابل من حيث صحة ما ينشر، وما يتداول على هذه الأجهزة التي لا يعي من يثق بها القدرة التدميرية التي تمتلكها والسلطة المطلقة التي نالتها من حيث تشكيل ثقافة جديدة لا جذور لها، تسحق بهدوء كل ما قدّمه الباحثون والدارسون من علوم معرفية سيماها الدقة والوضوح والأدلة.

في زيارة لإحدى المقاهي التي تكتظ بها المدن العربية، نلاحظ الفرق بين ما كانت عليه المقاهي في السابق، وما هو عليه حالها اليوم، إذ لم تعد كما كانت في زمن ليس بالبعيد، البيئة النموذجية لمعرفة الناس وسماع حكاوي المجتمع، والتي كتب فيها نجيب محفوظ وغيره أهم أدبياتهم، هي ذاتها في أجوائها وتفاصيلها، بعد أن بنت الهواتف الذكية جدارا عازلا فصل مرتادي المقاهي عن بعضهم حتى أولئك الجالسين حول طاولة واحدة. المقاهي كانت تكتظ بالمثقفين والكادحين والعائدين من وظائفهم والمتقاعدين منها، يجتمعون لقراءة الصحف وتداول قضايا الحياة بين شخصي منها وعام، مما منح محفوظ أرضية خصبة باعتبارها الطبقة المتوسطة التي كتب عنها وتوجه إليها معالجا همومها وعاكسا قلقها وتوجساتها، إلا أن مقاهي اليوم باتت أشبه بمقبرة تضم أجسادا لا روح فيها مترامية بتثاقل على الكراسي، يد تمسك بعصا «الشيشة» والأخرى بالهاتف النقال، يمر الوقت دون أن تسمع كلمة، حتى أن جملة «السلام عليكم» باتت مؤرقة، فالرد يعني حرمان المبحر من إتمام غرقه في لجّة أمواج التواصل الاجتماعي، تلك الأمواج من الفيديوهات والقصص والمواعظ التي معظمها مفبركة، لا تسمن ولا تغني من جوع.

إن المقاهي التي خرجت منها «أولاد حارتنا» و«بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية» و«خان الخليلي»، المقاهي التي تعكس الملامح الحقيقية لأي مدينة، والتي كانت تحتضن العشاق أيضا ولوعاتهم عن الحبيبة الغائبة على وقع طربيات أم كلثوم، تآكل كل معنى فيها، فلا يربط بين الجالسين سوى كلمة السر التي يكتبونها على هواتفهم من أجل جعل عربة «الواي فاي» تدور لتبتلعهم في ذلك العالم البعيد الساخر.. ولو أن نجيب محفوظ ما يزال حيّا.. لجلس في بيته وحيدا بلا مقهى!

أمر آخر، إنني وأثناء اطلاعي على المجلات والكتب الأدبية الصادرة قبل وصول الهواتف والإنترنت إلى كل يد وإصبع، أثار انتباهي عمق وثراء المواد المنشورة فيها، لم تلتفت للغث ولم تعترف إلا بذوي الدراية أسلوباً وعمقاً وأصالةً ولغة. ففي السابق، تتمطى روح الكاتب بالسعادة والفخر، إذا ما وافقت دار نشر أو مجلة أو صحيفة على نشر ما يكتب، بل إنه يتباهى بذلك كفتح ثقافيّ عظيم لم يتسنّ للآخرين وصول عتباته، وعيون دور نشر والمجلات والصحف الأخرى تلاحقه، لعله يرضى على نشر نفائس ما يكتب عندهم.

فلكتّاب ما قبل «غوغل» بريقهم الخاص، نال خلالها المجتهدون نصيبهم، بينها وبين ما يحدث في زماننا مدى شاسع حينما فُرّغت عملية الكتابة من فحواها، وباتت مجرد «فهلوة» أدواتها مسخ ونسخ وقص ولصق، مما أثر على الجودة والمستوى وعلى صناعة النشر لولا جهود الهيئات والمؤسسات والجمعيات الثقافية العربية الكبرى المتواصلة في دعمها للجيّد والرصين والمتميز. المئات من

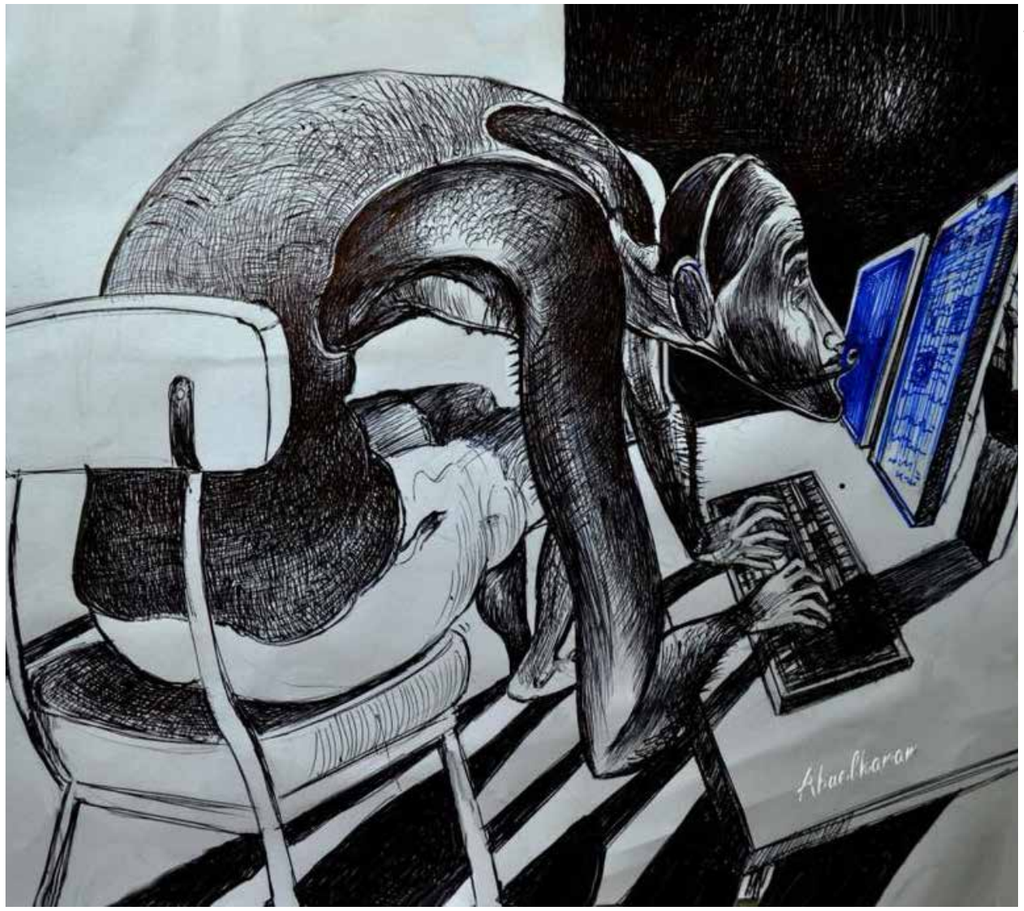

ياسر أبو البحرم

الكتب الأدبية فقيرة المستوى صدرت من دور نشر أهلية عربية لم يسمع بها أحد، وضعت الزبد مع ما ينفع الناس في سلّة واحدة!

ويبقى السؤال الأهم، هو الكيفية التي يمكن من خلالها الوصول إلى فرضيات ومقترحات بإمكانها استعادة وهج الثقافة القديم، من خلال الحرب الضروس التي دارت رحاها بين الورقي والإلكتروني، ووضع الحلول والمعالجات الكفيلة لإعادة وهج الثقافة عبر الذهاب إلى المعرفة من خلال بوابة الكتب، بوصفها حاجة لا ترفا. وعلى الرغم من المبادرات العظيمة التي اعتمدتها الجهات الحكومية لعدد من الدول العربية، في نصرة المعرفة الورقية، من حيث إقامة المسابقات والمعارض والمهرجانات ومضاعفة أعداد الإصدارات، إلا أن الهوّة ما تزال كبيرة، والعزوف عن الذهاب إلى الكتاب أيضا قائم. أسباب عديدة، حضّرت الفرد والعائلة والمجتمع العربي للتخلّي عن الدروب القديمة للاطلاع والمعرفة، أهم تلك الأسباب وأشدها مضاضة، النظرة المتشائمة والمريبة الموجهة لمن يتعاطى مع الكتب، والأحكام المسبقة وما يترتب عليها من تلك التي تطلق على عشاق الكتب الشغوفين بقراءتها، والتي تحولت إلى باعث قويّ لدى كل فرد للتخلّي طوعا أو قسرا عن هواية اقتناء الكتب أو مجرد الاقتراب من أيّ مكتبة، وحرمان الروح من فرصتها في اللحاق بركب العالم البعيد الآخر، باعتبار أن نسبة لا يستهان بها في مجتمعاتنا العربية، تنظر إلى قراء الكتب ومريديها على أنهم مرضى يعانون من اضطرابات نفسية، يعيشون في عالم القصص القائم على الخيال والذي لا يتلاءم مع الهرولة السريعة نحو كلّ ما له علاقة بالمكاسب والمنافع المادية في عصرنا. ومن أجل الظفر بالحياة المرفهة وملذاتها المتشعبة والمتعددة، وباعتبار أن المهووسين بالقراءة، وفقاً للنظرة الغرائبية لمجتمعاتنا وأحكامها المسبقة، هم أناس عالة على مجتمعاتهم، يعيشون خارج إطار الزمن،

هذه النظرة وأشياء أخرى جعلت من العائلة العربية تقرر التخلّي عن الكتاب، فهو من وجهة نظر الكثيرين، جلّاب الشؤم والحظ المستقبلي العاثر والمجهول، ولن تحظى العائلة أو أي فرد منها متهم بالقراءة إلا بشقاء مؤجل، وقلة حيلة وقصر يد، ولأنها لا تريد لأحد أفرادها أن يخيب كما خابت هي، حينما عاشت حياة هانئة هادئة مع قصص الجدات والروايات التي ضيعوا أموالهم في شرائها، وامتلأت منها نفوسهم لا جيوبهم، ولكي لا تصيب أولادهم لعنة حبّ القراءة وما قد تجلبه لهم من نقاء وصفاء لا فائدة من كليهما، وقد تحولهم إلى مواطنين صالحين لا تثير لعابهم الأموال ولا المكاسب ولا المصالح ولا ملذات الحياة الأخرى، وبعدوى مزمنة لا شفاء منها، جاء ذلك القرار بالتخلّي عن القراءة، التي هي أول خطوط الصدّ لموجة الفوضى التي بدأت ثمارها العفنة تفتك بجسد المجتمع، وما تنامي الإرهاب وأفكاره الضالة والمضللة إلا حينما توقفت المجتمعات عن حمية القراءة، فضعفت مناعتها وتناقص وعيها، وصارت فريسة سهلة لأضأل فيروسات الأرض وخرابها الذي تحمله معها أينما تحلّ.

من هنا، انطلق أنصار المكتبات الإلكترونية يبشرون بالمستقبل الجديد للمعرفة، وأنه لن يكون للورق مكان في عالم يذهب بكل أدواته وطاقاته وأفكاره وتوجهاته وتعاملاته نحو الإنترنت والسهولة التي يأتي بها، حينما يمكننا أن نحصر في رقاقة صغيرة لا يتعدى وزنها غرامات معدودة، أو هاتف نقال ذا ذاكرة عظيمة، الآلاف من العناوين والكتب. فهل للمكتبة الورقية ورفوفها الممتدة على عرض الحائط والتي يلامس بعضها السقوف من فائدة في زمن تحتضر فيه المعرفة مثل زمننا؟ وفي المقارنة بين زمنين، زمن قديم ولّى كان فيه من لا يملك مكتبة في منزله يعتبر جاهلا أميّا لا نفع فيه للمجتمع ولا فائدة منه في الحياة ويقع على من حوله من أقرباء وأصدقاء ومعارف وجيران تجنب جهله، مما يضطرّ البعض على اقتناء مكتبة في منزله، وملئها بكتب لا يقرؤها ولن يقرأها وربما لا يعرف محتواها، فقط ليدفع عن نفسه أمام زوّاره شبهة الجهل. أكبر الشرائح التي تضررت من الحصار الذي فرضته أميركا على العراق في تسعينات القرن الماضي، هم المثقفون، باعتبار أنهم كانوا قبل ذلك ينعمون بالعيش الرغيد المعتمد على راتب الوظيفة الشهري أو الراتب التقاعدي، حينما أصبح ذلك الراتب إبّان الحصار لا يكفي ليومين اثنين بحكم تدهور العملة النقدية وقتها ولا وجود لبدائل تسدّ ذاك الجوع ونقص المال، فاضطرّ أكثرهم إلى بيع كنوزهم ومدخراتهم، حيث كانت المكتبة أهم كنز وأعظم مدخر، وهي آخر مغادري تلك المدخرات، لقيمتها المعنوية العالية في نفوس من باعوا ودموعهم بين الحدقتين تتلألأ من شرّ ما أصابهم من وهن وانكسار. العكس تماما يحدث اليوم، ومن عاصر الزمنين يعرف ويعي ما نقصده في عصر عقوق الكلمة الذي نعيشه، يشعر وكأنه انتقل عبر آلة الزمن إلى زمن غير زمنه لم يكن يحلم ولا يخطر على باله أن يعيش فيه إلا من بوابة الخيال أو السحر. من يملك في منزله مكتبة اليوم، يعتبر شخصا لا يفهم الحياة ولا يدرك توجهاتها واحتياجاتها، بل يجب الحجر على التواصل معه، كي لا يلوّث العقول المتعولة بمرض المعرفة الذي هو وباء على الوقت ولا يجلب سوى الخيبة، كما أنهم ينظرون إلى من يحوي مكتبة في منزله على أنه شخص خيالي، يتوجب عليه زيارة طبيب لتخليصه من عثة ما تورّم منها رأسه. الأجانب وعلى وجه الخصوص الإنكليز يقرؤون بشراسة وكأنهم يلتقون بالكتب لأول مرة، نراهم في رحلاتنا عبر المطارات وفي المواصلات، وعلى البحر، وفي الحديقة وحتى في موقف الباص، غير إن عالمنا العربي في تعوله السريع لم ينتبه أو أنه يتجاهل عمدا أهمية الكتاب والقراءة عند الآخر، بل يكابر مدعيا أنهم لا يعانون ما نعاني، وأنهم مرفهون وهذا نوع من الرفاهية التي حرمنا منها في عالمنا العربي كما يدعي. أما وجهة النظر الأخرى، فتعتمد في توجهاتها على أن الإنترنت والمكتبات الإلكترونية السهلة وفي متناول اليد ولا تكلّف جهد البحث عنها ولا تثقل كاهل الجيوب، فلأي سبب يضحي بحاجة عائلته للأجزاء الواسعة من المنزل لمكتبة استعاض عنها الجميع بالمكتبات الإلكترونية، إلا من تغلغل فيه حبّ الكلمة الورقية المكتوبة.

إن المكتبة الإلكترونية ومن ضمنها ما يوفره الهاتف النقال من مزايا معرفية هي أداة مميزة، أدحضت حجّة المتقاعسين عن القراءة ووفرت للمتكاسلين منطقة لاقتناء الكتب، سواء كانت كتبها مجانية أو لقاء مبلغ من المال، فخواص المكتبة الإلكترونية تؤدي أيضا أغراضا متعددة في محاولاتنا لمعرفة العالم، وهي مثل مثيلتها الورقية في وظيفتها في خلق نوع من التواصل والتفاعل بين النص وبين القارئ، كما أنها تلبّي حاجات القارئ من حيث إمكانية وجود اللذة. فأن تكون في ثواني قادرا على إيجاد قصيدة شعرية لأحمد شوقي أو مقطع لمظفر النواب أو أبيات لمحمود درويش، أو أن تكون في لحظة قادرا على إيجاد رواية لماركيز، أو مسرحية لسعدالله ونوس، هو شيء يمكن لأي شخص تقريبا القيام به. إن معظم الناس في عصرنا هم متعلمون إلى حد ما، وقادرون على قراءة إعلان ومطالعة جريدة، والدخول إلى المعرفة عبر الهواتف المتحركة، لكن هذا وحده لا يجعل منهم قرّاء ومثقفين. وهنا يمكن القول إن الصراع بين طرفي الأزمة، القديم والجديد، الورقي والإلكتروني، هو صراع يمكن التخفيف من حدّة وطأته، من خلال اعتراف أحدهما بوجود الآخر، وعقد صلح طويل الأجل بين الطرفين، يكفل حقوقهما ولا يتعدى أحدهما على الآخر، وذلك لن يتأتى إلا بالعيش جنبا إلى جنب بعدالة ومساواة وحسن جيرة، من خلال ما يسميه ألبرتو مانغويل في كتابه «فن القراءة» بالمكتبة المثالية، والتي بحسب وصفه هي «مكتبة افتراضية ومادية معا، تماشي كل تكنولوجيا، كل صندوق، كل تجلّ للنص».

كاتب من العراق مقيم في الإمارات

ياسر أبو الهيم

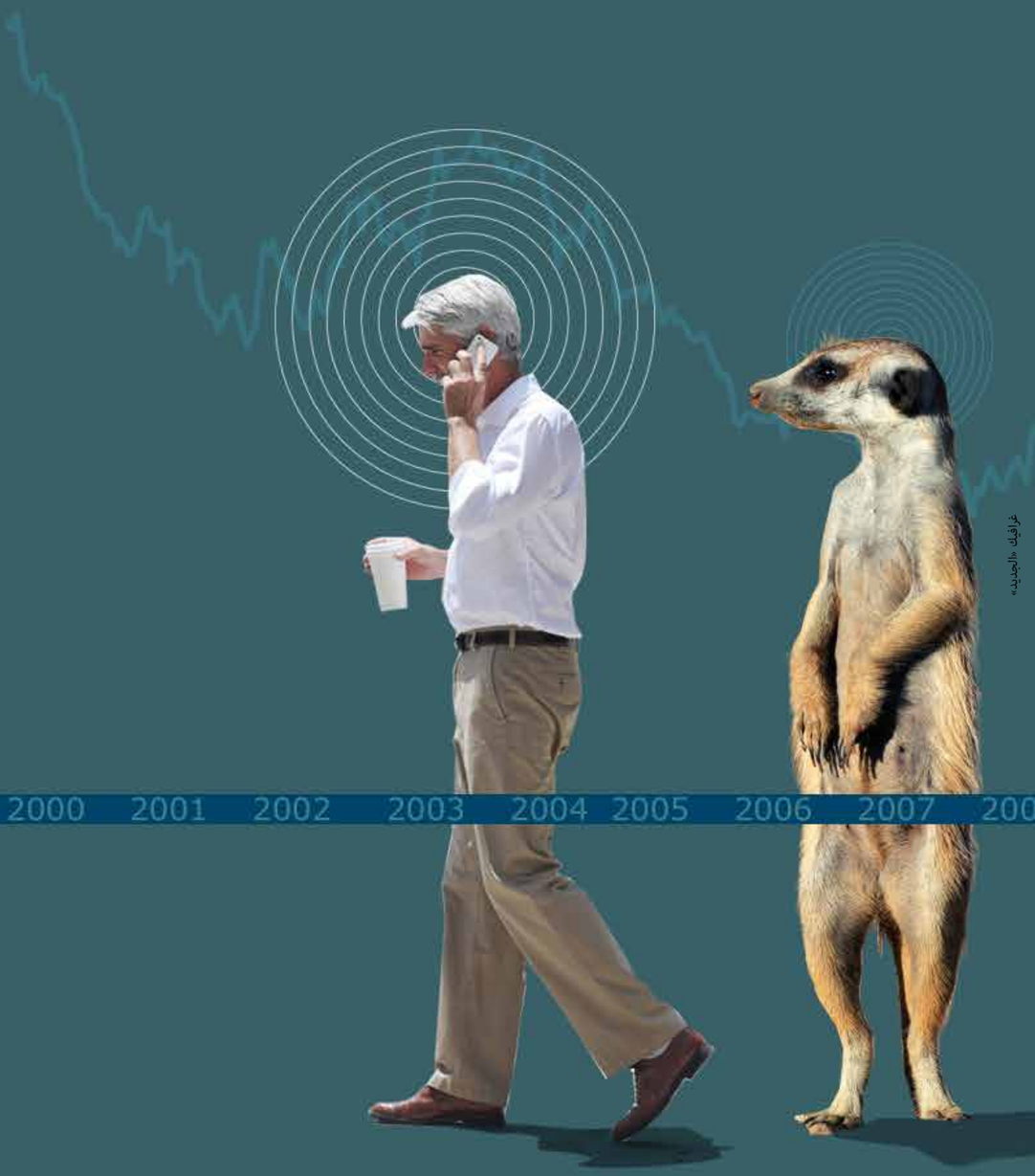

غرافيك «الجديد»

ثقافة الموبايل
رؤى غربية

غطي المقالات الثلاث المنشورة، في هذا الحيز من العدد، الرؤى والافكار التي أثارها الجدل الدائر في الغرب، بين المفكرين وعلماء الاجتماع، عن جهاز الموبايل بما أدخله على حياتنا من جديد، وما أتاحه من فرص، وما أثاره من تحديات اجتماعية، وقضايا فكرية، ووقائع اقتصادية في العالم.

إن الإشكاليات التي تتعرض لها المقالات المنشورة هنا، تفتح باباً للباحثين عن أجوبة لاسئلتهم الحائرة، بصدد هذا الجهاز الخطير الذي دخل على حياتهم من دون استئذان، فصدم المخيلة والعقل معاً، وخلخل الصيغ القديمة التي كانت الناس قد ألفتها في سلوكها ومعاشها، وفي طرائق تواصلها مع العالم، وسبل نيلها المعارف، بل وفي طرائق تعريفها لنفسها وطرح هويتها في عالم يزداد اتصالا بين اطرافه على نحو غير مسبوق في التاريخ.

من شأن هذه المقالات، إلى جانب أخواتها في غير حيز متاح من هذا العدد الخاص، أن تقدم معرفة وتثير نقاشا لم يكونا متاحين، حتى الآن. فباستثناء مقالات متفرقة وشذرات من كتابات هنا وهناك، لم يقرأ هذا الجهاز قراءة ثقافية عربية، ولم يجر تناول الموضوعات والظواهر المتصلة به منذ أن لوحت بهذا الجهاز ذات يوم ليس ببعيد يد ستيف جوبز وهو يردد: انظروا إلى هذه العلبة. هذه العلبة الصغيرة ستغير العالم. صدقت نبوءة ذلك الحالم الذي غادر عالمنا بعد الإعلان عن ذلك الحدث بوقت قصير، تاركاً وراءه لعنات ومدائح، واسما سيخلده التاريخ ■

قلم التحرير

مقال

كيف غيّرت الهواتف المحمولة حياتنا

ابراهيم قعدوني

لا يبالغ المرء كثيرا حين يقول إنَّ الهاتف المحمول واحد من أعظم الاختراعات التي سجّلتها البشرية في رحلة تطورها عبر القرون، فقد غيّر هذا الاختراع الذي تتسع له الجيوب الصغيرة أسلوب حياةِ البشر على امتداد المعمورة بما في ذلك أنماط تواصلهم الاجتماعية وأساليبهم التعبيرية. ولعلّ أبرز ما ميّز هذا الاختراع وساهم في تعجيل انتشاره الكوني هو تيسُّرُ كلفة اقتنائه بالنسبة إلى عموم البشر نظرا لوفورات الحجم التي تمخّضت عنها التطورات التقنية المهولة في التصنيع. واليوم كيفما تلفّت المرء من حوله وجد بشرا مُكبّين على هواتفهم الذكية؛ هذا يرسل رسالة وذاك يقرأ أخرى، هذا يستمع لأغنية أو معزوفة وذاك يتصفح الأخبار دونما حاجةٍ إلى الجريدة أو التلفاز.

لكأنّما ولّى إلى غير رجعةٍ زمن الفضول الاجتماعي بصوَره التقليدية التي عهدناها طيلة عقود؛ فأوقات الانتظار اليوم لم تعُد تشغلها الدردشات العابرة ذات اليمين أو ذات الشّمال، فقلّما يلتفت أحدنا إلى المقعد المجاور في المحطة أو القطار أو صالات الانتظار ليبادر بسؤالٍ يتوخّى فتح بابٍ لدردشةٍ عابرة، فالجميع مُكبّون على أجهزتهم التي بحجم الأكُفّ يطالعون فيها شؤون حياتهم بأكملها. إننا نعيش في عصر هوس التكنولوجيا وإدمان الهواتف الذكية وذلك وفقا لتعبير البروفيسور لاري روزِن، أستاذ علم النفس في جامعة كاليفورنيا ومؤلّف الكتاب الشهير "iDisorder" (الاضطراب الإلكتروني) الذي يسجّل أكثر العبارات التي باتت شائعة اليوم في أوسط الشباب ومنها "لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان من دون هاتفي" أو "أشعر بالقلق عندما يتعذّر عليّ التحقق من بريدي الإلكتروني" أو "إذا لم أكن على اطِّلاعٍ أول بأول على الإشعارات التي تصلني على حساباتي في مواقع التواصل الاجتماعي، فإنني أشعر وكأنني في عداد المفقودين".

يشيرُ تقرير صادر عن الاتحاد الدولي للاتصالات عام 2017 إلى أنَّ عدد مشتركي خدمة الإنترنت عبر الهواتف المحمولة قد وصل إلى نحو 5 مليارات مشترك وأنَّه من المتوقع وصول هذا الرقم إلى ما يزيد على 6 مليارات بحلول عام 2020، كذلك أضحت الهواتف المحمولة المنافس الأبرز لوسائل الإعلام التقليدية، إذ يشيرُ العديد من التقارير إلى نِسبٍ متزايدة باطّراد لأولئك الذين يُعدُّ الهاتف المحمول مصدرهم الأبرز للحصول على الأخبار، وثمّة من يربط اليوم بين موجة الثورات التي هزَّت أركان أنظمة الحكم التي بدت لوهلةٍ وكأنها أنظمة أبدية وانتشار الهواتف المحمولة وتطبيقاتها التي غدت وسيلة فاعلة للتعبئة والحراك الاجتماعيَين.

في عام 2001، خصصت كُبريات الصحف العالمية صفحاتها الأولى لعنوان رئيسي يصف الرئيس الفلبيني الأسبق، جوزيف إسترادا، "بالرئيس الذي أطاحت به الهواتف النقالة" وذلك في حديثها عن موجة الاحتجاجات العارمة التي شهدتها الفلبين للمطالبة بتنحّي إسترادا وكيف استفاد المتظاهرون من خدمة الرسائل القصيرة في التعبئة والانتشار. ومنذ ذلك الوقت، لم يتوقف الأثر العميق الذي لعبته الهواتف المحمولة على المستويات الاجتماعية والسياسية والشخصية.

في الولايات المتحدة الأميركية على سبيل المثال، يسجل موقع ستاتيستا لدراسات البيانات والإحصاءات، المعروف، الأرقام التالية في ما يتعلق بنسبة انتشار وشيوع استخدام الهواتف المحمولة:

- 70 بالمئة من سكان العالم لديهم هواتف محمولة.
- عدد الهواتف المحمولة في العالم يفوق عدد أجهزة التلفاز بثلاث مرات.
- 42 بالمئة من الأميركيين يستخدمون الهواتف المحمولة للتغلب على الملل.
- يتم تلقي مئتي تريليون رسالة كل يوم في أميريكا فقط.
- 53 بالمئة من البالغين الأميركيين لديهم هواتف ذكية.
- 44 بالمئة من الأميركيين يستخدمون أجهزتهم المحمولة للوصول إلى الإنترنت.

وترى بعض الدراسات الاجتماعية وجود صلةٍ بين التحسُّنِ الحاصل على مستوى العلاقات الاجتماعية من جهة وانتشار الهواتف المحمولة من جهةٍ أخرى، إذ تلحظ هذه الدراسات وجود ارتباط بين تحسُّنٍ ملموس في التعليم والمساواة بين الجنسين ودرجة الانخراط والفاعلية السياسية وبين الإقبال على اقتناء الهواتف المحمولة والاستفادة من إمكاناتها المتعددة الجوانب، ولا سيّما في البلدان النامية إذ يرى بعض المحلّلين الاقتصاديين أثرا إيجابيا لهذه الظاهرة في النمو الاقتصادي.

في بحثٍ أجراه معهد كولن للبحوث

اليكس غروس

أليكس غروس

الاقتصادية بعنوان "النسيج الرقمي لحيواتنا"، وكان الغرض منه استطلاع تأثيرات التقنيات المحمولة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والفردية في 10 بلدان هي: المملكة المتحدة وإيطاليا وإسبانيا والصين والهند وتركيا ومصر وكينيا وجنوب أفريقيا، خلصَ البحث الذي اشتمل على إجراء مقابلاتٍ مع أبرز الباحثين الأكاديميين في البلدان المذكورة، من جُملةِ ما خَلص إليه، إلى ما يلي:

• على مستوى العلاقات: لقد غيّرت الهواتف المحمولة طبيعة علاقاتنا، بما في ذلك علاقاتنا ضمن الأسرة ومع الأصدقاء، وكان من اللافت في ما توصل إليه البحث، أن الهواتف المحمولة وعلى الرغم مما تنطوي عليه من إمكانات واعدة في زيادة مستوى التشبيك الاجتماعي، إلّا أن كلا من مستخدميها الذين شملهم البحث غالبا ما لم يتجاوز دائرة قوامها 6 أشخاص في 80 بالمئة من تواصلهم.

• على مستوى الصحة: وجد البحث أنَّ الهواتف المحمولة ساعدت في الحفاظ على مستوى جيد من الصحة البدنية والنفسية حينما يغيب بعض أفراد الأسرة عن بيت العائلة، كما أنها ساعدت النساء على الأخص في تأدية دورٍ ثلاثيّ أحيانا داخل الأسرة المعيشية كزوجات وأمهات ومُعيلات.

• على مستوى المشاركة السياسية: وجد البحث ارتباطا حيويا بين انتشار الهواتف المحمولة من جهة وكلّ من المشاركة السياسية الديمقراطية والمساواة بين الجنسين وتحسُّن المستوى التعليمي من جهةٍ أخرى. وأشار البحث إلى أن مؤشرات التحسُّن في هذه الجوانب كانت ملموسة بصفة خاصة في البلدان النامية.

• على مستوى النمو الاقتصادي: تساهم الهواتف المحمولة مساهمة ملحوظة في الناتج المحلي الإجمالي، ففي بريطانيا على سبيل المثال، تبلغ نسبة هذه المساهمة قرابة 1.8 بالمئة من معدل النمو المحلي الإجمالي، بينما سجّلت النسبة نفسها رقما لافتا في مصر إذ ساهمت بنحو 24.9 بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي في الفترة ما بين 2010 و2017، وهي مرشّحةٌ للزيادة نظرا لما تنطوي عليه تقنيات الهواتف المحمولة وتطبيقاتها من إمكانات اقتصادية واعدة.

ويشير تقريرٌ صادر عن مجموعة البنك الدولي لعام 2017 إلى أن الفقراء يستفيدون من التقنيات الرقمية عبر الهاتف الجوال، وإن كانت الفائدة لا تزال متواضعة بالمقارنة مع الإمكانيات الحقيقية، فنحو سبعة من كل عشرة أشخاص من خُمس السكان الأدنى دخلا في البلدان النامية يمتلكون هاتفا محمولا، وهو ما يعزز إمكانية وصولهم إلى الأسواق وحصولهم على الخدمات، وفي المناطق الريفية بالنيجر، ساعدت معلومات عن أسعار المزروعات يتم الحصول عليها من خلال الهاتف المحمول على خفض تكلفة البحث بنسبة 50 بالمئة، وفي المناطق الريفية في بيرو، عزز الحصول على خدمات الهاتف المحمول الاستهلاك الحقيقي للقطاع العائلي بنسبة 11 بالمئة بين عامي 2004 و2009، مما قلّص معدل الفقر بثماني نقاط مئوية والفقر

المدقع بـ5.4 نقطة مئوية.

أصبح الكثير من البشر على قناعة بأن التقنيات الرقمية تؤدي قطعا إلى تحسّن أحوالهم. وفي 12 بلدا شملها مسح استقصائي لصالح البنك الدولي في أفريقيا، قال 65 بالمئة من المجيبين إنهم يعتقدون أن أسرهم أصبحت أحسن حالا لأنهم يمتلكون هواتف محمولة، ولم يوافق على هذا الرأي سوى 20 بالمئة فحسب، قال 14.5 بالمئة إنهم غير متأكدين ويقول 73 بالمئة إن الهواتف المحمولة تساعد على توفير وقت السفر وتكلفته، وعبَّر 10 بالمئة فقط عن آراء أخرى. ويعتقد الثلثان أن امتلاك هاتف محمول يجعلهم يشعرون بقدر أكبر من السلامة والأمان.

سوسيولوجيا الهاتف المحمول

في دراسةٍ بعنوان "الإمكانات المبتكرة لتكنولوجيا الهاتف الخلوي في منظور تطوري"، يرى الباحث الاجتماعي والأكاديمي السويسري هانز غيسر أنَّ البشرية ومنذ نشأتها التي مضى عليها مليارات السنين، تطوّرت على الأرض عبر اثنين من المحدِّدات المادية المتسقة للغاية وهما؛ أولا، القرب المادي الذي كان دائما شرطا مسبقا للكائنات الحية لإقامة علاقات تفاعلية مستمرة والحفاظ عليها. وثانيا، كانت أماكن السكن المستقرة ضرورية لتطوير أشكال أكثر تعقيدا من التواصل والتعاون. ويعني أول الشرطين أن تنويع أشكال المعيشة والسلوك يحدث بشكل رئيسي على أنه تمايز في الفضاء المادي. من الناحية العملانية، يعني هذا وجود ارتباطات قوية بين الموقع المكاني وانتشار النظم الإيكولوجية والأنواع والسلالات الخاصة ونمط التواصل التقليدي وجها لوجه من أجل الحفاظ على المجموعات والمؤسسات الاجتماعية وإشباع الاحتياجات الفردية. غيرَ أنَّ تقنيات الاتصال المحمولة بحسب غيسر أحدثت انزياحا جوهريّا في هذا الانتظام التقليدي لتقوّض أثر التنقّل الفيزيائي ونمط الالتقاء وجها لوجه لصالح الافتراضي الذي قدّمته ثورة الاتصالات الحديثة التي يُعتبر الهاتف النقال أحد أكثف تعبيراتها. وبذلك فإن المجاميع البشرية آخذة في تطوير سوسيولجياها الجديدة الهجينة.

التحول الثقافي

تلاحظ الدراسات الاجتماعية عبر العالم الأثر العميق الذي خلّفه الهاتف المحمول في العادات والتقاليد الاجتماعية، على سبيل المثال، كان التحدُّث أثناء تناول الطعام يعتبر غير لائقٍ في الكثير من المجتمعات، إلا أنه اليوم أصبح عادة شائعة إذ يستخدم معظم الأشخاص الهواتف المحمولة التي تم قبول استخدامها المفاجئ وغير المقيد على المائدة في جميع أنحاء العالم. كذلك كان الحديث في قاعة سينما أو في جنازة يُعتبر في يوم من الأيام بمثابة أمر في غاية الإزعاج، لكن اليوم يتم التغاضي عنه. كما استبدلت الهواتف الخلوية تقليدا قديما لإرسال الدعوات وتبادل التهاني في المناسبات الاجتماعية، غير أن هذه التحوّلات العميقة وإن كانت تحظى بأحرّ الترحيب في أوساط الأجيال الشابة فإن هناك من يرى فيها عنصرا يعمّق الشرخ التقليدي بين الأجيال إذ يزداد اغتراب الأجيال الأكبر سنّا ممن لا يملكون الدراية أو الرغبة الكافية للانخراط الفاعل في حلقة التواصل التي تتيحها تطبيقات الهواتف المحمولة.

الانصراف عن الواقع
تهشيم العلاقات البشرية

من الطبيعي والمفهوم تماما أن تثير ظاهرة بحجم ظاهرة الهاتف المحمول آراء مضادة قد لا تتفق مع الطابع التبشيري للمتحمسين لثورة الاتصالات، إذ يستند نقّاد الظاهرة إلى دراسات واستطلاعات تفيد بأن الهواتف الذكية تصرف العقول الشابة عن الواقع، ذلك أنَّ الشباب باتوا يقضون معظم أوقاتهم في إرسال الرسائل النصية أو الدردشة أو التحدث عبر الهاتف أو استخدام أحد تطبيقاته، مما قلّل من الوقت الذي يمكن لهم قضاؤه صُحبة الكتب وممارسة الرياضة وفي الطبيعة والحياة الحقيقية، كذلك يلفت هؤلاء الانتباه إلى الأثر السلبي الذي يلحق بعلاقة الأهل بأطفالهم من جرّاءِ إدمان أحد الأبوين أو كليهما على هاتفه المحمول وذلك بحسب ما كشفت عنه دراسة أجرتها الباحثة والطبيبة في مستشفى جامعة ميشيغان لطب الأطفال جيني رادسكي التي حذّرت في خلاصة دراستها من خطورة ما وصفته بـ"تلاشي الحدود"، إذ يُبقي انشغال الوالدين بعالَمي هاتفيهما الأطفالَ في عالمٍ آخر ويفاقم عُزلتهم ويحرمهم ما يحتاجونه من اهتمام عاطفي.

متلازمة التفاحة السوداء "بلاك أبل" ومتلازمة "النوموفوبيا"

ثمَّةَ تقارير أيضا عن أشخاص يواجهون مشاكل صحية مثل ألم الإبهام المزمن، فضلا عن إصابات الإجهاد المتكررة (RSI) واضطرابات النوم (مثل الأرق) بسبب الرسائل والإدمان على استخدام الهاتف النقال (تشير بعض الدراسات إلى أن معدل تفقّد الشخص لهاتفه النقال يصل في بعض البلدان إلى 100 مرة في اليوم). وتُظهِرُ دراسات التصوير العصبي أن آلية تفقد الهاتف والإرسال/ الاستقبال عبره تترافق مع نشاط منطقة من الدماغ على نحوٍ يشابه آلية استجابة المدمن الذي يتعاطى "الهيروين"، وذلك وفق ما يشير إليه طبيب الأعصاب والنوم، مايكل سيفرت.

غير أنَّ السؤال الذي يطرح نفسه أمام تباين الآراء حول ظاهرة كهذه الظاهرة يتعلق بكيفية تحقيق المرء نمطا من الاستخدام المتّزن وبناء علاقةٍ أفضل بالتكنولوجيا تضمن الانتفاع من فوائدها في حين تقلل من آثارها السلبية؟ ذلك ما يحاول البروفيسور لاري روزِن، أستاذ علم النفس في جامعة كاليفورنيا الإجابة عليه من خلال العديد من الدراسات والأبحاث الميدانية التي يجريها بنحوٍ متواصل. وفي ما يلي بعض الاستراتيجيات المدعومة بالأبحاث يوصي روزِن باتّباعها في العمل والمنزل ابتغاءَ تعاملٍ أكثر حذرا وفائدة مع الهاتف النقال:

* ينصح روزن بأخذ فترات راحة متجددة أثناء العمل، إذ أن العقل البشري غير مصمم للعمل لساعات متواصلة دون راحة، فنحن نؤدي الأعمال بشكل أفضل عندما نأخذ خلالها أقساطا من الراحة، وهنا يقترح روزن تجنُّب النظر إلى الهاتف الذكي أو تصفح الإنترنت، وبدلا من ذلك ينصح بممارسة الرياضة أو التحدث أو التأمل. وهذا يعني المشي في الخارج للحصول على بعض الهواء النقي، والتحدث مع شخص ما (عن شيء آخر غير العمل)، أو ممارسة التأمل الواعي لبضع دقائق وهو ما يساعد على الشفاء من متلازمة النوموفوبيا (القلق المزمن من جرّاء عدم وجود الهاتف النقال في متناول المرء).
* عليك باسترداد أصدقائك ووقت عائلتك، يضيف البروفيسور روزن، نحن بحاجة إلى التوقف عن السماح للتكنولوجيا بالتداخل مع أهم تفاعلاتنا الشخصية. ولكن من الصعب تجاهل هاتفك عندما يكون ماثلا أمامك، ولا سيّما مع توالي ظهور تنبيهات الأخبار والرسائل النصية باستمرار. نصيحتي هي تعيين المناطق التي لا يُسمح فيها بالأجهزة الشخصية ببساطة، في محاولة لتسهيل إجراء محادثات أفضل وأكثر جدية مع الأصدقاء والعائلة. وتشمل أمثلة ذلك طاولة العشاء أو غرفة الجلوس أو في السيارة أو في المطاعم.
* أبِق التكنولوجيا خارج غرفة النوم، فمع حلول الظلام يبدأ دماغك بإفراز الميلاتونين، الذي يساعد تراكمه في النهاية على النوم. ولكن وفقا لبحث أجرته مؤسسة النوم الوطنية وعيادة مايو، فإن الضوء الأزرق من الهواتف الذكية أو الأجهزة اللوحية أو أجهزة الكمبيوتر المحمول يبطئ هذه العملية ويطلق الكورتيزول، مما يجعل الدماغ أكثر يقظة، والنتيجة هي ساعات نوم أقل وأكثر اضطرابا، ما يعطل عملية تجديد النشاط ويقلل من حدّة الذهن. الحل بسيط يقول لاري روزِن، لا تجلب أجهزتك المحمولة إلى السرير!

أليكس غروس

غرافيك «الجديد»

ملف

جامع القرية المعولمة

أبو بكر العيادي

لئن شكلت الثورة التكنولوجية قطيعة أنثروبولوجية ثالثة في تاريخ البشرية بعد ابتكار الكتابة واختراع المطبعة، فإن الموبايل في صيغته الحالية، التي تتطور يوما بعد يوم بشكل مذهل، هو ثورة داخل الثورة الرقمية، أخذ عن الكمبيوتر كل طاقاته وإمكاناته كميديا متعددة الوظائف وأداة للتنظيم والتواصل لا غنى عنها في إنتاج العلاقة بالآخر، وتميز عنه بسهولة حمله ونقله في كل مكان، وفاقه في إلغاء إدراكنا للفضاء والزمن، حتى عُدّ بحقّ خير من وحّد الناس عبر أرجاء المعمورة، وجعلها فعلا قرية كونية.

هذا الجهاز، الذي جُعل في البداية لدنيا رجال الأعمال، ما لبث أن تبناه الناس بكل فئاتهم، وبدخوله عالم الاتصال اليومي أحدث تغييرا جذريا في الخاصيات الزمنية والفضائية للهاتف التقليدي، وأوجد أنماط تفاعل غير مسبوقة، ساهمت إلى حدّ بعيد في إعادة تشكيل الممارسات الاجتماعية وخلق ثقافة جوالة مخصوصة. في كتاب «ثقافة جوالة» قام الكندي أندري كارون من جامعة مونريال والإيطالية ليتيسيا كارونيا من جامعة بولونيا ببحوث إثنوغرافية، لرصد ممارسات التواصل الجديدة لدى الشباب، وظروف الإنتاج الاجتماعي لثقافة الموبايل، وتملُّكِ تلك الشريحة العمرية لتكنولوجيا الأخبار والاتصال تملّكا مكنهم من إدماجها في فضائهم الاجتماعي العادي. ولاحظا أن من مظاهر التجديد في علاقة الشباب بهذه التكنولوجيا: المحادثات، السيطرة على التقابل «عامّ / خاصّ»، إعادة تحديد معنى الأمكنة والأزمنة، تحقيق أسطورة الاتصال الانصهاري، وتجسيد العلاقات الاجتماعية. ولئن أخضع الشباب الموبايل لعاداتهم، ولقواعد ثقافية قائمة، فإن الموبايل خلق لديهم سلوكيات جديدة: رؤية بعضهم بعضا، سردية وثيقة الاتصال بالأحداث، التعقب المنتظم لتنقلات هذا وذاك للتلاقي، خارطة مباشرة تسمح بمعرفة المكان الذي يوجد فيه المخاطب، ومن يفعل ماذا لحظة بلحظة. وأيا ما تكن طريقة استعمال الموبايل، فإن أهميته تكمن في خصائص الربط التي يتميز بها، فهي التي تسمح بتمفصل فضاءات بعيدة والحفاظ على النسيج الاجتماعي. فالأداة تدمج مجموعة الموارد السوسيوتقنية التي تسمح بضمان «تواجد» ثنائي يجمع بين المتعة وكليانية الوجود والمثابرة داخل شبكة التواصل الاجتماعي. فالغاية كما يقول عالم الاجتماع الفرنسي فرنسيس جوريغيبيري هو أن تظل متصلا.

لقد قابل بعضهم ظهور الموبايل باحتراز شديد، وحذروا من عواقبه السلبية كالإدمان، والتشجيع على الشك والنميمة والكذب، والمراقبة الشاملة ممن بيدهم الحل والربط كما تخيلها جورج أورويل «الأخ الأكبر يراقبك»، فضلا عن الوقوع في فخاخ المنحرفين. أما اليوم، فقد صار لعلماء الاجتماع وعلماء النفس والفلاسفة من التجربة ما يمكنهم من تحليل هذه الظاهرة من شتى الزوايا. وقد ظهرت عدة دراسات في هذا المجال، بعضها يركز على مستعملي الموبايل مثل كتاب كارون وكارونيا الآنف الذكر، وبعضها الآخر يتناول آثاره وعلاقته بالزمن، وأغلبها تريد أن تعرف ما إذا كان هذا الجهاز يخفي خلفه كمّا هائلا من الآثار السلبية.

من ذلك مثلا أن فرنسيس جوريغيبيري ركز على ثيمة اللاتناظر بين المكالِم (الذي ينتظر إجابة) والمكالَم (الذي يفترض أنه سيرد)، فتخيل أن ضغط المكالِم، الذي هو نفساني فقط في العلاقات الزوجية، يمكن أن يأخذ أشكالا أكثر حدة في المجال المهني، بين الأعراف من جهة والعمال أو الموظفين من جهة أخرى، لا سيما حين يخضع العملة المتنقلون إلى المراقبة لتتبع مسارهم عند التدخل أو التوزيع، أي الخضوع إلى تيلورية عن بعد (نسبة إلى المهندس الأميركي فريدريك وينسلو تايلور مبتكر التنظيم العلمي للعمل).

كما لاحظ عالم الاجتماع برونو لاتور أن تقنيات الاتصال الحديثة واستعمالاتها الجديدة تبين إلى أي حدّ تساهم في مسار إعادة تحديد الظروف، وتعديل طرق إقامة العلاقة مع الآخر، وبناء ثقافة عادية. ويضرب مثلا على ذلك بمائدة يجلس إليها بعض الأصدقاء وعليها موبايل. إن وجود هذا الجهاز أمامهم يفتح إمكانية تدخل مخاطِب بعيد خلال تناولهم وجبتهم، ما يُدخل أشكال مشاركة جديدة تنزع نحو تجديد تقاليد التفاعل، وهويات الفاعلين في هذا الظرف، حتى لكأن الأدوات التقنية تعيد تحديد القواعد والممارسات التي تنظم الحياة المعتادة.

وإذا كان الموبايل قد أتاح ظهور ممارسات تلفونية جديدة، فإنه أدى أيضا إلى إلغاء تدريجي لحدود أنشطة كانت في ما مضى

غرافيك «الجديد»

منيعة، وتشابك ملحوظ في المجالات العامة والخاصة، وإعادة تحديد فعلي للفضاءات الاجتماعية العادية. فقد فسح المجال لمبادلات تلفونية كانت في عداد الحميمية، وتداخل بذلك المجال العام- والمهني- بالمجال الخاص، وصارت أمكنة المخاطِبين والمخاطَبين غير ثابتة وهو ما يفسر تعويض «ألو!» بـ«أين أنت؟»، ذلك الاستفسار الذي جعله الفيلسوف الإيطالي موريسيو فيراريس عنوانا لكتاب استعرض في طياته الحوار الافتراضي التالي:

- هذه أنتِ يا عزيزتي؟

- لا، أنا زوجها.

استنتج فيراريس من هذه الطرفة أن الموبايل وصاحبه إذا كانا متماهيين إلى هذا الحدّ، فإن خصائص كل منها تغدو خصائص الآخر، ومن بين تلك الخصائص كليانة الوجود (أي يمكن أن نكون في أكثر من مكان في الوقت ذاته) والفردية (لا يجيب عن المكالمة غير شخص واحد)، وبذلك يصبح الهاتف شخصا، ولكن ذلك الشخص لا وجود له في مكان محدد.

عن هذا التواصل الكلياني الوجود أيضا، ركز الفيلسوف النمساوي كريستوف نيبري دراساته، واستخلص وجود اضطراب في المعنى العادي للفضاء والأجساد التي توجد داخله، وعلامته ثنائية القطبين: من ناحية يسمح الموبايل بحضور مادي للغائب، ومن ناحية ثانية يسمح للشخص الحاضر بأن يكون في مكان آخر. فالحضور الدائم وغياب الحاضر هما وجهان لاضطراب واحد.

غير أن التركيز الأكبر كان على استعمال المراهقين للموبايل، والسلوكيات التي أحدثوها، ولغة التواصل التي ابتكروها، والمعلوم أن المراهقين يعتبرون الممثلين المميزين لظاهرة إقحام التكنولوجيات داخل جاليةِ ممارسات، ودورهم في خلق تلك الجالية التي تستقبلهم. وإذا كان امتلاك المراهق لجهاز موبايل قد يكون وسيلة يراقبه الأهل بواسطتها، فإن ذلك الجهاز ما لبث أن تحول إلى وسيلة تتجاوز حدود العلاقة العائلية أبناء/ أولياء، ليصبح وسيلة لاختراق الفضاء اليومي، وربط صلات بالعالم الخارجي، بدءا بالأصحاب والرفاق، من خلال الانخراط في الرسائل القصيرة SMS، فخلقوا بذلك مجموعة اجتماعية أنشؤوا لها خطابا مخصوصا، حتى أن الباحثَين كارون وكارونيا استعانا ببعض الشبان كي يمدوهما بقاموس «لغة المراهقين»، وهي لغة تقوم على اختصار الكلمات إلى حدودها الدنيا:

bjr — bonjour (صباح الخير)

slt — salut (أهلا، تحياتي)

koi 2 9 ? — quoi de neuf (ما الجديد؟)

au - — au moins (على الأقل)

tt va bi1 — tout va bien (كل شيء على ما يرام)

ومثلها لدى شباب العرب الذين يتواصلون بالعامية عن طريق أحرف لاتينية يعوض فيها رقم 7 حرف الحاء ورقم 9 حرف العين كما في المثال التالي:

N7ib n9oum — نحب نعوم (أريد أن أسبح).

أي أن المواثيق اللسانية والاجتماعية التي تجمعهم ساهمت في خلق الثقافة التي يشتركون فيها، فالوحدات النصية ذات المورفولوجيا الصرفية المخصوصة، وكذلك شيفرات النصوص القصيرة التي يستغلونها في مبادلاتهم هي علامات يحقق بواسطتها الشبان المصادر الدالة على جالية المراس لديهم، وبذلك يدلون على انتمائهم إلى تلك الثقافة، ويوحدون تأملاتهم لبنيتها، فيصبح الموبايل أداة لتحقيق هوية اجتماعية مخضرمة، تعبرها مرجعيات سوسيو إثنية وثقافية متعددة.

ولكن هل تصنع التكنولوجيات بعامة والموبايل بخاصة ثقافة؟ وما هي ملامحها؟

منذ أن التحم الموبايل بالإنترنت والموسيقى والصور والفيديو باختراع أول سمارتفون (آيفون الأميركي ثم غلاكسي لمنافسه الكوري الجنوبي سامسونغ) عام 2007، تناسلت تطبيقاتٌ بالآلاف دفعت بشركتي أبل وغوغل إلى توجيه السمارتفون إلى التجارة على الشبكة، فلم يعد الموبايل وسيلة للاتصال فحسب، بل صار وسيلة لتلقي المعلومات وللترفيه أيضا، وأداة لسداد المشتريات، أي «سوبرماركت الجيب» بعبارة الأسترالي جيرارد غوغين، وأصبح العالم كله في هذا الجهاز العجيب، الذي يقبع في جيب أو جراب أو محفظة يدوية صغيرة الحجم، ما جعل المؤسسات الإعلامية وشركات الإنتاج على اختلافها تخوض حربا حقيقية لكسب الزبائن.

من بين التطبيقات الأخيرة في فرنسا مثلا «كولتور كليك» التي أنتجتها شركة «يو آر هير» (أنت هنا) بالتعاون مع وزارة الثقافة والاتصال والمكتبة الوطنية ومجمع المتاحف الوطنية، وهي وسيلة تفتح أمام مستعمليها لا الأحداث الثقافية فقط، وإنما أيضا المتاحف والمعارض والمكتبات الفرنسية حيثما كانت. وثمة من بعث موقعا لا يزار إلا عبر الموبايل كما هو الشأن مع الموسيقي والرسام الياباني هاجيم تاشيبانا، أو التشكيلي الأميركي جون مايدا، أو كاتبة السيناريو بونجي نبادا من جنوب أفريقيا التي نشرت على واتساب رواية ذات سبعة فصول قصيرة، مشفوعة بتسجيلات فيديو وأوديو، بينما بدأ اليابانيون ينتجون روايات لا يتعدى الفصل الواحد منها صفحة سمارتفون...

ولأن التكنولوجيات تصنع حقول عمل محتملة، وبرامج سردية ممكنة، وتوسع حقول الإمكانات لدى البشر، يمكن القول إن التكنولوجيا تصنع الثقافة، ولكن، كما هو الشأن مع الثورات الصناعية السابقة، تثير الثورة الرقمية مخيالا يصطبغ بألوان الأمل أو الخوف. الأمل الذي يراود أحلام تقنيين جعلوا الرقمنة قاعدة ثورة معرفية، ثورة الذكاء المشترك أو ذكاء الجماهير، التي ينبغي صهرها مع وعي الأفراد في نوع من الذكاء الخارق؛ والخوف من أن يؤدي ظهور شبكات لا تخضع لمركز معين إلى قيام أسس ديمقراطية متجددة أو ما أُطلق عليه «ديمقراطية النت»، فيما نظر بعد علماء الاقتصاد لعصر نمو لا حدود له، (يسوده اقتصاد المجانية أو اقتصاد المشاركة)، من شأنه أن يغير القوانين الأساسية للاقتصاد، ولكن الثابت ألا أحد يعلم إلى أين تقودنا هذه

أليكس غروس

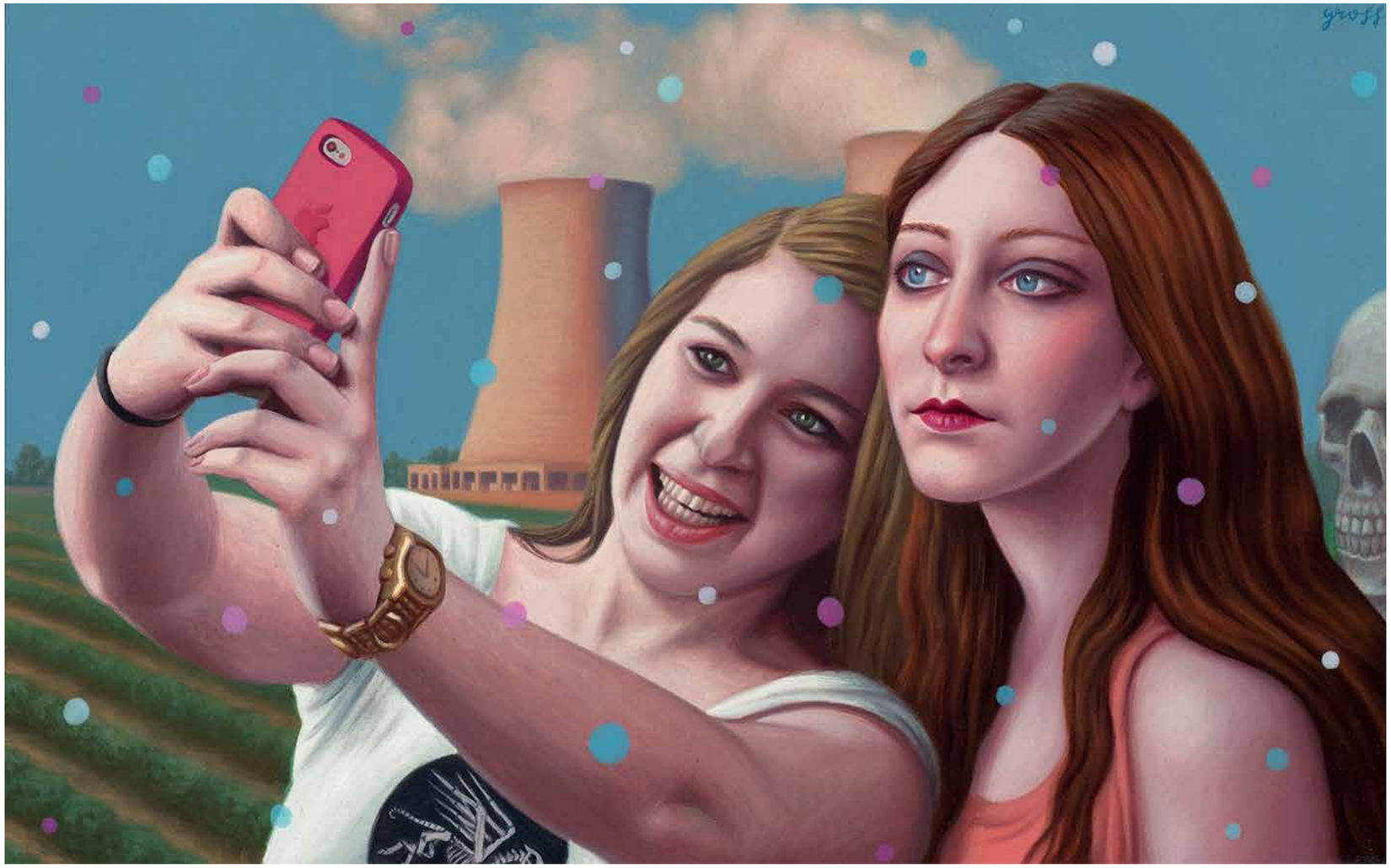

الثورة الرقمية المذهلة التي شملت العالم وكل أنشطة الوضع البشري تقريبا (نفسانيا ومعرفيا واجتماعيا وأنتروثولوجيا...).

السلفي وتحولات الأنا في العصر الرقمي

من الظواهر التي تولدت عن الثورة التكنولوجية، واختراع الموبايل ثم الآيفون والسمارتفون، ظاهرة السلفي selfie، تلك التقنية التي مكنت الناس من تصوير أنفسهم حيثما كانوا، ورفقة من شاؤوا، بشرا أو حيوانات أو معالم أو أعلاما مشهورين، لتخليد لحظة، قد لا يكتب الخلود، بسبب عطب فني أو عدول ذاتي عنها، حتى غدا كوجيتو هذه المرحلة «أنا أُسَلْفي، إذن أنا موجود»، عنوان كتاب مثير لأستاذة الفلسفة واختصاصية التحليل النفسي الفرنسية إلسا غودار. فهل هي أزمة نرجسية حادة أم أعراض أنانية زائدة عن الحدّ أم هو نوع من اللعب العُصابيّ يمارسه الفرد مع صورته؟

ظهر مصطلح السلفي، الذي ترجم في كيبيك إلى «بورتريه ذاتي» أو «صورة ذاتية»، عام 2002 في منتدى أسترالي على الشبكة، وهو مستمد من العبارة الإنكليزية self بمعنى «ذات»، وأحيانا «لكوني وحيدا»، مضافا إليها لاحقة ie، فانتشر المصطلح، ولكنه لم يصبح ساري المفعول إلا بداية من العام 2012، بتطور تقنيات منتجات شركتي آبل الأميركية ومنافستها سامسونغ الكورية الجنوبية، وسرعان ما احتل موقعا في معجم أكسفورد، وفي شتى المعاجم الفرنسية منذ العام 2016. وما لبث العالم بأسره أن دخل عصر «السلفي»، ما دفع المفكرين إلى التساؤل عن التحول الجذري في إدراكنا للزمن والفضاء، وعن علاقة الإنسان بنفسه، وبغيره، وبالعالم، وعن علاقتنا بالفكر واللغة أمام قوة الصورة والعالم الافتراضي، في مجتمع هزته التقنيات الرقمية وأدخلت عليه اضطرابا عميقا، بدا السلفي فيه علامة على أزمة هوية.

ماذا سينجم عن «مرحلة السلفي»، التي تعبر في رأي الكاتبة عن الشكوك الوجودية لذات ليست على ما يرام؟ وهل تغير العالم أم أن إدراكنا إياه هو الذي تغير، لا سيما بعد أن صارت الصلة بيننا وبينه تمر عبر تلك الآلة الهجينة، التي تجمع بين الهاتف والشاشة وآلة التصوير والكمبيوتر، والتي نسميها سمارتفون. تلك الآلة الفريدة، التي صارت همزة الوصل بيننا وبين الآخرين، بين ما نحسّ به حقيقة وما نريد أن نظهره، بين أنا وأنت، إلى أي مدى يمكن القول إنها تفتتح علاقة جديدة بين الأفراد، لا سيما أنها تكاد تتلخص في شاشة، أي فضاء لإنتاج الصورة، ولأنها أيضا تنشر جانبا من الأنا؟ ولكن أي أنا تحديدا؟ وماذا تقول عنها؟ هل أن إنجاز صورة وتنزيلها على موقع تواصل اجتماعي في انتظار «لايكات» حولها يؤديان إلى تغيير العلاقة بالذات، وحتى إلى تغيير عميق في الأنا؟ وهل يغير ذلك كله صلة الأنا بالآخر؟

باشتغالها على مسألة السلفي، تلك الطريقة الجديدة في التواصل السهل والفوري، التي تجعل الفرد ماثلا محايثا في الفضاء والزمن، والتي يمكن أيضا أن تُفقر قدرته على التواصل بصفة عقلانية ونقدية، فبدل أن يعيش واقعه، بات يميل إلى نسيان نفسه في العالم الافتراضي، لاحظت إلسا غودار أنه يجمع عدة تساؤلات عن الافتراضي، فهو مؤشر على عدة ثورات نجد أنفسنا منساقين إليها:

أولا، أن «السلفي» ما كان ليوجد دون ثورة تكنولوجية، فقد أعلن ظهور الرقمي عن قطيعة ذات عدة أوجه، قلبت أنماط عيشنا بشكل عميق. ثانيا، أن هذا التطور أدى إلى تغيير جذري لإدراكنا للعالم يمكن أن نسميه ثورة إنسانية، كان من أثرها تغيير علاقتنا باللغة وبالفضاء والزمن. ثالثا، أن السلفي هو في جوهره تمثل للذات، يفرض تأملا في النرجسية، وثورة ممكنة للأنا. رابعا، أن مثل هذا التساؤل له انعكاسات في علاقتنا بالآخرين - قريبة من تلك التي تؤدي إلى أزمة هوية لدى المراهقين - قد تنجم عنها ثورة اجتماعية وثقافية. خامسا، أن المجتمع يتحول تدريجيا إلى مسرح تمثلات للأنا، أي لعبة لا يمكن أن نغفل أن فيها من البعد اللطيف والودي والإبداعي للسلفي قدر ما فيها من غريزة حياة تعكس ثورة إيروسية. ولو أن إيروس لا يمكن أن يوجد دون تاناتوس، أي غريزة الموت، فالسلفي في نظرها يحمل نصيبا من الظل في ثقل الوحدة التي قد يخفيها، وفي غلوّها السقيم، ما قد يقود إلى ثورة أخرى مرضية. في موازاة ذلك، يمكن أن يُعدّ السلفي تعبيرا جماليا، عملا فنيا، من خلال رغبة الفرد في مشاركة غيره شيئا ما، قد يحمل في طياته ثورة جمالية. وأخيرا، تلك الثورات المتسلسلة التي لا يمكن أن نقيس آثارها دون مباعدة، تحملنا على توخّي الحذر، ووضع أسس «سِلف - إيتيقي»، أي إيتيقا الافتراضي، والتفكير في وقع التطورات التكنولوجية العلمية على روابطنا البشرية، وعلاقتنا بذواتنا، ما يمكن أن نسميه، والحديث للكاتبة، ثورة إيتيقية.

وتخلص الكاتبة إلى أن مرحلة السلفي تكشف عن شكل جديد لذاتية هجينة، ذاتية افتراضية، تواجه صعوبة فرض نفسها، لوقوعها بين الذات الحقيقية ومسخها، أي أنها نوع من الذاتية بغير ذات؛ وتؤكد أن الذاتية في طور تحوّل، تماما مثل الأنا التي لا تنفك تتساءل، بين واقع معيش وتمثله الافتراضي.

والكاتبة في النهاية لا ترفض السلفي، ذلك البورتريه الذاتي الذي يعكس أزمة الذاتية التي نجمت عنه، ووجود أنا افتراضية، بل تريد أن تُبين أن في إدماج الافتراضي في حياتنا اليومية - بدل الخوف منه - وقبول الربط بين الأنا الافتراضية والأنا الواقعية، نستطيع وضع قواعد ولادة جديدة، وبناء أسس عيش مشترك على الشبكة العنكبوتية العالمية World Wide Web، أو 2.0 حسب الاستعمال المتداول اليوم. إن كان العالم قد تغير، فلأننا نحن الذين غيروه، ولا بدّ عندئذ من تقدير أفعالنا، وتطوير فكر نقدي. نحن نشهد تحول الصلات الاجتماعية بسرعة مذهلة، والخطر أن نبقى إزاءه مكتوفي الأيدي.

كاتب من تونس مقيم في باريس

ملف

السيلفي بوصفه تمجيدا للتفاهة

جونثان دودي

«السيلفي» selfie هو أسلوب تصويرٍ فوتوغرافي، ويتمثّل في أن يلتقط المرء صورة ذاتية لنفسه وبنفسه دون تدخل من شخص آخر يظل عديم الفائدة لحظةَ التصوير. اشتُقت كلمة «السيلفي» من المفردة الإنكليزية «سالف» self التي تعني «ذات»، وبالتحديد «ذاته». لكن أهل الكيبيك، الذين يرفضون إدماج أي كلمة إنكليزية في اللغة الفرنسية، يستعملون مصطلحَيْن يوضّحان لنا، في الوقت نفسه وبشكل أفضل، معنى الكلمة والإشكاليات التي تطرحها. إذ هم يستعيضون عنها بـ«صورة ذاتية» autophoto أو بتعبير أفضل هو «بورتريه ذاتي» égoportrait. توضّح العبارة الأولى معنى كلمة «السيلفي» عبر تركيزها على فكرة الصورة الشخصية التي يأخذها الشخص لنفسه، بينما تفتح العبارة الفرنكوفونية الثانية المجال لتفسيرات إشكالية بشكل واسع؛ إذ تحيل مباشرة مفردة بورتريه في عبارة «بورتريه ذاتي» على فكرة الأثر الفني، أي الصورة الشخصية، أو بالأحرى البورتريه الشخصي. غير أنه من الصعب إدراج هذا الإنتاج الفوتوغرافي في مجال الفن، بل إنه لا يمكن إدراجه حتى في خانة الفن المعاصر على كثرة خلوه من القيمة الجمالية التي كانت للفن قديما. كما تكشف تلك العبارة عن مسألة أخرى هامّة، وهي أنها تحيل عبر استعمالها لكلمة «الذات» في معناها الأكثر بساطة إلى «الأنا»، يعني إلى فردية كل شخص، بمعنى إلى الـ«أنا» في مفهومه الأكثر شمولا وكلاسيكية. وبما أنّ الاشتقاق من أساسيات اللغة، فإن الاستعارة باعتبارها فعل تغيير للمعنى تبدأ بتقديم كلمات أخرى تأخذ مكان التعريف الأصلي. وبسبب قوة الاستعاضة التي في الاستعارة، نلاحظ أنه في بعض الأحيان يكون هناك بديل لا يعبر عن الكلمة الأصلية حتى وإن كان قريبا حرفيا من معناها، ذلك أنه لا توجد استعارة لا تستبطن المعنى، بل هي تبتعد به بشكل مدروس ابتعادا يكشف نوعا ما عن نزوح ذاك المعنى نفسه، ولعلّ كلمة ذات Ego تندرج ضمن هذا النوع من الكلمات، فنحن في العادة نفهم هذه الكلمة على أنها نوع من الكبرياء، وهو ما يجعل تعبير «الاعتداد بالذات» يشير إلى كوننا نمتلك نوعا من الغرور مثل ذاك الذي ينتاب شخصا مصابا بتضخم الأنا. هنا، لن نشغل أنفسنا كثيرا بالمعنى الفلسفي للذات بما أن الأمر يتطلب تقويما فكريا للاستعمال المعتاد للكلمات، وهو ما سنبحث فيه في القسم الثاني من المقالة.

انطلاقا

من أحداث واقعية، تخيل أنك ذهبت مع أصدقائك أو مع عائلتك في رحلة إلى المرتفعات الرائعة لمتنزه غراند كانيون. وبما أنّ الطقس كان يومها جميلا، فإنك قررت أن تخلد تلك اللحظة عبر التقاط صورة أمام تلك المناظر التي لا يتسنى رسمها إلا للطبيعة. ولكي لا يُستثنى أحد من الصورة، فإنك توجه عدستك نحوك أنت وأصدقائك مادا ذراعك إلى الأمام أو مستعينا بعصا «سيلفي». وللأسف، يحدث أن تكون غير راض عن المشهد، لأن الإطار لم يشمل مثلا أحد أصدقائك أو لأنك تخفي بما يظهر من جسدك الجبال التي خلفك. وعليه، قررتم أن تتراجعوا إلى الوراء من أجل إيجاد الزاوية الصحيحة لتشمل الصورة كل أصدقائك والمنظر الخلاب من ورائكم. للأسف مرة أخرى، ولكثرة تراجع من معك إلى الخلف، فإنهم وجدوا أنفسهم على شفير الهاوية، وانتهى بهم الأمر إلى السقوط في الوادي دون أن يتمكن ذلك «السيلفي» من تخليد ذكراهم. هذه الحادثة وقعت سنة 2015، ولقي أثناءها اثنا عشر شخصا حتفهم. إنّ أمثلة هذه الحادثة كثيرة، ومن بينها، وفاة سائح ياباني في السادسة والستين من عمره، وإصابة رفيقته بجروح، بعد أن سقطا كلامهما على مدرجات «تاج محل» وهما يحاولان أخذ صورة سيلفي. هذا إضافة إلى موت متجول مصعوقا بالكهرباء في ويلز بسبب عصا السيلفي التي لامست عمودا كهربائيا، كما مات ثلاثة طلاب في الهند عندما رغبوا في أخذ صورة أمام قطار قادم، وسقطت شابّة كانت تحاول التقاط صورة مع حبيبها من منحدر صخري في جنوب أفريقيا، إلخ... لا يمكن للمأساوي أن يشد معالم الواقع، وغالبا ما ينتهي به الأمر إلى أن يصير هزليا. ولكي لا نبدو متبجّحين بمساوئ السيلفي، نستفيد هنا من قول برغسون «الضحك تحديدا هو علاج الغرور، والغرور عيب هزلي أساسا»، لنسأل: كيف يمكن مقاومة الضحك أمام الغرور الذي تعبّر عنه تلك المشاهد الإنسانية، وتلك السخافة المفرطة في طابعها البشري؟ في النهاية، هذا الفن الشعبي

غرافيك «الجديد»

سيقتل أكثر ممن ستقتلهم أسماك القرش في نهاية السنة (بلغ عددهم 8 في 2016). ربما سيقوم إعلان إشهاري، ذات يوم، بتوعيتنا حول مخاطر التقاط الصور بأنفسنا ويدعونا إلى تبني شعار «الصورة التي يأخذها لنا شخص ثان هي الأفضل».

إنّ الرغبة في إثارة الضجّة (البوز buzz) غالبا ما تترجم الغرور البشري عبر ما يعلن من قدرة على جعل نفسه سيدا للطبيعة ومدمرا لها. عند قضاء عطلتهم في كوستاريكا، تسبب بعض المتواجدين هناك بشكل غير قانوني في إرباك السلاحف أثناء فترة مبيضها بالتقاطهم صور سيلفي معها، وهو ما جعل هذا النوع الهش من السلاحف يتخلى عن طقس أساسي من طقوس استمراره. يمكن اختزال ما يصف هذه الحادثة في كلمة محددة: السّائح. لكن من هو السائح؟ إنه كائن حي ينتمي إلى فصيلة البشر لكنه لا يمتلك أي سمة من سمات آداب السلوك أو الثقافة أو حسن التدبير، ويؤمن بمذهب التمتع على طريقة كاليكلاس، إذ دون اكتراث لوجود الآخرين، يسعى إلى الاستمتاع، والمتعة هنا بالنسبة إليه تبرر كل الوسائل المستعملة فيها. «تريد أن تعرف يا سقراط ما هو الجميل والصحيح وفقا للطبيعة؟ حسنا سأخبرك بصراحة. من أجل العيش بشكل جيد، على المرء أن لا يقمع رغباته الخاصة، وأن يترك لها القياد مهما يكن حجمها، وعليه أن يكون قادرا على وضع شجاعته وذكائه في خدمة رغباته من أجل إروائها حال ظهورها».

يأخذ السائح، عندما يصادف حيوانا مهددا بالانقراض، صورة سيلفي معه، وذلك من أجل تخليد اللحظة. وقعت هذه الحادثة على شاطئ في المحمية الطبيعية بـ«أوستيونال» في غرب كوستاريكا أين يحدث كل سنة أمر خارج عن المألوف ألا وهو فترة بيض سلاحف البحر الخضراء. يأتي هذا النوع المحمي نظرا لهشاشته في نفس الفترة دوما، ليتزاوج ويصنع أعشاشه في ذلك المكان العدني، وهو أحد الأماكن النادرة التي لا تزال غير مهددة بالتلوث والتصنيع والصيد المفرط. من المعلوم أن هذا الطقس، بالغ القدم، ضروري لاستمرار هذه الحيوانات. لكن خلال تلك السنة لم تجر عملية البيض كالمعتاد، لأن مئات السياح كانوا قد هرعوا إلى الموقع بدعوة من منظمي الرحلات وغزوا المكان وأربكوا السلاحف مانعين إيّاها من التقدم نحو أطراف الشاطئ، بل إنهم قد أركبوا أطفالَهم فوق ظهورها، واستغل بعضهم الفرصة لسرقة بيضها. عدد كبير من السلاحف الخائفة عادت إلى البحر حسب تقرير جريدة «ليبراسيون»، ناهيك عن صغير الدلفين الذي قتلته مجموعة من السياح عندما التقطوا معه صور «سيلفي» سخيفة، ممّا جعل جسده يتعرّض إلى الجفاف. إننا لنشعر بالاستياء حتى وإن اعترفنا طوعا بأننا سنظل دوما سائحين بالنسبة لكائن ما. غير أنه بعيدا عن هذا السخط الأخلاقي، بل وبالغ الأخلاقية، قد حان الوقت لنفلسف هذه الظاهرة.

يعتبر السائح المدن والمواقع الطبيعيةَ والمعالم التاريخيةَ منتزهات سياحية متعددة. وبذلك، يتحول كل شيء إلى ميدان لعب، تكون فيه «البلدان أماكن ترفيه». فالشاطئ المكتظ بالسلاحف يصير حديقة حيوانات، وتغدو تلك الحيوانات ميكي ضخما من ديزنيلاند. يأخذ السائح صورا لأطفاله ويضعها على مواقع التواصل الاجتماعي ليصنع المشهدية. كل ما هو نادر لا يظل نفيسا بل يصير مفاجئا رغم أن «المفاجئ هو شيء ميت... حال التعبير عنه» كما تورد ذلك ياسمينة رضا على لسان إحدى شخصيات مسرحيتها «Art»، والزائل

يصير الشيء الوحيد المهم في مقابل اضمحلال قيمة الدائم. إن غاية هؤلاء السياح هي التأثير على العقول والتميز بكثرة صور «السيلفي» التي تملأ الإنترنت، وصورة «سيلفي» مع رفقة جيّدة تمكنهم من الخروج من الحشد وتجعل «الأنا» قابلة لأن تلاحظ وتشد الانتباه. هدفهم هو الحصول على أكبر قدر من المديح من أجل تمجيد تفاهة وجودهم. و«السيلفي» هو أحد أعراض الشخصية الأنانية لإنسان ما بعد الحداثة الذي لا يكفيه التقاط صورة سيلفي أمام برج إيفيل بل يجد أن صورة مع السلحفاة أكثر تأثيرا. موت هذه الحيوانات ليست له أدنى أهمية والحياة الاجتماعية هي المنتصر الوحيد في هذه المعركة.

ينقل لنا أوفيد في «تحولاته» أسطورة نرسيس. لكن ما هي هذه الأسطورة؟ سئل العراف تيريسياس عند مولد نرسيس إن كان هذا الأخير سيصل إلى الشيخوخة، فأجاب بأنه سيعيش أكثر من ذلك شرط ألا يشاهد وجهه. مع تقدمه في السن، حظي نرسيس بوسامة فاتنة مشوبة ببعض الكبرياء وباعتداد بالنفس كبير. لم يكن يحرك مشاعره طلاب ودّه، بل كان يظل باردا كالرخام. توجّهت الحورية «صدى» التي رفض حبّها إلى السماء، وقدّمت شكواها فيه، فاستمعت إليها الإلهة نيميسيس باهتمام وقررت أن تستجيب لها. ذات يوم، وعندما كان نرسيس يشرب من نبع بعد يوم شاق من الصيد، رأى انعكاس صورته في الماء فأُغرِم غراما كبيرا بالوجه الذي رآه. توالت الأيام، وواصل نرسيس خلالها تأمّل انعكاس صورته في الماء، وكان يتعذب بسبب عجزه عن الإمساك بوجهه وامتلاكه. كان نرسيس يزداد هزالا كل يوم، وكانت الحورية «صدى»، رغم عدم غفرانها له، تشاطره ألمه مردِدة قوله «للأسف، للأسف» في شكل صدى. انتهى الأمر بنرسيس إلى الموت بسبب شغفه العقيم بصورة وجهه. لكن حتى بعد موته، تواصل هوسه عبر محاولته تمييز ملامحه في مياه ستيكس.

هذه الأسطورة معاصرة بشكل دائم، بل هي أيضا، وفقا لجيل ليبوفتسكي Gilles Lipovetsky، الأسطورة المؤسسة لمجتمعات ما بعد الحداثة، وبالخصوص مجتمعات القرن الحادي والعشرين. إن إنسان «الهومونرسيسوس» Homo Narcissus «مهووس بذاته في بحثه عن تحققه الشخصي وتوازنه». ينظر إلى نفسه في شاشة هاتفه المحمول مثلما كان نرسيس يحدق في انعكاس قسمات وجهه في الماء. يرغب في أن يعشق ويحب صورته، وفي أن يعجب الآخرين، وأن يكون محبوبا من لديهم، لكنه عاجز عن أي حب باستثناء حبه لذاته.

عند قضاء عطلتهم في كوستاريكا، تسبب بعض المتواجدين هناك بشكل غير قانوني في إرباك السلاحف أثناء فترة مبيضها بالتقاطهم صور سيلفي معها، وهو ما جعل هذا النوع الهش من السلاحف يتخلى عن طقس أساسي من طقوس استمراره. يمكن اختزال ما يصف هذه الحادثة في كلمة محددة: السّائح. لكن من هو السائح؟ إنه كائن حي ينتمي إلى فصيلة البشر لكنه لا يمتلك أي سمة من سمات آداب السلوك أو الثقافة أو حسن التدبير

لا يعرف «الهومونرسيسوس» كيف يقيم أي علاقة، ولا يحب شيئا أو شخصا ما لم تؤجج هذه الأشياء الرغبات نحوه هو ذاته. إنه أحد الأعراض المرضية لمجتمع المظاهر فـ«دمار العلاقات غير مهم طالما أن الفرد قادر على الانشغال بذاته». لقد تخلى إنسان ما بعد الحداثة كليا عن الحب باعتباره رابطا ميتافيزيقيا بين اثنين، وانشغل بدأب على تحرير الأنا بغاية بلوغ أكبر قدر ممكن من الحرية الذاتية والاستقلالية، فهو يستوعب شعاره الذي يتلخص في هذه الجملة «يكفيني أن أحب ذاتي، ولذلك أنا لا أحتاج إلى إنسان آخر ليجعلني سعيدا».

ماذا يفيد حب الآخرين وحب المجتمع عندما أكون أنا نفسي قادرا على تلبية احتياجي العاطفي والحصول على الاعتراف الذي يمنحني الانطباع بأني موجود؟ النرجسية ليست دليلا على الوجود وإنما على تأكيده. «الهومونرسيسوس» يعيش لنفسه وداخل نفسه، ويسعى إلى لفت انتباه الآخر الذي يزيد من نرجسيته. إن هذا الآخر لا يقوم بالاعتراف به، لكنه يقوم بتأكيد أن انعكاسه (في صورة السيلفي) يستحق أكبر قدر من المديح ومن اللايكات والتويتات والإعجاب، وكلها مفردات تضخم الإغواء الذاتي الذي يشكل شخصية النرجسي. يتغنى «الهومونرسيسوس» قائلا «انظر إليّ، وهذا يكفيني»، وهو دليل على أن الفردانية تتخذ أشكال تشخيص العالم. لئن لم يكن نرسيس، في الماضي، يمتلك إلا فضاء الأسطورة، وكان دوره فيها ينحصر في توصيف غرور الطبيعة البشرية، فإنه قد صار له، اليوم، ألف وجه ووجه، وكلها وجوه متطابقة وملونة بفلاتر اصطناعية وبشاشات غبشة، يحاول الجميع من خلالها أن «يتنرجسوا» لكي يحققوا وجودهم أكثر قليلا. تحوّل «الهموسابيان» إلى «هومو فيبر» وانتهى به الأمر إلى «هومونرسيسوس» يتبدى ويختفي في شرارة فراغ واحدة.

ترجمة: سامية شرف الدّين

أستاذة الأدب الفرنسي، تونس

غرافيك «الجديد»

نظرة طائر

ثقافة الموبايل: تحقيقات واستطلاعات

هنا في هذا الملف تنشر "الجديد" تحقيقات واستطلاعات أجريت في مصر والمغرب والجزائر والسعودية واليمن وعدد من دول الخليج، رصدت في مجموعها انطباعات وآراء ومواقف متعددة المصادر تتعلق بآلة الموبايل وبالتواصل عبر الموبايل، وبالثقافة التي تتيحها هذه الآلة الذكية المهيمنة اليوم على العالم. فهو رصد لهذا الكائن الخطير المستجدّ في حياتنا بوصفه بوابة ثقافية وطريقة للحصول على المعارف. من بين الأسئلة التي توجّهت بها الجديد إلى المستطلعين:
متى بدأت استخدام الموبايل ليس للاتصالات وإنما للمعرفة (الهواتف الذكية وتطبيقاتها)؟
كيف أثّر استخدامك له على ثقافتك ومعرفتك إيجابا أو سلباً؟
ما أهم التطبيقات التي تعتمد عليها؟
ما الذي أدخله الموبايل على سلوكياتنا الاجتماعية وتوجهاتنا وخياراتنا الثقافية؟
هل أصبح الناس أصحاب خيارات ثقافية محدودة ومبتسرة بسببه أم أنهم اتيحت لهم إمكانية كبيرة للحصول على ثقافة أوسع وبطريقة أسرع؟
ما الذي تخافونه في هذا الجهاز؟ ما الذي يثيره فيكم التعامل معه ومن خلاله؟
وهل تعتبرون أنفسكم أشخاصا مختلفين منذ أن بدأتم في استعمال هذا الجهاز؟
هل يمكن مقاومة وجود الموبايل، أو حتى رفضه؟ وهل المشكلة (لو وُجدت) في هذا الجهاز نفسه أم في طبيعة العلاقة التي يقيمها المستخدم معه؟
هل تخافون على الناشئة، وهل يحتاج هؤلاء مثلا إلى مقدّمات توجيهية قبل استعماله؟

قلم التحرير

عائلة أرثوذوكسية مصرية في وضعية السلفي خلال احتفال الجمعة العظيمة 2018

عالم سحري

استطلاع قاهري

حنان عقيل

في عام 1999 نشر الكاتب المصري جلال أمين مؤلَفه «العولمة»، كان ذلك قبل أعوام من ظهور الهواتف الذكية وتطبيقاتها والتوسع في استخدام الهواتف المحمولة بين كل أطياف المجتمعات ومختلف الفئات. كان الكِتاب بمثابة الوقوف في وجه التيار الذي اعتبره أمين جارفا لكل جذر مصري أصيل ويوشك أن يقضي على جماليات تلك الحياة البسيطة والهانئة التي ظللنا نعيشها عقودا بعيدا عن صخب الهواتف والإنترنت ومن قبلهما الفضائيات المتعددة والمتناطحة.

كان أمين في كتابه يُعلن راحته وسعادته في الابتعاد عن هذا السيل من المعلومات المتدفقة عبر الإنترنت، وعزمه ألا يمتلك هاتفا محمولا أبدا أو بريدا إلكترونيا. وقف أمين في وجه التيار رافضا الثورة المعلوماتية ومتحديا إياها، قبل سنوات من تحولها إلى ثقافة تسم المجتمع وتحدد خياراته وتؤطر حياته، وقبل أن تتحول إلى جزء أصيل من يوم كل شخص مهما كان عمره.

في السنوات الأخيرة، وتحديدا في الفترة التالية للثورات العربية صار استخدام الموبايل المُتصل بالإنترنت والمزُود بتطبيقات مواقع التواصل الاجتماعي جارفا بل إن هذا الجيل القديم الذي كان لسنوات عدة بعيدا عن الإنترنت وما أتاحه من برامج وتطبيقات، صار من خلال الموبايل أكثر قدرة على الولوج إلى مختلف التطبيقات وخصوصا مواقع التواصل الاجتماعي.

رغم ما يمثله الموقف الرافض لطغيان أهمية الموبايل وثقافته التي فرضها على الأجيال كافة، خصوصا الشابة منها، إلا أن ثمة مثالب يحملها هذا الموقف تتمثل في أن يصير الفرد الرافض هو وأولوياته وحياته خارج هذا العصر، غير قادر على التواصل معه أو الاستفادة منه، بل وغير قادر على تلافي مثالبه، ببساطة، لأنه لا يعرفه بل إنه يُصر على رفض معرفته، ومن ثم يصير في مواجهته إنسانا بدائيا في مواجهة مدنيّة كاملة لا يعرف عنها شيئا.

قد يكون الموبايل حوّلنا بالفعل إلى مجموعة من الأشباح في الحياة الواقعية، لكن ثمة واقعا افتراضيا يفرض نفسه بقوة، وعلينا أن نختار؛ إما أن نصير جزءا منه أو نتحول إلى متفرجين ساذجين ستتحول سذاجتهم إلى أغلال تُقيّدهم وتعيق تواصلهم وتقدمهم.

أنتمي إلى هذا الجيل الذي شهد صعود نجم الهواتف النقالة بدءا من تطور الهواتف العادية، ثم إلى تلك المزودة بكاميرا وإمكانية حفظ الصور والأغاني والنغمات المختلفة، ثم الانتقال الأكبر إلى الهواتف الذكية. لم يكن الأمر مغريا بالنسبة لي في بدايته، كان التقليد يزعجني دائما، هذا التهافت وراء كل جديد بغض النظر عن أهميته الخاصة لي. بقيت لسنوات لا أهتم بهذا المارثون المستمر، وأراقبه بلامبالاة. سنوات من المشاهدة الحيادية الباردة إلى أن صار الحصول على هاتف نقال ضرورة للتواصل مع الأصدقاء والأهل والأساتذة، ضرورة لم تعد تلبيها الهواتف العادية المنزلية مع ظروف التنقلات والسفر والاعتماد الكامل للآخرين على الهواتف النقالة.

حينما ظهرت الهواتف الذكية كانت المعاينة الباردة أيضا التي تطورت إلى رفض. سنوات أرفض التخلي عن الموبايل القديم ذي الكاميرا الجيدة والذي يوفر لي ما أحتاجه من اتصالات. كانت للرفض أسبابه؛ المحيطون من الأصدقاء ممن يمتلكون هواتف ذكية بدوا لي مشدوهين أمام شاشاتهم في كل مكان ووقت، أجالسهم ونتحدث وكأن ثمة أشباحا لا تنطق ولا تعبر، كان حضورهم جسديا لكنهم غائبون فكريا وروحيا. أردت ألا أتحول مثلهم إلى شبح يغادر واقعه ويعيش في آخر افتراضي، وألا يصاحبني هذا الواقع الافتراضي وأصاحبه طيلة يومي. لكن حدة الرفض أخذت تخفت تدريجيا. الحاجة إلى التواصل في العمل ومع الأصدقاء من خلال ما يوفره الهاتف الذكي من وسائل اتصالات داخل البلاد وخارجها بسهولة ودون تكلفة تذكر، الكتب الدراسية التي كانت تتاح على مواقع التواصل للتحميل والطباعة، التواصل مع الأساتذة على مواقع التواصل، وغير ذلك من الأشياء التي شكّلت عتبة أولى في سلم الصعود إلى هذه الثقافة، ثقافة الموبايل.

حقيقة الأمر، أن المسألة تحولت شيئا فشيئا إلى أن صار هذا الجهاز

الصغير مُسيّرا لحياتنا، بالكامل. ربما هو انجراف مع التيار أكثر منه اختيار واع. ضرورات مهنية وأخرى اجتماعية وثقافية ويومية باتت غير ممكنة دون الموبايل. تلف بسيط في هذا الجهاز كفيل بأن يعرقل الحياة بأكملها لأسابيع.

السؤال مقلوبا

تغير السؤال الآن من؛ لماذا ألجأ إلى هذا الجهاز أو أعتمد عليه؟ إلى كيف أتخلى عنه؟ بات الأمر شبه مستحيل سواء كان لضرورة حقيقية أو لاحتياج نفسي شكلته العادة. بل صار الأمر أكثر تعقيدا بالنسبة للأجيال الجديدة التي اعتادت الاستخدام المستمر والمتكرر لكل ما تتيحه هذه التطبيقات من ألعاب أو فيديوهات أو أنماط لتنظيم الوقت، أو لأنماط التواصل التي يوفرها ويتيحها. تتعقد العلاقة مع الأجيال الجديدة بشكل أكبر ويصبح التخلي أكثر استحالة بل يصير الحديث عن تقنين الاستخدام أو تحديد الأولويات والاهتمامات ضربا من الخيال يصعب تطبيقه على الواقع.

نظرة موضوعية على طبيعة الحياة في ظل هيمنة أنماط وثقافة الموبايل تضعنا أمام مجموعة من الإيجابيات يصعب التخلي عنها أو رفضها، وجانب كبير من السلبيات يصعب تجنبه، لكن المؤكد هنا أن كل شيء في الحياة بات موسوما بطابع هذا الجهاز وما يُقدمه ويتيحه، من ثقافة سريعة تظل هي المُهيمنة والمُتصدرة حتى لو كانت هناك طبقات معرفية وثقافية أعمق تحت هذه القشرة. وحتى لو كان العكس أيضا متاحا تحت هذا السطح، ومن استهلاك لساعات وأيام طويلة فيما هو أقل فائدة من أن يستغرق كل هذا العُمر.

هنا وقفة مع تجارب عدد من الشباب في طرق استخدامهم لهواتفهم الذكية، وما أتاحته لهم من إيجابيات وما يلاحظونه من سلبيات تتسلل إليهم جراء الاعتماد عليها.

عالم سحري

ياسمين سامي فتاة ثلاثينية تعمل محاسبة بإحدى الجامعات المصرية الخاصة. بدأ استخدامها للموبايل منذ المرحلة الجامعية وصارت الصلة بينهما تتوثق عاما بعد الآخر. كان عالم المنتديات ونقاشاته المستمرة وموضوعاته المتجددة سحريا بالنسبة لها؛ جذبها إلى شبكة من العلاقات والاهتمامات. لم تعد تقتصر في متابعتها للمنتدى على أجهزة الكمبيوتر، أضحى الموبايل رفيقا لها يساعدها في أن تلج عالمها السحري بسهولة وفي أي وقت.

من ساحة المنتديات إلى «الفيسبوك» الذي كان في البداية لتوثيق وترويج المنتدى حتى صار بالنسبة لها بديلا عنه. شبكة من الصداقات القديمة التي تجددت والجديدة التي توثقت، كان موقع التواصل شاهدا عليها ومعززا لها، ومتسببا في توثيق الصلة أكثر بعالم هذا الجهاز الصغير الذي تغير مرارا بمرور الأعوام، حتى وصلت إلى جهازها الحالي الذي يضمن لها أداء سريعا في الاتصال بالإنترنت ومساحة كافية لتحميل ما تشاء من تطبيقات.

قالت لي: صار الموبايل حياة كاملة نمارسها بموازاة حياتنا الواقعية؛ حياة نعيشها تتضمن أبسط الأشياء وأعقدها، حتى أن حياتنا الواقعية ضمنّاها فيه؛ صرت أتواصل مع أصدقائي من خلاله، أكتب لهم على «الواتساب» أو «الفيسبوك» دون أن أسمع صوتهم أو ألتقيهم لأسابيع وربما لشهور. صرت أتابع أخبارهم من خلال مواقع التواصل وأشاهدهم من خلال صورهم على «إنستغرام».

كانت لهذا التواصل المستمر الذي أتاحه الموبايل مثالبه بالنسبة لي، يمكن القول إنه وضع قواعد جديدة على علاقاتنا باتت محكومة بعدد «اللايك» و«الكومنت» الذي يحدد حجم الاهتمام والمحبة. صار التجاهل مرادفا للتواجد «أون لاين» دون أن تتحدث معي. صرت لا أجيد الحديث في لقاء واقعي مع الأصدقاء فأظل صامتة بينما في التواصل عبر الموبايل لا تنقطع الرسائل لساعات.

من جهة أخرى، بت أشعر أنني سجينة هذا العالم وأسيرة لهذا الجهاز الذي عزلني عن الأهل والعائلة، أجلس معهم ولكنني لا أسمعهم. ولكن، لهذا الأسر فوائده، من خلاله وجدت ساحة للتعبير عن أفكاري ومشاعري، صرت أحصل على الكتب التي لا أجدها بسهولة وأكتب انطباعاتي عنها وأناقشها مع الأصدقاء، تواصلت مع كُتّابي المُفضلين وتعرفت عليهم عن كثب.

ربما بدا وكأن هذا الجهاز صار جزءا مني وليس من حياتي فقط. حدث لي التهاب في يدي بسبب إمساكي الدائم به. صار مرآتي التي من خلالها أعكس صورتي أمام الناس وأحيانا أمام نفسي. أستخدمه في الوصول لما أحتاجه؛ تسلية كانت أو وصفات طعام أو أحاديث جادة أو نشرات إخبارية.. كل شيء.

مقاومة الاستلاب

بالنسبة لمهندسة الاتصالات سارة جمال، البالغة من العمر ثمانية وعشرين عاما، تكمن أهمية الموبايل في ما يتيحه لها من اتصال مستمر بأدوات البحث التي تستخدمها بشكل أكبر من أي تطبيق أو موقع آخر، فهو وسيلتها للوصول إلى معلومات بخصوص أي شيء جديد تريد أن تعرف المزيد عنه.

تعتبر سارة الموبايل فرصة لاستغلال الوقت المُستهلك في المواصلات، لا سيما في الاطلاع على مواقع وقراءة مقالات في مجالات اهتمامها وأبرزها العلوم وما يستجد فيها، وطبعا «google maps» الذي يساعدها دوما في الوصول لما تريده من أماكن. لكنها لا تستخدمه في ما يتعلق بعملها الذي يحتاج إلى برامج وإمكانيات كبيرة غير متاحة فيه، باستثناء التواصل المستمر مع البريد الإلكتروني الذي يُبقيها على اطلاع

دائم على مستجدات العمل.

تحاول سارة مقاومة استلاب هذا الجهاز لحياتها، تستخدمه في مواقع التواصل المُختلفة، لكنها تحاول ألا يلتهم وقتها لذا تتعمد إغلاقه في الكثير من الأحيان. تسعى لأن تكون متواجدة بشكل أكبر على ما يُمثل لها فائدة، مثل موقع «جودريدز» الذي يُتيح لها تسجيل ما قرأته من كتب والتعرف على الكتب الجديدة في المجالات التي تهتم بالقراءة عنها.

لم تعد محاولات التراجع ممكنة، ترى سارة أن علاقتنا بالموبايل ستتطور شئنا أم أبينا، ومن سيتخلف عن ملاحقة هذا التطور سيكون خارجا عن العصر. فالعالم يتجه بسرعة نحو تطبيق «إنترنت الأشياء» على كل شيء في حياتنا ومن ثم يقل التدخل البشري ويصير الاعتماد أكثر على الإنترنت في تسيير كل شيء، وهذا كله سيتم ربطه بالهواتف الذكية.

أدوات جديدة

محمد أبوزيد، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما، والذي يعمل محررا صحافيا يرى أنه في أوقات كثيرة نتنافس -كل على حسب قدرته الشرائية- لاقتناء «تكنولوجيا» قد لا نكون عمليا في حاجة إليها، ثم ما تلبث تلك «التكنولوجيا» أن تفرض علينا نفسها كجزء من ممارساتنا اليومية، نطوّعها في العمل وخارجه، ويصبح تخيل الحياة من دونها - وهي التي لم تكن حتى قبيل اقتنائها ذات أهمية- أمرا أشبه بالمستحيل.

كانت البداية كذلك مع محمد. يقول: كنت أسيّر ما يوفره «الهاتف الذكي» من إمكانات لخدمة متطلباتي المهنية، حتى صار الآن يُسيرني هو ويتحكم في طبيعة عملي، ذلك أنني في الكثير من الأحايين أجد نفسي مدفوعا بالرغبة في التجريب واختبار الأدوات الجديدة التي توفرها المنصّات العالمية عبر الهواتف الذكية -مثل أدوات غوغل- لاختبارها في موادي الصحافية، ثم أعتمد عليها اعتمادا كليا بعد ذلك.

بدأت علاقتي بال«سمارت فون» متوترة، بداية من شكوك حول مدى جدواه واحتياجي إليه، بخاصة أنني كنت مدركا تمام الإدراك أننا - كشباب- كثيرا ما نلهث خلف جديد التكنولوجيا حتى لو لم نكن في حاجة فعلية إليها، لكن مع ظهور وانتشار برامج التواصل -خاصة الواتساب وفايبر- وجدت في اقتناء هاتف ذكي أمرا ضروريا على مستويات عِدة، منها ما هو شخصي مرتبط بطبيعة عملي ورغبتي في تطوير أدائي المهني؛ فقد وجدت فيه معينا على التواصل مع مصادر الأخبار والتحليل الخارجية في الشؤون العربية والدولية، من غير المقيمين في بلدي «مصر»، ومنها ما هو عام يرتبط بكون تلك الوسائل منفذ لتشارك الآراء والمبادرات حول الشأن العام قبل اعتمال الثورة في النفوس وقبل انطلاقتها.

من هذا التداخل بين ما هو خاص وما هو عام، بدأت علاقة محمد مع الهاتف الذكي، فقد استخدم في البداية تطبيقي «الواتساب والفايبر»، اللذين مثّلا بالنسبة له نافذة للانفتاح على مصادر لم يكن ليصل إليها إلا من خلال تلك البرامج، مما عزز من مهاراته الصحافية. ثم توسع في ما بعد ليصير أكثر اعتمادا على غير ذلك من الأدوات التي تتيح له التأكد من المعلومة والصور، وأدوات لإنتاج مواد بصرية مختلفة. فأداة بسيطة مثل خرائط غوغل عبر الهاتف، أو تطبيق مثل تطبيق جمع الصور وترتيبها، وتطبيق حفظ روابط الأخبار والملفات وتجميعها لمطالعتها في وقت آخر، وكذا تطبيق ترتيب المواعيد والفعاليات المختلفة والتنبيه بها، جميعها خلقت فرصا لتطوير شكل ومضمون المحتوى الذي يقدّمه، رغم أنه لم يكن يهتم كثيرا بتلك الأدوات إلا بما هو متاح منها عبر أجهزة الكمبيوتر.

رفيق الغُربة

بدأت علاقة أحمد جمعة، الشاب المصري الثلاثيني الذي يعمل محاسبا في دولة خليجية، تتطور شيئا فشيئا بهدوء وثبات. في مرحلة التعليم الثانوي، أي منذ حوالي ثلاثة عشر عاما كان الموبايل قد بدأ في الانتشار بين زملائه، كانت أكبر الإمكانيات وأفضل الأجهزة محددين بنوع الكاميرا وجودة الصوت. لم يأبه أحمد في البداية بذلك اللهاث والتفاخر لاقتناء هذا الجهاز مثلما فعل زملاؤه إلا أنه بعد سنوات وفي مرحلة التعليم الجامعي تغيرت المعادلة.

يقول أحمد: مُذ المرحلة الجامعية أدركت أهمية «الموبايلات» من أجل التواصل بيننا كزملاء، كنا نعتمد على ال«رنّة» أو ما يُعرف بـ«Missed Call» كلغة تواصل بيننا، فرنّة واحد صباحا لأحد الزملاء تعني أنني استيقظت الآن، ثم رنّة أخرى تعني أنني أستعد للنزول، وثالثة تعني أنني ها قد وصلت إلى المترو لنلتقي سويا ونذهب إلى الجامعة معا، وفي أوقات ما كان يتطلب الأمر استخدام رسالة مجانية «كلمني شكرا» حالما ترد الرنّة برنّة مماثلة من الطرف الآخر.

بداية من موبايل «نوكيا» وحتى «الآيفون» رحلة طويلة في عالم التلفونات المحمولة، استخدمت فيها -تقريبا- جميع أنواع الموبايلات من مختلف الشركات، حتى استقرت سفينتي عند واحة «الآيفون» الهادئة والآمنة تماما. وفي غمار تلك الرحلة تغيّر كل شيء تقريبا، فالرنّة لم تعد هي نفسها، بل تحولت في مرحلة تالية إلى رسالة مباشرة عبر تطبيقات التراسل الفوري أو عبر «الفيسبوك»، وصار هناك ما يشغلنا في الموبايل أكثر من مجرد لعبة «الثعبان» التي كانت أشد ما يجذبنا إلى الموبايل لدى نعومة أظافرنا في عالم «الموبايلات» المتسع.

يتابع أحمد: تسرّب الموبايل إلى عالمي حتى أضحى جزءا لا يتجزأ من تفاصيل حياتي، في التواصل مع الزملاء وفي العمل وفي كل شيء، عزز ذلك اغترابي وعملي في إحدى دول الخليج فصار الاعتماد على «الموبايل» كليا في التواصل مع أهلي وزملائي في القاهرة، إضافة إلى استخدام تطبيقات مختلفة في عملي كمحاسب، إذ وفّرت لي الثورة الهائلة في عالم التكنولوجيا الكثير من التطبيقات التي أستخدمها

يوميا، والتي دونها لكنت قد أنفقت الكثير من الوقت انتظارا لإنجاز مهمة ما. كل فترة أكتشف تطبيقا، وكل فترة يزداد شغفي بالموبايلات التي صارت أكثر من كونها ثقافة، صارت جزءا من الحياة، كماء وهواء وشمس وقمر، هل تلك الأشياء ثقافة؟ هي جزء من تكوين الطبيعة، وقد فرضت التكنولوجيا الحديثة نفسها علينا بهذا الشكل.

الأمر يتعدى حدود مجرد التواصل. هناك «كورسات» كاملة حصلت عليها عبر «تطبيقات الموبايل» في مجالات مختلفة، في اللغة والمحاسبة والتنمية البشرية.. وهناك برامج جد مُهمة لجهة التعليم والتثقيف ما كنت لأحصل عليها إلا من خلال «الموبايل»، باعتباره وسيلة سهلة ومعي في أي مكان.. صار الموبايل رفيقي في الغربة، أو لا أدري ما إن كان قد غرّبنا هو عن أنفسنا وفرض نفسه كرفيق.

ثقافة قشرية

بدأ محمد عبدالعزيز، البالغ من العمر خمسة وأربعين عاما، في استخدام الهواتف الذكية منذ ما يقرب من ثمانية أعوام، بدأ الأمر مغريا له في البداية لا سيما أنه أيسر وأسهل في الولوج إلى الشبكة العنكبوتية من أجهزة الكمبيوتر التقليدية، وكذلك بالنسبة للتوقيت والمكان، كان الجوال يوفر ميزة الإبحار في الفضاء الأزرق في أي لحظة وأي مكان تتوفر فيه الشبكة.

في البداية كان الأمر يتسم بالشغف والانبهار، والثقة والتسليم إلى حد كبير في مضمون ومصداقية المحتوى، وشيئا فشيئا بات الأمر بحاجة إلى تقييم. كان لاستخدام الموبايل أثر كبير في الإلمام بالأحداث الجارية في الداخل والخارج، وفي شتى المجالات وإحداث حالة من الثقافة العامة إلا أنها تظل ثقافة قشرية تحتاج إلى تأصيل بالرجوع إلى المصادر الأصيلة للمعرفة.

يعتمد عبدالعزيز على أكثر من تطبيق بشكل يومي، في المطلق يعتبر تطبيق «نبض» من أكثر التطبيقات المستخدمة للاطلاع، بالإضافة إلى تطبيقات متخصصة مثل «قلم» وأخرى للمعلومات العامة مثل «وصلة» وتطبيق «ياقوت» الذي يوفر كتبا عربية وإنكليزية جاهزة للتحميل ومزود بالعديد من الخصائص كالقاموس ووضع الملاحظات وتظليل النصوص.. وكذلك تطبيق «اقرأ لي».

ثمة سلبيات نجمت من كثرة الاعتماد على الموبايل، أبرزها كما يرى عبدالعزيز: الميل إلى الذاتية والانعزالية، الفكر الأحادي، التحيز للرأي وعدم التوثق من المعلومات بدقة، لكنه في المقابل أتاح سهولة التواصل وجعل المعرفة متاحة للجميع. إلا أن السلبيات تكثر أو تقل وفق الطبيعة الفردية لكل شخص ورغبته وقدرته في الإبحار في عوالم الفكر والثقافة، أو الانحباس والتقوقع في أطر محدودة.

يقول عبدالعزيز: الموبايل الذكي مثله مثل أي جهاز، من المهم أن تتوفر لدى المستخدم مجموعة من القيم الأساسية تحصنه من أي استخدامات مسيئة لهذا الجهاز؛ الناشئة على سبيل المثال يجب أن تكون لديهم حماية من الولوج إلى المواقع المشبوهة، من المهم أيضا أن يكون لدى المستخدم أيا كان عمره قدر من الاستقرار النفسي، بحيث لا يتسبب الإغراق في استخدام الجهاز في عزلته ومن ثم اكتئابه والتأثير سلبا على علاقاته الاجتماعية والأسرية. من غير الإنصاف القول إن استعمال الجهاز لم يترك أثرا، خاصة على المستوى الاجتماعي، فبات البعض يكتفون باتصال هاتفي أو مرئي مع والديهم أو أقربائهم بدلا من الزيارة على أرض الواقع. بينما استفاد المغتربون من هذه الميزة ذاتها في التواصل مع أهلهم كما لو كانوا وجها لوجه. الأمر يحتاج إلى موازنة.

يرى عبدالعزيز أنه لم يعد من الممكن مقاومة وجود الموبايل أو رفضه، لكن من المفيد تقنين استخدامه، وتوقيتات ذلك خاصة بالنسبة للأبناء في سن الدراسة، وحتى أيضا بين الأزواج. ينبغي ألا يتحول الموبايل إلى منافس للزوج أو الزوجة. الموبايل بما يتضمنه من تطبيقات وعالم مختصر بين أطراف الأصابع شديد الإغراء على الاقتناء والاستخدام. ومن ثم يجب أن يتحكم المستخدم في توقيتات وطبيعة استخدامه. فلا يمكن السيطرة بنسبة تامة على سلوكيات الناشئة في التعامل مع هذا الجهاز. لذا من المهم توفير غطاء أخلاقي لهم بالإضافة إلى متابعة متواصلة، ليس فقط لمنع الدخول إلى مواقع مسيئة، ولكن حتى لمنع الإغراق أكثر مما ينبغي في المواقع المفيدة.

مصدر معلومات

محمد المدني، طالب جامعي سوري، بدأ استخدام الموبايل لأغراض غير الاتصال في بداية عام 2010 خلال الدراسة الثانوية والجامعية لاحقا. مع بداية الثورة السورية عام 2011 أخذ استخدام الموبايل منحى جديدا فكان له دور كبير في إرسال الأخبار والمقاطع المرئية والصور للأحداث الجارية في المنطقة، وترافق ذلك مع انتشار الكثير من المواقع و صفحات مراكز الأبحاث والدراسات، مما جعل الموبايل وسيلة سريعة الحصول على المعلومات إضافة إلى انتشار المجموعات والغرف التي يتم فيها تبادل المعلومات والثقافات مع شعوب أخرى.

يقول المدني: عملت خلال سنوات الحصار الماضية في الغوطة الشرقية كمواطن صحافي، صرت أعتمد على الموبايل في حصولي على معلومات وآخر أخبار العالم، في ظل الحصار الذي كنا نعيشه خلال ست سنوات متتالية. استخدم الموبايل في منطقتنا في الكثير من التجارب كوسيلة لنشر الأفكار السياسية، والدعوات للعمل المجتمعي، وكوسيلة للدعاية والإعلان، وذلك من خلال تطبيقات ومقاطع مرئية وصوتية انتشرت بشكل داخلي عن طريق شبكات محلية صغيرة وبشكل عام عن طريق الإنترنت.

كان للموبايل ولا يزال دور كبير في تغيير ثقافة و نمط تلقي المعلومة للمجتمع حيث أنه اعتمد كمرجع أساسي للحصول على المعلومة من

جمهور كرة قدم ولقطة لرسمة للاعب المصري محمد صلاح

عدة مصادر، وإعطاء القارئ الحرية في تبني المصدر الذي يصدقه، لكنه صار يفتقد للمصداقية لأن المعلومات والأخبار تنتشر دون ضوابط مما ساهم في انتشار الشائعات.

وسيلة تعلّم

محمد البشير، الذي يعمل مهندسا بدولة خليجية، يروي علاقته بالموبايل بقوله: اشتريت الهاتف وكان سعره وقتها مرتفعا، اشتريته بالتقسيط (كل شهر 120 جنيها)، أبهرني أنه بكاميرا ومسجل صوت وعلاوة على ذلك به راديو، إمكانات عديدة في جهاز واحد، كان بالنسبة لي اختراعا، كمن لتوه اكتشف الكهرباء فأنارت حياته بعد ظلام.

اقتصر تعاملي ابتداء مع «الموبايل» على التصوير وتبادل الرسائل مع الأصدقاء والمكالمات النادرة وبعض الألعاب، فضلا عن الراديو.. كنت أنزوي ليل كل أحد وثلاثاء في غرفتي واضعا السماعات بأذني مستمعا لبرنامج رومانسي عن مشاكل الحب والعشاق عبر أثير الراديو. كان ذلك جريمة أرتكبها خلسة في بيتنا المحافظ نسبيا! جريمة تلو الأخرى، من مجرد الاستماع لبرنامج رومانسي حتى تبادل الرسائل الغرامية مع إحداهن ومكالمات منتصف الليل المسروقة.

يتابع البشير: من مجرد وسيلة للتواصل والترفيه إلى وسيلة للتعلم أيضا صار «الموبايل» بالنسبة لي في المرحلة التالية، بخاصة بعد انتشار مواقع التواصل الاجتماعي على نحو لافت فضلا عن توسع التطبيقات المختلفة، فكان وسيلتي لمُطالعة الكتب الإلكترونية فضلا عن بعض التطبيقات والبرامج الهادفة لتحسين لغتي الإنكليزية والفرنسية بعد ذلك، حتى البرامج التي لها علاقة بمجال دراستي ثم عملي لاحقا في «الهندسة» مثل برنامج الأوتوكاد أو MathPix Problem Solver وغيرهما من البرامج المتوافرة كتطبيقات على الهاتف، إلى جانب التطبيقات العادية التي صارت من بديهيات الـ«سمارت فون» كبرامج التواصل (واتساب وفايبر وغيرهما)، فضلا عن تطبيقات مواقع التواصل (فيسبوك وتويتر ويوتيوب وغيرها).

حاولت جاهدا تطويع تلك التكنولوجيا لخدمة مجالي العملي، وكذلك من أجل التواصل في المقام الأول مع آخرين، إضافة إلى القراءة، خصوصا في الطريق اليومي الطويل إلى مكان عملي، صرت أطوي الطريق رفقة كتاب إلكتروني، أو في برنامج تعليمي، أو في الحديث مع أحدهم. وغالبا ما أنظر إلى تلك التطبيقات في صورتها المجرّدة كـ«سوفت وير» وأبتكر البعض من تلك البرامج، وأوصي بها بعض المطورين من زملائي أو العاملين في تصميم تلك التطبيقات، ونتبادل الحديث بشأنها وبشأن تطويرها.

كاتبة وصحافية من مصر

نساء بحرينيات وسيلفي في بهجة الاحتفال بالسماح لزميلاتهن السعوديات في السياقة

اللعنة المدهشة

خليجيون ويمنيون: لم نعد نخاف العزلة

زكي الصدير

في أواخر التسعينات الميلادية من القرن الماضي، نشرت مجلة نيوز ويك الأميركية تقريرا عن أبوين أميركيين يسكنان كاليفورنيا قررا تربية وتعليم أولادهما تعليما ذاتيا مستقلا، بعيدا عن كل وسائل التكنولوجيا والتعليم النظامي، فلا تلفزيون، ولا راديو، ولا هاتف، ولا إنترنت، ولا مدارس، ولا أيّ وسيلة تقنية يمكن الاستعانة بها في تعليمهم. فقط، كانت الكتب هي المرجعية الوحيدة لثقافتهم، ولمعرفتهم بالحياة وبالعالم. كانا مقتنعَين تماما بأن منظومة التعليم وجميع أدوات التكنولوجيا ستدفع بأبنائهما إلى تحويلهم لقوالب اجتماعية معلّبة شبيهة بروبوتات مبرمجة.

وبالفعل، لقد نشأ الأطفال أذكياء جدا، وصحيين جدا، لكنهم كانوا يتّصفون بسلوك اجتماعي غريب للغاية، كان لهم عالمهم، وأولوياتهم، وأحكامهم، وذوقهم، فلم يتمكّنوا حين كبروا من الاندماج في المجتمع الذي كان متخلفا عنهم، ومتقدما عليهم في ذات الوقت.

في عام 2016، حصد الفيلم الأميركي Captain Fantastic عدة جوائز لتناوله موضوعا مشابها يتعلّق بسؤال ثقافي مرتبط بالفلسفة والدين والتاريخ والعقائد، حيث يُكرّس أبٌ حياته لتربية أطفاله الستة على أسس بدنية صحيحة وتعليم فكري صارم، بعيدا عن التكنولوجيا والمدارس. لكنه يُرغَم على ترك منظومته تلك وخَوض العالم الخارجي، ليواجه تحديات تخص فكرته عن معنى الحياة والأبوة ضمن رؤيته الذاتية عن قوالب قنوات التواصل الاجتماعي الجماهيرية التي تقدم لنا معنى الأشياء بجاهزية عبر التعليم والثقافة والدين، وعبر التكنولوجيا الهائلة التي تجتاح الأبناء ليغدوا كائنات مجهولة.

هذه التكنولوجيا -التي اختصرت الآن في جهاز صغير ذكي يسكن جيوبنا- لم يعد التعامل معها وفق اختياراتنا أو أفكارنا، أو وفق ما نرغب فيه ونريده، لكنها تتسع لتشمل حياة الآخرين واختياراتهم وأسئلتهم الوجودية البسيطة والمعقدة. فلقد تحوّلت إلى نسيج عضوي في حياة الكائن البشري المعاصر، إذ لا مناص من أمرين؛ إما أن تكون في العالم وإما في خارجه، إما أن تكون حيا وإما ميتا. لكن الخطورة حين تتحوّل الحياة إلى موت بمعناه المجازي، والموت إلى حياة بمعناها الحقيقي.

والأمر كان أكثر ثورية حين دخل فعله الاجتماعي إلى حيّز الفضاء السياسي مستحكما في الجماهير، وموجها لهم عبر تطبيقاته الاجتماعية الشهيرة، الأمر الذي أسقط حكومات وأقام أخرى إبّان رياح الربيع العربي التي لم تنتهِ آثارها حتى اللحظة. هذه النتائج الموضوعة على طاولة المحللين والسياسيين وعلماء النفس والاجتماع ستكون لها بالتأكيد حوكمتها الخاصة التي ستجعل من الموبايل فضاء محكوما بما يريد السياسيون ورجال الدين من أن تكون الجماهير عليه. وهذا ما أكّد عليه الناقد السعودي عبدالله الغذامي في كتابيه «الفقيه الفضائي»، و«الثقافة التلفزيونية»، حين تعرّض لسقوط النخبة وبروز الشعبي. وهنا، بالإمكان أن نستحضر نص الشاعر السعودي حسين المنجور في مجموعته «قبر إلكتروني لكائن افتراضي» الصادرة عن دار الغاوون سنة 2010، حيث يقول:

«كفانا إنسانية أنْ نجترحَ آفاقا للتواصل لم يجترحها حتى الأنبياء، أنْ نوقدَ لأضيافنا في الشات وmsn بأنفسنا لا بعبيدنا، أنْ نمتحنَ هذا الصقيعَ بصقيع مثله، ونكافحَ النار بالنار حدّا بحدّ، أنْ ننقعَ القُبل ببقايا شغفنا، ونمارس بعض الشذوذ مع الآلات، ماذا؟ (لو كان حيّا لترحمنا عليه)!!، لو كان حيّا لبصقنا عليه، لو كان حيّا لدهسناه بأحذيتنا كصرصار، ولتمخَّطنا أمامَه بقرف مريض ليرحل عنّا، إنها الآلات... المراوح والمجسّماتُ، الخفّة في الأرواح والأقربُ إلى معدنيّتنا... غرفة أو «نك نيم»، ويتقاطر الأصدقاء كزخّات المطر، على حقول الأزرار».

مجلة الجديد توقفت مع مجموعة من الكتاب والشعراء والروائيين الشباب، من الخليج العربي واليمن، مستعرضة تجاربهم الشخصية مع الموبايل وتطبيقاته المتنوّعة، وكيف يشكّل جزءا من يومياتهم البعيدة والقريبة، المكشوفة، والمغلقة، سواء كان في المنزل أو في العمل أو في الشارع، أو بين الأهل والأصدقاء والغرباء. وهل يمكن التخلص منه، أم إنه واقع يومي مثل الأوكسجين والأكل والشرب والجنس. وما هي علاقته بحياتهم الخاصة جدا، والسرية للغاية مع حبيباتهم أو أحبائهم. وأيضا كيف هي علاقته بأعمالهم وكتاباتهم وآرائهم وتواصلهم على مستوى الدراسة والوظيفة وأشياء أخرى. هل هم أسراه، أم هو أسيرهم؟

بين العزلة والانكشاف

ترى الشاعرة السعودية رباب إسماعيل أن الموبايل واقع يومي فعلا، لكنه لا يشكل جزءا من يومياتها إلا في حالات مُحدّدة؛ عند الانهماك في الأعمال المكتبية أو ظروف السفر والغربة، وذلك كنوع من التعويض عن فقدان المحيط الاجتماعي الواقعي، عندها يعمل الواقع الافتراضي والموبايل كمسكن تلجأ إليه لتعيش نوعا من المشاركة الاجتماعية المفقودة.

ويضغط على رباب هذا الواقع الافتراضي متمثلا بالموبايل حين يهمس لها في بعض اللحظات الجميلة خاصة في ما يتعلق بيومياتها مع أطفالها بأنه صديق ذكي ووفي ويُجيد الاحتفاظ بذكرياتها وتذكيرها بها بعد سنين.

تقول «المُميّز في هذا العالم أنه لحظة التقاء هجينة بين العزلة والانكشاف على العالم في وقت واحد. هو ينتهك العزلة الجميلة ليكون معك رقيبا صامتا يترصد أن تُشاركه أي شيء. وفي الوقت ذاته يعزلك عن العالم الحقيقي. الموبايل إجمالا أصبح مثل ظلّنا، لكن لا بد من التعقّل في مُحاكاته، لأنه يُجيد بيع الوهم على الذات، وتلك واحدة من ألاعيبه».

وتضيف «في عالم الأدب والكتابة، قد يُشّكل قرب الموبايل من أيدينا شيئا مهما لرصد الومضة الأولى والملامح الأساسيّة للنص، تلك التي كانت ستبرد وتتلاشى لولا الإمساك سريعا بها على الموبايل، لكن الظن باكتمال النص والتعجّل في نشره ساخنا غالبا ما يعطينا نصّا غير مُكتمل النمو، وهذا ما أقع فيه أحيانا. لكن بطبيعة الحال الكتابة على الحائط اليومي شيء مُختلف عن الكتابة في عالم الأدب، هناك نكتب ومضات سريعة للإمساك بلحظة عابرة أو إحساس غامض، لكن ذلك ليس إلا مِرانا على الكتابة».

لقد خفف الموبايل أحمال رباب من الدفاتر والأقلام والكتب، لكنه لم يحلّ محلها، فما زالت دفاترها تتنقل معها بجمالها وحميميتها، فهو عالم رديف ومُكمّل وتشعر لذكائه بالامتنان الكثير في كل جوانب الحياة، إلا أنها تعرف رسم حدود علاقتها معه، خاصة عندما يتحول ذكاؤه ووفرة ما يرفدنا به لنوع من التشويش أو الصدمات؛ حين يُعطينا خيار الاقتراب من أسماء لامعة.

تقول «تخيّل الحائط اليومي لنزار قباني مثلا، أو وجود محمود درويش أون لاين، أو أنك تُقلّب تلك الصور التي ولّدتها اللغة بطريقتها الخاصة، لا شك أنه أمر جميل ومُدهش لكنه مُخيف أيضا. إذ أن الاقتراب كثيرا من الأشياء أو الأشخاص ليس دائما أمرا جيّدا».

الخروج من مسار النهر

في علاقتها مع «موبايلها» يبدو الأمر بالنسبة إلى القاصة الإماراتية صالحة عبيد -وهي تتأمل سؤالنا لها- كمن يعتقد بأنه قد خرج عن مسار النهر الإجباري الذي سيقود إلى هاوية ضمنية ما فإذا به يكتشف هشاشة الضفة تحته، كسرة منها تحمل استواءه الوهمي وتدفعه إلى ذات التيار.

تقول «هاتفي المتحرك معي بشكل دائم. هاتفان أحيانا لو تحدثنا عن الآخر المخصص للعمل، أتركهما غالبا في الحقيبة اليومية التي أحملها في يدي، إن شيئا في ملازمتي الدائمة لهما يمنحني شعورا يقينيا صغيرا جدا بالطمأنينة، ومن هنا أدرك سيري مع تيار حملة الأجهزة الصغيرة المضيئة والذكية بشكل مرعب أحيانا. أحاول أن أتجنب فكرة التدوين في مفكرة الهاتف، غالبا مفكرتي الورقية الصغيرة، هي يقيني الآخر، الدائم معي، لكنني مرة شعرت بامتنان غامر وأنا أتابع شاعرا يقرأ قصيدة خلابة من مفكرة الهاتف الإلكترونية، لعطب في يده عطله عن فكرة التدوين اليدوي، امتنان جعلني أتسامح مع فكرة التدوين الإلكتروني، لكنني في حينها أيضا تجنبت تماما أن ألتقط تلك اللحظة بكاميرا الموبايل، كنت أريد أن أكون في اللحظة، أن ألتقطها بعيون الذاكرة البشرية على كل علاتها، لأن الشعور الكامل باللحظة يجب ألّا تشوبه وسائط مهما بلغ تطورها من وجهة نظري».

وتختم «يحدث أن يكون الأمر أحيانا كبوابة جحيم، إنه يطلعك على الرعب أولا بأول من خلال ما تتصل به تلك الهواتف من شبكات إنترنت حديثة ومواقع إخبارية وأخرى للتواصل.. أنت تشاهد الحروب مباشرة، تتعثر بالقتلى، تشعر بأنك من موضعك الصغير عبارة عن شاهد أخرس وملام على كل الفظاعات الكونية التي تحدث بمنتهى الدقة أمامك. لكن يحدث أيضا، أن يكون الهاتف -إذا عاد إلى أصل وجوده الأول- بمثابة عتبة سلامة، ابتسامة ودودة عابرة للقارات، صوت يعالج الفقد وصورة لوجه أثير ظننت أنك قد لا تراه أبدا مرة أخرى. وككل شيء في الحياة، نألفه بوجهيه، يكون هو، وأظننا نكابر لو ادعينا عكس ذلك».

أنتم الناس

يقول الشاعر العماني وليد الشعيلي في نص من نصوصه «لقد تحوّلت إلى هاتف مؤخرا، كل عالمي في الهاتف؛ كتب، وأغنيات، وتلفزيون، وسينما، وراديو، وكاميرا، ودفتر ملاحظات، ورسائل لا يحملها البريد. أنا سعيد بذلك، وبمجرّد كسر الهاتف أنهي الحياة». ويقول في نص آخر «لم يبق لي ضلع ولا قلب ولا رئة ولا شرايين ولا شجرة ولا نجوم ولا نهر ولا بحر ولا نوافذ ولا جدران ولا هواء. والسبب أنني قمت بتكبير وتقريب صورة ما في هاتفي».

أول هاتف امتلكه الشعيلي وهو طالب كان من نوع «نوكيا»، وكان مثل حضن دافئ في الظلام، وكانت رسائله النصية القصيرة لها ثمن مادي ووقع روحي. وبعدها كبرت الهواتف وكبرت الدنيا إلى أن أصبحت الرسالة أمرا عاديا يصلنا عبر الإيميل أو الماسنجر أو الواتساب بضغطة زرّ.

ويستمر الشعيلي في تفاصيل شهادته متذكرا لحظات الوحدة حين يفتح الاستوديو لهاتفه الحالي على صوره الشخصية لتتحوّل كل اللحظات إلى ألم يغمر الشاشة.

يقول الشعيلي «أنا مريض هاتف، لقد أصبحت حياتي هاتفا لدرجة أنه

تنتابني أحيانا رغبة في إرسال رسائل واتساب إلى أرقام الموتى في هاتفي، وكلما فكرت في الأمر، تظهر «فيسات» دائرية جديدة ليست في القائمة المعتادة، كوجه أرنب مثلا بأذن إنسان، أو ورقية تسقط منها قطرة ندى أخيرة، أو صور مشوّشة بعبارات لا أفهمها، مثل: لا أحد يستلم هراءك، أو لا تزعج الذين عادوا. وهكذا تظل رسائلي تختلط في دمي ولا تخرج».

ويضيف «لقد استطاع الهاتف أن يساعدني على العزلة المشروطة التي قننتها، بحيث تجعلني مع الناس وليس معهم، الهاتف فعلها. ولدي رغبة أن أنجز كل شيء على هاتفي: أواسي المرضى، وأعزي الناس، وأعشق، وأظهر، وأختفي، كل ذلك في هاتفي. وبذلك ربما أصبح مفيدا أكثر. لقد أسرتنا الهواتف وأحببناها، لكون أشيائنا وعوالمنا وحكاياتنا وقصص حبنا كلها بين يدينا، ومع ذلك أحيانا أقول، وليس دائما للذين بلا هواتف: ربما أنتم الناس».

في قفص الاتهام

الروائية البحرينية شيماء الوطني ترى أن الموبايل فرض نفسه كأداة ثقافية فاعلة ضمن نطاق الأدوات الثقافية الأخرى كالكتاب والصحيفة، وحتى أن بعض تلك الأدوات قد بدأت تنحسر قوتها أمام جهاز الموبايل كالصحف مثلا.

تقول «الموبايل بتطبيقاته المتنوعة وإمكانية تحميله بالعديد من الكتب والتطبيقات البرمجية على اختلاف مستوياتها أصبح أداة فاعلة يلجأ إليها أغلب الناس بمختلف مستوياتهم الثقافية والفكرية أو حتى العمرية، وهذا ما قد يحسب لصالح الموبايل من جهة. ولكن على الجهة الأخرى نستطيع وضع الموبايل في قفص الاتهام بعد أن جعل عملية الثقافة عملية سطحية ومبتسرة لا تتعدى أن يفتح المرء موبايله ويتلقى المعلومة دون أن يجهد نفسه في التأكد من صحتها أو حتى مصدرها، فقد تحول المرء بذلك إلى مجرد متلقٍ للغث والسمين مما تتناقله الرسائل أو حتى المنشورات في تطبيقات الموبايل، عدا ذلك فإن الكثير من القراء باتوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى الموبايل، حيث أصبح كعامل مساعد يسرق منهم الأوقات التي كانوا يقضونها وهم يمارسون القراءة. وهناك جانب آخر سلبي من وجهة نظري، وهو الضرر الاجتماعي والهوة التي أصبحت تتسع يوما بعد يوم بين الأصدقاء، أو حتى أفراد الأسرة الواحدة، حين يجلس الجميع في مكان واحد ويمسك كلّ بهاتفه دون أن يدور بينهم حوار مشترك قد يعزز من ترابطهم وعلاقاتهم. فهل نستطيع رفض أو استبعاد الموبايل من قاموس حياتنا؟ لا أعتقد ذلك ما لم يوجد بديل آخر لما يقدمه من تنوع، ولكن على المرء نفسه مسؤولية وضع حدود للتعامل مع هذا الجهاز وتقنين استخدامه».

تبادل التجارب والخبرات

يوضح القاص الكويتي إبراهيم الهندال بأن علاقته بالموبايل معتمدة على حجمه الصغير وسهولة التنقّل به، مشتملا على مواقع التواصل الاجتماعي وتطبيقات أخرى، لا يمكن التعامل معها باللابتوب أو أجهزة أخرى، الأمر الذي يجعل من موبايله لصيقا له، حيث يكتب من خلاله ملاحظاته وكتاباته ورسائله التي لا تمر إلا عبر الموبايل بما فيها مداخلته هذه مع مجلة الجديد.

ويعتبر الهندال الفيسبوك والإنستغرام جزءا من ذكرياته التي شكّلت علاقاته الاجتماعية الطويلة، حيث كوّن من خلال مواقع التواصل الاجتماعي الكثير من العلاقات مع كتّاب وقراء وناشرين، حتى بات يشعر بأنهم أقاربه، وحين يشاهدون بعضهم عبر هذه المواقع يتذكرون بعضهم ويتواصلون ويحددون مواعيد اللقاء.

يقول «كثيرة هي فوائد الموبايل، وعلى رأسها تبادل التجارب والخبرات، عبر تطبيق اليوتيوب، هذا المكان الرهيب الذي أكاد أجزم إنه موسوعة شاملة في كل شيء يريد أن يتعلمه الإنسان، فدائما أحن إلى أغنية لأنها تمثل ذكرى ما وأسمعها عبره».

ويضيف «في السابق، فقط من يملك آلة تصوير يلتقط أجمل اللحظات، أما الآن، فالجميع لديه موبايل وبجودة تصوير ممتازة، وبإمكانه أن يشارك الجميع بمنظر على البحر أو قطة جميلة في الشارع أو ابنه وهو يخطو أولى خطواته في الحياة. فالموبايل ازدادت أهميته عبر السنوات إلى أن أصبح جزءا مهما في حياتنا كشرب الماء، والموبايل هو أسيرنا الذي لن نفرط فيه مهما كان، ودائما نستبدله بآخر، ولا نستغني عنه أبدا. أحيانا أفكر كيف كنا سنعيش من دونه أو كيف عشنا من دونه.

ويختتم الهندال مداخلته مؤكدا على أن الأجهزة الذكية، على عكس التصور السائد عنها، فقد عززت من العلاقات الاجتماعية، وبسببه ازدادت عمقا.

كاتم الأسرار

تؤكد القاصة العمانية وفاء سالم أنها حاولت مرارا الابتعاد عن موبايلها أو تجاهله، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل. هذا هو حالها مع هاتفها الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من يومياتها بكل تفاصيلها، والذي عن طريقه أصبحت سبل التواصل مع الأهل والأصدقاء أكثر سهولة وإن باعدت بينهما المسافات.

تقول وفاء «يستطيع المرء الآن بكبسة زر أو بضغطة على لوح الموبايل أن ينهي أعماله بسهولة، يدير شركاته ومهامه. وإن كنت ممن يشجع على التقليل من استخدام الموبايل خصوصا أثناء التجمع العائلي أو غير ذلك من المناسبات التي تستدعي أن يلتزم فيها المرء ببعض السلوكيات الصحية إلا أن الموبايل أصبح حقيقة جزءا لا يتجزأ من حياتنا اليومية..».

وتضيف «سابقا كان استخدامي له فقط من أجل الاتصال أو إرسال الرسائل النصية، الآن أقرّ بأني أصبحت أكثر ارتباطا به؛ يومياتي، جدولي الصحي، نصوصي، بعض الذكريات المقروءة والمنظورة كلها في هذا المخلوق. الأمر زاد إلى أن الموبايل فتح أذهاننا على عالم آخر لم نكن نعرف عنه إلا القليل، كما أنه جعل العالم قرية واحدة، قرّب كل

زينب الباسوزي

بعيد، ومهّد الطريق لمعرفة كل غريب. لقد استطاع أن يجعلنا أسراه، حتى وإن أنكرنا الأمر».

وتتابع «سابقا كنت أحتفظ بكل الملاحظات والأرقام والأسماء في دفتر صغير. الدراسة التي كانت تستهلك منا الأوراق والكتب والتدوينات. الآن أصبحت كلها في بطن هذا الجهاز. كذلك الأمر بالنسبة إلى النصوص التي كنت أدوّنها في دفتري، الآن أصبح الموبايل أول حاضن لها.. كيف لا وهو الذي سهّل علينا حمل أجهزة اللابتوب أو دفتر الملاحظات طوال الوقت. الموبايل أصبح كاتم أسراري. إنه جزء من حياتنا وعلاقاتنا الخاصة جدا، والسرية جدا جدا. أذكر جيدا كيف أني أعود إليه بقوة بعد أن أظل بعيدة عنه لأسبوع كامل كل شهر (نحن أسراه). وفي ما يخص الكتابة، فالموبايل سهّل وصولي إلى القارئ، ووصول نصوصي إلى دور النشر، وحسابات التواصل التي عن طريق الموبايل استطاعت أن توصلنا إلى أكبر شريحة في العالم».

لعنة الموبايل

ترى الشاعرة البحرينية جنان العود أن اختراع الموبايل لعنة أكثر من كونها نعمة، وتكره فيه سهولته العالية، بحيث إنه جعل كل شيء بسيطا، متاحا، وخفيفا. ومن خلاله صار الناس منفتحين على الكثير من الترهات التي لا تسمن ولا تغني، والتي لا أساس لها من الصحة. تقول «عبر شاشة الموبايل الصغيرة التي تنير لك متى ما أردت بمسحه خفيفة من طرف إصبعك ستكون في كل مكان من قريب أو من بعيد. نظرة واحدة لشاشة موبايلك في الصباح كفيلة بأن تسبب لك الغثيان. نظرة واحدة ستخطفها لترى الخبير والمثقف والناشط وأخصائي التغذية والعالم الروحاني والرياضي والفاشينستا وغيرهم.. ما أسهل ذلك! ناهيك عن النفسيات المتعددة فهنالك النرجسي والمتيم والمغرق في الكآبة والمحب للقهوة وغيرهم من الأصناف المملة. وكثرة النظر إلى تلك النماذج قد تسبب للمرء الانزلاق في التفاهة بعد فترة من الزمن بشكل لا واع».

وتضيف «لا ننكر وجود إيجابيات كثيرة لاستخدام الموبايل، كالتواصل السريع واختصار المسافة. لكن، شخصيا لا أحبذ استخدام الموبايل طوال الوقت ولا سيما أثناء الجلوس مع العائلة، أو في وقت القراءة والكتابة، أحرص أن أضعه في مكان بعيد عني حتى أمنع نفسي تماما من النظر إليه. أحمله في حقيبتي أينما ذهبت لدواعي الاتصال. وقد أتفقد بعض الرسائل وأردّ عليها سريعا، وآخذ جولة خاطفة في الفيسبوك والإنستغرام من باب معرفة الجديد من الأخبار بشكل عام، أو لنشر بوست بين حين وآخر. لكن لا يصل الأمر عندي إلى حد الهوس أو السيطرة».

تقف العود في استخدامها الشخصي لموبايلها ضد تصوير كل شاردة وواردة في الحياة وترى في ذلك خنقا للحظات من عنقها، فمن المهم جدا -بحسب رأيها- أن نعيش كل لحظة كما هي ونستمتع بها. تقول «من المهم أن يحصن المرء نفسه من كل هذا الهراء فلا يغدو أسيرا للموبايل، وتلك فكرة مضحكه على العموم. بإرادته يستطيع أن يحافظ على توازنه وصفاء ذهنه وتركيزه عبر تقنين استخدام الموبايل قدر الإمكان. يظل

التواصل الشخصي والتخاطب وجها لوجه بعين مفتوحة أقوى وأصدق من عبارات تكتب على عجل متبوعة بالإيموجيز التي يتداولها الجميع، ولا تمتلك أي خصوصية أو عواطف واضحة. ماذا سيحدث لو أن هذه الأعناق المنكبة على الموبايل ارتفعت قليلا لمشاهدة فيلم جيد، أو لقراءة كتاب مهم؟ أو ربما لتنفس هواء نقي أثناء هرولة في الممشى؟!».

علاقة وديّة

تربط القاصة اليمنية انتصار السري بهاتفها المحمول علاقة ودّ، وبحسب وجهة نظرها فإن العالم في العصر التكنولوجي والتقدم العلمي صار كقرية صغيرة تحملها داخل جيبك أو حقيبتك، وهذا هو ما يمثل لها هاتفها المحمول الذي صار جزءا من أساسيات الحياة. تقول «في البيت، في العمل، كل شيء صار يعتمد عليه، لم يعد فقط مجرد اتصال، بضغطة زرّ يأتي صوت من نتصل به عبر الطرف الآخر، بل صارت بداخله مكتبتي الإلكترونية التي ترافقني في كل مكان أذهب إليه، وفيه مفكرتي، فما عدت أفكر في حمل قلم لتدوين أي فكرة تحاصرني أو أبحث عن ورقة بيضاء لتدوين تلك الفكرة بين بياضها، أسجل كل مواعيدي فيه، وكذلك نصوصي الأدبية. منه أتصفح صفحتي، وصفحات زملائي حتى جعلني أستغني عن الكمبيوتر. فبداخله أكبر ذاكرة لتخزين صوري التي أحتاجها في أي وقت، وكذلك مكتبتي السمعية والبصرية من أغان وأفلام فأقضي أطول وقت معه».

وتضيف «في هذا الزمن لا أظن أنه من الممكن الاستغناء عن الهاتف المحمول، وأجزم أن هناك أشخاصا صاروا مدمنين على استخدمه، وخاصة عند تحميلهم برنامج الواتساب، والبرامج المختلفة التي يحتويها. قد يكون برنامج الواتساب يسهل لنا عملية الاتصال والتواصل، لكنه يورطك بتدفق الرسائل من المجموعات المختلفة التي يقحمك بداخلها أشخاص دون رغبة منك، فتنهال عليك رسائل قد تستفيد منها وقد لا تستفيد، وأغلبها تشغل وقتك فقط. ومن عيوبه أن البعض يحمل في جوفه الألعاب الإلكترونية التي تدمر عقول الأطفال، وتنهب أوقاتهم، وتضيعها دون أي فائدة. بصدق أقول لقد صار الهاتف داخل البيت يفكك الأسرة، ويجعل كل شخص في عالمه الخاص به؛ لا تفارق عيناه وتركيزه شاشة الهاتف، بل إنها تسرق نظره وصحته، ومع ذلك لا نقدر أن نستغني عنه وعن خدماته».

تحطيم حاجز الأبوية

الشاعر السعودي قاسم المقبل يقدّم مداخلته بصور شعرية متخذا من عوالم الموبايل منطقة سحرية لآفاق هائلة من الأسئلة الخاصة بكينونته. يقول «يرقد بقربك، يومض فينهمر على الروح شعاع البهجة، قد تستعيض عن المرآة به، ولكنه في الجهة المقابلة قد يكون حضنك الدافئ للعزلة، وملاذك الأثير رغم صلابته وصغر حجمه. فما الذي يشدّك إليه؟!».

ويتابع «كثيرا ما تنقلنا في معارض الكتب على امتداد الخارطة باحثين عن بعض العناوين الأثيرة لقلوبنا إلا أننا نصطدم بجدارين خانقين: جدار الرقابة والمنع للتابو المحرم (الدين، الجنس، والسياسة)، أو بالجدار الاقتصادي بما يمثله من أسعار نارية للكثير من الكتب. فما عساك أن تفعل -رغم محبتك لتحسس الكتاب وشمّ عبقه وشهوة احتضانك له- أنت حتما ستفكر في الخيار الأسهل، وسوف تنقر النافذة المضيئة التى تفتح لك العالم هاربا من عيون الرقيب وقيود الاقتصاد».

وفي ذات الشأن يرى المقبل أن الأجهزة اللوحية هيأت الأرضية الخصبة لتحطيم حاجز الأبوية الثقافية التي كانت تستيّد المشهد الثقافي العربي. يقول «كثيرا ما كان يقع الكاتب المبتدئ أسيرا لسلطة المثقف الأب، فهو الذي يجيز له الدخول إلى هذا النادي النخبوي، هذا بطبيعة الحال بعيدا عن مدى جاهزية المنتِج ثقافيا وإبداعيا من عدمها، فهذه الفسحة من الضوء تعني الفرصة الكبيرة لنشر ما يكتب دون أي حاجز أو كلفة كبيرة ما يحتاج إليه هو الاتصال بالإنترنت، فها هو ذا السيل الجارف من النصوص بمختلف مشاربها ومآربها يأخذك، وقد يستدعي انتباهك أو لا، بيد أنه موجود، مما يعني الانعتاق الثقافي بالنسبة إلى المنتج وهدم الحواجز (ورقية أو غيرها) بينه وبين المتلقي، فكم تمنينا أن نلتقي أو نكون شاهدين على محاضر ما أو ندوة أو أمسية أدبية، ولكننا انكفأنا على حسرتنا وعلكنا مرارة التمني، كان ذلك بطبيعة الحال قبل دخولنا إلى عالم الأجهزة الذكية والإنترنت».

عضو إضافي

من جهتها ترى الشاعرة السعودية روان طلال أن «الأمر يبدو وكأننا استيقظنا يوما بعضو إضافي، أو نافذة مفتوحة باتجاه العالم.. نافذة مفتوحة على مصراعيها. وكأي بداية، محاولات عديدة لخلق الحدود ورفض الاندفاع نحو ما هو أكثر، وبصرامة المبتدئ: فلتكن فسحة لا أكثر. ثم حدث كل ذلك فجأة، الأصدقاء الأكثر شبها بنا، محادثات تدور حول أشياء عدة، المسافات تطوى، والشعور القديم بالوحشة ينطفئ. كانت هذه الشرارة الأولى وبتحفظ سرعان ما بدأ يتلاشى، عبرنا إلى ما هو أكثر. أيام عديدة تلت ذلك، لم يعد مجرد شعور بالاعتياد، الأمر أشبه ما يكون باحتياج غير مفهوم.. ولكن كيف حدث هذا؟ تسرّب عبر صفوف الدراسة والعشرات من الأسئلة الطارئة والكلمات التي تبحث عن معنى، فالكتب الممنوعة والتي ببساطة يمكن حملها في الجيب، ومن ثم شبكات التواصل الاجتماعي ومشاركة كل ما هو يومي. قصص حب طارئة، أصدقاء في دول عدة، ماراثون كتابة لا ينتهِ، واحتجاجات ترمي كل ما يمثل قيدا. العشرات من التطبيقات، بين تطبيق يطوي المسافة ويقرّب البعيد، إلى آخر ينبه بكل ما هو جديد في الشارع والأدب والعلم، مرورا بما يعمل كداعم للذاكرة البشرية التي قد تخونها اللحظة. المئات من الصور تحتفظ بمكانها في الجيب، فيما الخرائط تنير الطريق نحو البيت، والموسيقى تخلق مدى أرحب. وبينما الحياة تبدو ما قبله شبه مستحيلة، فوجوده الآن جزء لا يتجزأ من روتين الحياة، انصهر العالم المحمول في الجيب مع أيامنا البسيطة المعيشة».

لم نعد نخاف العزلة

مياسة السويدي

الموبايل، ذلك الجهاز الذي يكاد يلتصق بأيدينا من فرط تعلقنا به، لا تخلو منه في هذا الزمان يد رجل أو امرأة أو حتى طفل صغير للأسف الشديد، الهاتف المحمول، النقال، الخلوي، الجوال أو المتحرك كترجمة حرفية لكلمة الموبايل، هذه الأجهزة التي أصبحت أكثر من مجرد وسيلة اتصال لا يمكن تجاهلها أو رفض وجودها الذي أصبح يهيمن على أوقاتنا جميعاً.

شخصياً أجد نفسي متعلقة بهذا الجهاز الصغير الذي يفتح لي أبواب العالم دون أن أتحرك من مكاني، وجعلني أستغني عن التلفزيون وهاتف المنزل وحتى الحاسب الآلي في بعض الأحيان، أخذ مكان المنبه والساعة والحاسبة والتقويم والمفكرة الصغيرة التي نحتفظ بها لتدوين ما يهمنا، استغنينا عن الراديو والكاميرا والألبومات التي تجمع صورنا للاحتفاظ بالذكريات واللحظات المهمة، واكتفينا بوجود ملف للصور الإلكترونية المكررة.

لم يعد الموبايل وسيلة اتصال عادية لمكالمات صوتية أعتقد أنها شارفت على الانقراض، إنما أبواب تفتح مصراعيها لتضع العالم كله بين يديك، كل تلك المواقع بمختلف توجهاتها، الصور، الوثائق، والمحاضرات، وحتى الأماكن التي تستطيع الوصول إليها بكل يسر، ما عليك سوى أن تختار وجهتك.

من وجهة نظري الخاصة أن التعامل مع الموبايل يحتاج إلى وعي، إلى انتباه للوقت الذي يتسرب من عمرنا والساعات الطويلة التي تمر دون أن نشعر بها ونحن مسحورون به، الانشغال بمواقع التواصل الاجتماعي والسناب شات، والألعاب التي ينغمس فيها البعض لتصبح إدمانا حقيقيا من نوع آخر، كحال أي تقنية لها سلبيات وإيجابيات، الوعي هو الأهم فما نحن إلا حاصل اختياراتنا، هل نقضي الوقت في مشاهدة التفاهات أو متابعة ما يثري ويساهم في زيادة ثقافتنا؟

كتب محمد يوسف خضر «ثمة ثقافة إنسانية تشمل البشر جميعا، وثقافة محلية تميز مدينة عن أخرى، ويخلق ازدهار الرسائل الإلكترونية أنماطا ثقافية جديدة لنسمها (ثقافة الموبايل)». هذا الموبايل جعل الإنسان مكتفياً بنفسه وصحبة هذا الجهاز الصغير، فكلما دخلت إلي أحد المجالس أو قاعات الانتظار في المطارات والمستشفيات تجد الجميع منكسا رأسه وهو مأخوذ بتلك الشاشة الصغيرة، حتى كبار السن الذين ابتلوا بالموبايل أصبحوا يتناقلون أخبار الواتساب وخرافاته وحرمنا من حكاياتهم عن الزمن الجميل.

وكما أن هذا الموبايل يفتح أبواب كل شيء، نافعا كان أو ضارا، علينا أن نحسن الاختيار ونتحمل مسؤلية اختياراتنا جيدا، هناك بعض التطبيقات التي لا أجد غنى عنها مثل الترجمة والموسوعات الثقافية وتطبيق يوتيوب الذي يجعلك تحضر محاضرة ثقافية أو تستمع لدرس يهمك أو تلتقي بكاتب أو فنان تتابعه في وقتك الخاص، وكل الكتب الإلكترونية التي تصلك بضغطة زر، وغيره من التطبيقات التي تحتوي على قائمة لا نهائية من الكتب المسموعة.

لم نعد نخاف العزلة وهذا الجهاز معنا، فأنت على بعد شاشة من الوصول إلى حيث تريد صفحة كتاب أو لوحة فنان، أو قصيدة تقرأها أو تسمعها بصوت الشاعر ربما، ولم تعد بحاجة إلى انتظار إصدار كتاب معين أو مجلة ثقافية أو تتكبد عناء البحث في المكتبة أو الموسوعات الثقافية، فالخيارات الثقافية أصبحت متاحة أكثر والاجتماع بمن يشاركك الاهتمام سهل جدا في مجموعات مختصة تلتقي بها على الأون لاين، في الوقت الذي يناسبك وتختاره أنت.

هذا الجهاز الذي أصبح حقاً بديهياً لكل إنسان، لا سبيل لرفضه أو استنكاره، شغل أوقاتنا عن الكثير من الاهتمامات ومنها القراءة، فنظرة إليه قد تأخذ وقتك ما يزيد عن الساعة دون أن تشعر، وكانت تلك الأوقات مخصصة للقراءة والاطلاع على الكتب، ولكن هذا العذر غير مقنع عند الكاتب الفرنسي دانيال بناك حيث قال «لم يكن لدي الوقت للقراءة، لكن أبداً لم يستطع شيء ما أن يمنعني من إنهاء رواية أحببتها».

لا نستطيع أن نلقي اللوم على هذا الجهاز البريء من تهمة الاستيلاء على أوقاتنا واهتمامنا، فتطبيقاته المفيدة أكثر من أن يتم حصرها، هو توجهنا الشخصي وأسلوب استخدامنا، وجل ما أتمنى أن يتم إبعاده عن الأطفال تحديداً لما ثبت علمياً من مضار استخدامه لمن هم دون سن معينة، كما أن الهاتف المحمول حرمهم متعة اللعب والخيال والانطلاق، وجعلهم فقط متفرجين ومسحورين بسحره.

نظرة سريعة إلى محتوى هذا الجهاز وأنواع التطبيقات التي يحتويها تنبئك بشخصية حامله، من خلال الصادر والوارد في الرسائل، من خلال المواقع التي تدخلها باستمرار ومَن تتابع، وكما قيل «قل لي من تصاحب، أخبرك من أنت»، وهذا الجهاز بات يصاحبنا أكثر من أصحابنا أنفسهم.

فنانة تشكيلية من البحرين

فليصّنفني المستخدمون فايروساً

هدى الدغفق

كم يؤرقني مشهد جيل من الصغار أو الشباب تلاحقه البدانة باكراً، وهو رابض يتفرّس في شاشة جواله، لا يحس بطعم ما حوله، حيث القهوة تشرب نكهتها والكرسي ينطوي على نفسه، والعبارات تتأوه لأغلاطها الفاحشة التي تفوق في بدائيتها بدائية اللغة وهيروغلوفيتها. شباب تكتبه التقنية، ولا يعرف كيف وبأية صورة أو معنى، كتبته لغة سرطانية تتبرأ من دمها اللغة الفصيحة.

أتخيل في هذه اللحظة الموجعة لي كيف بدت حيرة إحدى قريباتي حين

حدث عطل في جوالها واضطرت إلى أن تتصلب لساعات في محل لإصلاح الجوالات في انتظار حبيبها (جوالها)، وليتها أضفت حنانها ذاك وشوقها على صغيرها الذي ظل ينتظر إطلالتها في البيت ونام دون حضن أو قبلة تدعوه إلى طمأنينة أحلامه البيضاء.

هذه المشاهد من تحلّق الجماعة حول كاميرا جوالاتهم لتصوير لقطة مصطنعة في الغالب، وتلك الفتاة المأخوذة بتقليد لقطات نجوم سناب شات أو غيرهم وهي تزم شفتيها في لقطة سيلفي لتبدو فيها أشبه بملامح ثعلب، هذه المحاولة الزائفة للإغراء الفاشل تدك شهيتي في النظر إلى جوالي وتجعلني أنفر منه.

ومع هذا فأنا أتمهل كثيراً في علاقتي الغامضة للآخرين الواضحة لي تماما بالتقنية وأنا أتعامل معها بمحبة، لكنها أقل كثيراً من محبتي لحواسي ومكاني وزماني، لذلك فأنا لا أكتفي بالقليل من الأجنحة، وجنوني الواقعي أكبر بكثير من فضاء افتراضي ينبعث من شاشة يتيمة.

منذ عرفني الجوال وتعرّفت إليه وأنا أشدّ توتراً وأكثر انزعاجاً، فقد شكّل لي نمطاً من الرقابة والتتبع والالتزام والعتب واللوم، كما أنه ظل ينقل لي الأخبار التي تقض علي عزلتي باستمرار. ورغم مرور أكثر من ثلاثة عقود على رفقتنا لم أتواءم معه، وكلما وجدت فرصة لتجاهله وفقده لجأت إليها بغبطة كبيرة.

بدا الجوال مزعجا في مرحلة الواتساب أكثر مما هو مزعج في ما سبق من مراحل، حيث استلب الزمن مني وأرهق ذهني وحشرعيني في شاشة حروفه الضيقة، وظلت تفاجئني كثرة المجموعات فيه، تلك التي تضيفني دون أن تراجعني: هل أقبل أم لا؟ وهو مازادني حنقاً على التقنية الذكيّة والجوال بشكل خاص.

يضجرني تكاثر نغمات الرسائل وتدافع الأسماء التي علي أن أردّ على قائمتها، وأواصل الدردشة معها يوميّا، وهكذا ينتهي ثلث اليوم أو أكثره دون أن أنجز كتابة بسبب الواتساب الذي كثيراً ما طرح حوارات متلاحقة لا تغني، يستعرض كتابها قدراتهم الشكلية على سرعة الكتابة في الفراغ فأضحت قراءتهم نمطاً من الفراغ كذلك.

لقد جعل الواتساب بيني وبين من لا أجيبه فجوة. وأحرجني، إذْ تعرّضت بسببه عدة مرات لمصيدة أطراف عديدة، وتورّطت في الدخول مع شخوص لا يجمع بيني وبينهم شيء، وأوقعني في علاقات غريبة، فتمضي إلى أيّ مكان فتتفقّده وأنت تتلفّت مثل الأبله أو تتحدّث مع أحدهم وتجهل ما كنت تريد أن تفعل حينها. كلما جالست أحداً وجدته مشتتاً يبخسني حقّي في الانتباه والإصغاء، متابعاً شاشته الصغيرة، محدّقاً في عينها أكثر ممّا يحدق في محبتي إياه، مدّعياً أنه يستمع إلي، لتنخدش مرايا صحابي في روحي.

سُرقت من الحياة حشمتها ووقارها ومكانتها، شُوّهت جمالياتها بإهمالها أو بتأطيرها في تمثال صورة أو لقطة عابرة جداً إلى اللاشيء.

كلٌّ راكض نحو اللقطة، كلٌّ يظن أنه مصور بارع، كلٌّ متحفّز إلى إثبات وجوده في جهة ما، يسجّل حضوراً فحسب من أجل الآخرين، تنافس غير شريف، واعتياد على ممارسة سلوك ليس ضرورياً على حساب ما هو ضروري.

صرتُ أتعمّد أن أترك الجوال ليومين أو أكثر على الوضع الصامت أو أكاد أغلقه إلى أن تنتهي بطاريته وينطفئ. فالجوال في نظري معتقل كبير، يوماً بعد يوم يكثر أسراه المأخوذون به، ولا أرتضي أن أقع رهينة إلا لإلهامي، لأنه يحرّرني في صورة تروقني.

مع الجوال أرفض شيئاً وأقبل شيئاً؛ فسماعتي الصغيرة -مثلا- تشيع في كياني كلّ صوت ونغم يعزلني عن ضوضاء الخارج، فالعالم يبدو أذني، سماعتي.

قد أغرس كثيراً من أيقونات الفرح على وجنتيّ يومياً حتى تشتعل في الأفق، وقبل أن ألتفّ بحضني أطفئ شاشة ضميري وأنام على أيقونة ابتسامة واقعيّة تطل من خلال شاشة محمولي أبتسم إليها في حذر، وأبعدها عن قلبي لأنام على صدر أحلامي التي لا يشاركني فيها عالم افتراضي.

سأعترف بأنّني لا أشكو انفصالاً بين عناصر روحي، ولذلك فأنا أحب نفسي أكثر من التقنية، وأتواءم مع أحاسيسي دون أن تخدشني شاشة جوالي الضيقة المتلاحقة.

وفي حضرة الشاشات الذكية والأخرى التي بنصف ذكاء وتنافس بعضهم في اقتناء أحدث نتاج من الأجهزة أفضل أن أسمع أصوات الأطباق والفناجين والموسيقى الرديئة على أن أضيع في كم من الروابط الإلكترونية التي لا أعرف فيها أرضي من سمائي.

هذا التحول بين الآوت لوك والهوتميل والياهو والجي ميل، هذا التغيير من بريد إلى آخر، هذا الشغف بالتجريب والاستكشاف أو ربما المغامرة والتحدي، هذا العبث اللذيذ لم يفارقني منذ الصغر، هذه المتعة باللعب، مشاكستي أي شيء أقحمتني دروباً من التيه وأفقدتني الكثير من معلومات الوصول إليّ، لكنني تغلبت عليها فيما بعد.

قد أقاطع التقنية التي تحرمني من النظر دون اكتفاء إلى وجه أمي وتحسس تجاعيد أبي الضاحكة في شوارع عمري، وهو لا يعرف عن التقنية إلا غرابة اصطلاحاتها، ويختلق لأسمائها أسماء أخرى، فبورك أبي الذي يعينني على السخرية بما يمكنه أن يعتقل أحاسيسي، ويئد حواسي. ففي النظر إلى شغب طفل يتمرجح في خطوه فتنة تفوق آلاف المرات تعثري في زجاج محمول يسقط على أرضي ويعذبني، إذ يقرر أن يعاقبني بشذراته المتناثرة فيتحطم ويحطم كل ما في رأسي من معلومات نقلتها إليه، وأعيش وحيدة دون ذاكرة، بمجرد أنني استغنيت عن ذاكرتي وأودعتها في جوالي. سأهجو الواتساب وتويتر والفيسبوك واليوتيوب والتانغو والسكايب والتلغرام والتوكري واللاين والسناب شات وإنستغرام لأنها ملغّمة بالمفاجآت المجهولة. وهكذا تبدو علاقتي المتناقضة بجوالي وأحبها.

قد أفطر بصحبة فراشاتي على فيسبوك وعلى رشفات تغريدة، نتناول قرص البيض، نشرب الشاي هناك، حيث تعشق أيقوناتي فيتامين (D) وتشعشع في فأبدو شمساً تغرد بنورها في سماء تويتر.

يغريني حائطي بالكتابة أكثر مما يغريني ملف (word) أحياناً، فالتفاعل الشبكي يشجعني على الشغب والخربشة المتواصلة. ويحضر محمولي معي فأفتح شاشته لأكتب فكرة أو أسطر جملة التقطها في مناسبة عائلية وأتركه حتى أشاغب فكرتي فيما بعد وأنساها.

هذا ما يدعوني لأؤرّخ من بعض أحداثي الطارئة عمليّاتٍ غير مشروعة في مؤشرات البحث ليصنّفها المستخدمون كفايروس، فلن أسابق لوحة مفاتيح تتشارك فيها الحروف مع الأرقام لتزهق أناملي، وتزف بي إلى حتفي بين لغات تشابكت عليّ في كلمات السر التي لا أتذكرها ولا أنصاع إلى فرضياتها.

سأهجر أيقوناتي وكاميرا جوالي ومعرض الصور وواتساب والمقاطع الصوتية وكل الوسائط التي تبادلتها على طرقات حياتي الضيقة متى اقتربت شجرة مني ومدّ غصنها يده إلي، فتأملي وريقات ذاك الغصن يجرفني إلى بحرها الأخضر أكثر ممّا تخونني لقطة إلكترونية كلما أردتُ أن ألسها فرّت مني وسببت لدمع عيني الكثير من الحزن الطفولي.

حسنة الظن أنا مثل الأيقونات الافتراضية، لذلك فأنا أختار أن أعيش أميّتي بالكثير من الاقتراب إلى مكاني الأليف، والقفز في مسرح حواسي الحي، وأتمدد بصحبة كتابي، أرتشف قهوتي، وأرحّق نكهة الورق، وأعتلي عرش شاعريتي، فأستمتع بالمشهد الخيالي الذي أؤلفه بخصوصيتي وحسب.

شاعرة من السعودية

زينب الماجوزي

فتيات يتفحصن صور السيلفي في الموبايل

موبايل بورخيس

مثقفون مغاربة يتحدثون عن فتنة الموبايل

مخلص الصغير

هل نتحكم في الموبايل حين نحمله بين أيدينا، وحين نضغط على أزراره، ونستعمله، أم أنه هو الذي يستعملنا ويتحكم فينا ويولينا الوجهة التي يريد؟ هل نحن الذين نحمل الموبايل أم أنه هو الذي يحملنا على القيام بسلوكيات وولوج فضاءات ننقاد إليها انقيادا؟ ولأنه يسمى هاتفا ذكيا، ألا يجعلنا نستعين به ليستخدم ذكاءه بدلا منا، ألا يستدعي منا ذكاء في التعامل معه؟ وماذا عن «جيل الموبايل» القادم، وهل سيصبح جيلا بلا ذاكرة، ينوب عنه الهاتف الذكي في استحضار المعلومات والبحث عنها، مثلما ينوب عنه في استخدام الذكاء والمهارات. تلك بعض الأسئلة التي أثارها مثقفون مغاربة استطلعت «الجديد» آراءهم حول ثقافة الموبايل، وآثارها وتأثيرها على ذاكرتنا، وعلى سلوكياتنا الاجتماعية وتوجهاتنا وخياراتنا الثقافية.

اتفق عدد من المثقفين والمبدعين المغاربة على أن الموبايل غيّر من حياتهم، منهم من يرى هذا التغيير إيجابيا ومنهم من يراه سلبيا، ومنهم من يرى فيه الأمرين معا.

هكذا، يرى الناقد والجامعي محمد آيت لعميم أن «الموبايل، بصفة عامة، غيّر وجه الحياة». وأنه لمعرفة هذا التغيير «لا بد من المقايسة بين ما قبل الموبايل وما بعده. فقد تغيرت البلاد ومن عليها بفعل صندوق العجائب هذا، وتغير مفهوم الزمان والمكان حيث انعدمت المسافة، وأضحى الافتراضي سيد المقام. وأصبح علامة فارقة في ما كان يسمى علاقة. توارى الواقعي لصالح الشبحي. وأصبحت العزلة بيت الإنسان وشرنقته، يعيش المرء في موبايله يحمل أسراره وأخباره وعوالمه». أما شريفة الدحروش، الباحثة المسرحية والمترجمة المقيمة ما بين المغرب وإسبانيا، فجمعت بين إيجابيات وسلبيات الموبايل، فرأت أن «الهواتف الذكية قرّبت البعيد وأبعدت القريب، وفرضت أحيانا سلوكيات وأخلاقيات جد سلبية للأسف». بينما لخص الجامعي والسيميائي المغربي نزار التجديتي تلك السلبيات في صورة مفارقة، على مستوى العلاقات الاجتماعية، «فزميلك في العمل يرسل لك طلب صداقة في الفيسبوك وحين يلقاك في شوارع المدينة لا يسلم عليك». كما يذهب محدثنا إلى أن «الموبايل ليس بوابة ثقافية، بل وسيط تقني يغير طبيعة الثقافة عند الإنسان من محتوى وجودي إلى زخرف شكلي». أما الشاعر، المغربي سامح درويش، فقد بدا متفائلا أكثر، إذ يرى أن «أهم شيء في الموبايل هو تعميم المعرفة في حدود ما، وإتاحة النشر والتعبير بدون قيود تقريبا، مع تجاوز الحدود الجغرافية والعوائق السياسية في التواصل بين الشعوب...». وهذا بخلاف الفنان التشكيلي بوعبيد بوزيد، الذي يقر بأن سلبيات الموبايل أكثر من إيجابياته، فهو يمكنه أن «يؤثر سلبا على ذوي المعارف المتواضعة لعدم غربلة معلوماته حتى نتبين الحقيقي من الزائف». مثلما «أثر سلبا على الشباب إذ اقتطع منهم الكثير من وقتهم الثمين، وأفقدهم حسن الكتابة والتعبير أمام ضحالة المعارف التي تقدم لهم»، يضيف الفنان التشكيلي.

لكننا حين نعود إلى الشعراء المغاربة نجدهم متفائلين دائما بإزاء الموبايل. وها هي الشاعرة دنيا الشدادي ترى أن «التأثير كان جليا وإيجابيا على سلوكياتنا الاجتماعية، فقد ربط الناس بشبكة علاقات قوية، وأحيا الصداقات القديمة، ومنح فرصا أكبر لاختيار الأصدقاء الجدد». وارتباطا بالمجال الثقافي، ترى الشاعرة أنه «بفعل الاحتكاك بمثقفين متنوعي المشارب والتخصصات تنوع رصيدنا الثقافي واغتنى، بل أصبحت المعارف تأتينا أكثر مما نسعى نحن إليها».

أثر الموبايل

لعل الموبايلات، أو الهواتف الذكية، في حاجة إلى معاملة ذكية، وإلى نوع من التعاطي البراغماتي معها. وهذا ما يحرص عليه المثقفون في تعاملهم «الواعي» مع الموبايل. وعن أثر الموبايل وتعامل المثقفين المغاربة معه، يؤكد هؤلاء وأولئك أنه كان تعاملا مفيدا، كما تقول شريفة الدحروش: «كان التأثير إيجابيا مئة بالمئة لأن المعلومة أصبحت في متناول اليد، خصوصا أن أول تطبيق قمت بتنزيله كان من نوع play books وكان خاصا بالكتب ومواقع بيعها عالميا». وكذلك الحال بالنسبة إلى سامح درويش، أكثر المتفائلين الذين يرون أن الموبايل «يتيح لك تلبية حاجياتك الآنية من المعارف والمعلومات فور ظهور الرغبة». لكن صاحبنا سرعان ما يؤكد على جانب سلبي يتمثل في «التأثير النسبي على القراءة الورقية». عدا ذلك، يواصل درويش بناء علاقة مع الموبايل ملؤها التفاؤل: «أنظر إلى استعمال هذه الأداة بعين إيجابية مادام لي عقل. نعم إن هذا الاستخدام بشكل يومي يحدث تغييرات على سلوكياتنا وهو أمر طبيعي، فمثلا بدل أن أبحث عن المعلومة عند الناس بشكل مباشر علي أن أبحث عنها من خلال هذه الوسائل التي تتيح ذلك بشكل أفضل».

غرافيك «الجديد»

كما تنتصر إيجابيات استخدام الموبايل على سلبياته، عند خديجة الأبيض، وهي طالبة فنانة في سلك الماجستير بمدينة الدار البيضاء، حين تذهب إلى أن «استخدام الموبايل أثر على ثقافتي إيجابا بعض الشيء». بينما يعود الدكتور نزار التجديتي ليؤكد لنا أن ثمة فرقا بين أن نستخدم الموبايل أو أن يستخدمنا! ومن جهته، ينبهنا الطبيب والكاتب عبدالإله المرياح إلى أن الناس «أصبحوا مدمنين كثيرا على الموبايل في مسائل بسيطة وربما حتى تافهة». ليتحول هاهنا من وسيلة إلى غاية، ومن حاجة إلى إدمان، بلغة الطبيب. لكن الموبايل بالنسبة إلى باحث وفنان تشكيلي شاب، مثل مالك الصوردو، الذي يتابع دراسته في غرناطة، قد يفتح آفاقا على المستقبل. وهو يعتقد أنه «في ظل الانهيار الثقافي والمعرفي الحالي، قد تشكل معلومة على الموبايل نافذة أمل على المستقبل».

جيل الموبايل

إذا كان المثقفون أنفسهم يتعاملون بحذر وتوجس مع الموبايل فإنهم يجمعون على واجب الاحتياط إزاء علاقة الناشئة به. فلا يترددون في التحذير من أثر الموبايل على الأطفال. ذلك ما لخصته الدحروش وهي تردد: «إنني أخاف وأهلع أحيانا عند رؤية رضيع يبكي بحرقة، وما أن يضعوا أمامه شاشة الهاتف حتى يسكت ويحملق فيها بكل تركيز». على أساس أن المستعمل اليافع هو «في حاجة دائمة إلى توجيهات، وإلى تقديم المسألة كوسيلة للاتصال والتواصل وليس كغاية، وأن يقنن الاستعمال، لأن استعمال الهواتف الذكية سيف ذو حدين يبدأ بكلمة 'ألو'، ولا يعلم أحد إلى أين يمكن أن يصل صدى الكلمة». من هنا، «وجب توجيه الناشئة من أجل استعمال أمثل للموبايل»، حسب رأي المرياح. ومثلما يؤكد الأخصائي والجامعي على ضرورة توجيه الناشئة في علاقتهم مع الموبايل، تؤكد طالبة هذا الأمر، وهي عفاف قزابر، معتقدة أن «الناشئة تظل دائما في حاجة إلى مقدمات توجيهية قبل استعمال الموبايل، وذلك لتفادي إدمانه، وتفادي الكثير من المشاكل الناتجة عنه». وقبلها، تؤكد الشاعرة الشدادي على أن «تعليم الناشئة وتحصينها بمنظومة قيم تقوم على النقد والسؤال والحرية كفيل بمنع انجرافها نحو السيء والتافه في هذه الوسائط التواصلية». على أن «الرهان يجب أن يكون على نشء متعلم منفتح يتقبل التكنولوجيا ولا يرفضها».

الموبايل بتشبيه آيت لعميم هو «بمثابة شفرة حادة في يد طفل سيؤذي بها نفسه لا محالة إن هو لم يحذر من خطورة ما في يده». لأجل ذلك، كان «لا بد من تنبيه الغافلين ولا بد من إرشاد السالكين دروب هذه العوالم المتشعبة الحافلة بالمخاطر والمطبات».

وبينما شرع جل المثقفين المغاربة في استخدام الموبايل مع بداية العقد الثاني من الألفية الحالية، بعد ظهور الهواتف الذكية، على غرار كل المجتمعات الإنسانية، فإن الأجيال المقبلة، بداية من أطفال اليوم،

ثلاث شهادات

المنعطف الأخطر

التربية على التكنولوجيا

عبدالوهاب الرامي

الهواتف الذكية هي كمبيوترات مصغرة محمولة غيّرت حياة الإنسان بالكامل، عبر تمكينه من اختراق حاجزي الزمن والمكان، وذلك بكلفة مادية ومعنوية تكاد تقترب من الصفر. كما فتحت هذه الأجهزة الواقع على الافتراضي كامتداد للعالم الفيزيائي، لا كنقيض له. ويمنح الهاتف الذكي مستعمله الإحساس بـ «الحضور الكلي» في عالم اليوم الذي يلامسه الشخص أكثر عبر بوابة الويب. وقد ساهم هذا الأمر في فرض ملامح إنسية جديدة، ينفق وفقها مستعملو الهواتف الذكية قسطا وافرا من حيواتهم في التواصل.

لم يعد التواصل عبر هذه الأجهزة التكنولوجية الجديدة يستدعي مهارات مسبقة، والتزامات معنوية وأخلاقية كشرط لا غنى عنه لصناعة المعنى: فالمجهولية، وشرعنة كشف الحميميات، وإشهار الذات، والاستعمال المتعدد الأوجه للهواتف الذكية من الأمور التي جعلت الاتصال أكثر دمقرطة، إذ مكّن المواطن من المشاركة الافتراضية في كل القضايا، وهو ما قد يربك حسابات الكثير من الأطراف التي كانت، من مواقعها المختلفة، توجه الرأي العام نحو الأهداف التي ترسهما.بحيث بدأت فكرة الاتصال النازل ذي الطبيعة السلطوية تتآكل اليوم بقوة. لكن بالمقابل، عمت الفوضى والنشاز الناتجين عن تداخل الأصوات.

شرط المعرفة

هناك مقولة فحواها أن «وسائل الاتصال ليست إلا ما نفعله بها». ولهذا، يجب التربية عليها منذ الصغر، إذ يمكن لهذه الوسائل أن تكون كوة يأتينا منها لفح الجحيم. فالمعارف والأخبار التي تصلنا عبرها، لا تخضع لاختبار الجودة. بل أكثر من ذلك، هي خليط من الجد والغوغائية، والغث والسمين، والحساس والتافه، وقد تكون الغاية من طرحها أيديولوجيا دعائيا صرفا.

إننا أمام غزو الهواتف الذكية، في مرحلة يمكن تسميتها «مرحلة المعلومات اللامنتهية» وهو ما قد يؤدي، إذا لم تكن للأفراد منهجية للتعامل الناجع مع الظاهرة، إلى ارتباك معرفي واضح. وقد تخلق هذه الوفرة أوهاما من الصعب تذويبها، منها أساسا الاكتفاء بالمعلومات كبديل عن المعرفة، في حين أن المعلومات هي فقط شرط للمعرفة. وكلما تكاثرت المعلومات، صارت المعرفة أكثر تعقيدا، على مستوى بنائها، وتجريبها ليقبل بها أكثر عدد من الناس. وهذا ما يؤدي إلى عدم استقرار الحقائق المجتمعية، وظهور جيش كبير من المناهضين لها عبر أطروحات جديدة متكررة باستمرار.

إن الواقع الافتراضي ليس خيالا. ولذلك تقل فيه فرص إنتاج مضامين مفكر فيها بكفاءة. مما يجعل معين الخيال سائرا فيه إلى نضوب، وذلك لسمة الاستسهال الذي يطبع التواصل على الموبايل، سواء على صعيد إنتاج المحتوى أو استهلاكه.

تربية جديدة

التفاعلية لا تعني أبدا أنها، في حد ذاتها، منتجة للمعاني التي يحتاجها الإنسان لتطوير ذاته ومجتمعه، بل هي مشروطة بكثير من المستلزمات لتكون كذلك. وقد تخلق التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال وهما أساسه أن امتلاك الأداة هو رديف لما يمكن للأداة أن تنتجه إيجابيا لصالح الإنسانية. ثم إن استعمال الهاتف الذكي لا يستدعي ترخيصا، ولا الخضوع لدفتر تحمّلات، ولا التوقيع على ميثاق أخلاق. وهذا شيء يمكنه أن يؤدي إلى إفلاس إنسانية مستعملي الموبايل، خاصة بالنسبة للمراهقين والشباب الذين لا يستطيع أحد اليوم مراقبة استهلاكهم للمضامين الافتراضية. وفي نظري، لو كانت شبكات التواصل الاجتماعي أسقطت اللايكات، واكتفت بخانة التعليقات، لكان الأمر أجدى، وخرجنا من ثقافة الإعجاب الفج المتبادل، في أحايين كثيرة، من أجل رد دين الإعجاب فقط.

ولا أشك في أن الحل الأمثل لكل هذه الجوانب السلبية المرتبطة بالهواتف الذكية، يكمن في التربية على التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، استهلاكا وإنتاجا، داخل مقررات التربية بالمدرسة، وذلك من أجل تفعيل جيد للممارسة التواصلية التكنولوجية.

باحث من المغرب

ثقافة الجيب الرقمي

سعيد يقطين

مع التطور الذي حققته الطباعة، صار هدف تعميم الكتاب ودمقرطة تداوله يتم من خلال إصدارات بخسة الثمن، وصغيرة الحجم، عرفت بكتب «الجيب». تطورت الوسائط الجديدة فبات الهاتف الذكي ليس فقط حاملا للكتب، ولكنه صار أكثر من ذلك مكتبة رقمية تتسع لكل المنتجات الثقافية أيا كانت العلامات التي توظفها. لا غرابة في أن نسميه، لأنه صار جزءا من حياة الإنسان: «الجيب الرقمي» الذي يسمح بالاتصال والتواصل والتفاعل مع العالم، وتصريف مختلف الأمور حتى صار من المستحيل الاستغناء عنه.

كان آباؤنا يتمنطقون بـ«الشكارة» في غياب الجيوب، وكانوا يحملون فيها ما يحتاجون إليه. ومن بين ذلك مخطوط «دلائل الخيرات» الذي لا تخلو منه شكارة المتعلمين منهم يطالعونه متى أتيح لهم ذلك. تختلف جيوب الناس بحسب إمكاناتهم المادية ونوعية علاقاتهم مع الناس والأشياء وميولاتهم الثقافية، وكل «جيب» بما فيه ينضح.

صار الجيب الرقمي خير جليس للإنسان. لكن طرق التعامل به ومعه لدى الأجيال العربية التي فتحت أعينها عليه لا تتصل بالمقاصد الكبرى التي كانت وراء إنتاجه. يزخر الجيب الرقمي بما هو نصي وصوري، وبالجد والهزل، وبعشرات الوظائف، لكننا لا نستغل منها سوى العشرة الأولى. وهي لا تعدو أن تكون ما يتصل بما هو ترفيهي ولعبي. أتابع دون اهتمام ما يجري في الأماكن العمومية فلا أجد إلا تزجية الساعات في مشاهدة

الذين ولدوا مع ميلاد هذه الهواتف هم «جيل الموبايل». بخلاف أجيالنا المتلاحقة التي تلقت المعارف عبر البحث المضني في رفوف الكتب والمجلات والدوريات، وفي حلقات المعرفة وحلقات النقاش العمومي.

موبايل بورخيس

كان بورخيس واحدا من أعظم القراء في التاريخ. وحين فقد ذاكرته كان يعود إلى ذاكرته مثلما يعود مثقف الهاتف الذكي إلى محركات البحث للحصول على المعلومة وتذكرها. هكذا، لم يعد مثقف الموبايل في حاجة إلى ذاكرته، لأنه يسلم بأن الموبايل سينوب عنه في مهمة التذكر. وهنا، فقد الإنسان المعاصر ذاكرته لصالح ذاكرة الموبايل. ذلك ما يشدد عليه آيت لعميم، المتخصص في بورخيس وترجمته، إذ ينبهنا إلى أن «الهاتف الذكي الموصول بشبكة الإنترنت رسّخ وعمّق آفة النسيان، لأنه يخلق وهم الاحتفاظ بالمعلومة، ومن ثم أصبح الاتكاء عليه هو السائد عوض ترويض الدماغ وحفظ المعلومات فيه». رغم أن محدثنا يستعير عوالم بورخيس، حين يقول بأنه إنما يستعمل الموبايل شخصيا ويتعامل معه بما هو «أداة للبحث والتنقيب، وباعتباره موصولا بمكتبة لانهائية».

ومع ذلك، فإن الزمن الآتي هو زمن الموبايل، والجيل المقبل هو جيل الموبايل، لا مفر من ذلك. فهل من الممكن مقاومة وجود الموبايل، أو حتى رفضه؟ يجيب سامح درويش بأنه «لا يمكن ذلك.. ولا يمكن الحد من استعماله». كما لا ترى شريفة الدحروش أي جدوى من مقاومته أو رفضه، «لأنه بالنسبة إلي وسيلة اتصال سهلت طرق التواصل، ولا توجد أي دواعي للتعامل مع الهاتف أو شخصنته». فالمشكلة، حسبها، إنما «تكمن في المستخدم وليس في الهاتف. وخاصة حين يتحول الإبحار في المواقع وشبكات التواصل الاجتماعي إلى ضرب من ضروب لإدمان الذي لا يقاوم».

وبخصوص الأجيال المقبلة، دائما، تحذرنا الباحثة والمترجمة من مطب آخر، يتعلق بفكرة النمطية، «أن يصبح الجميع نسخة للجميع»، يتداولون المعلومات نفسها بالطريقة نفسها. والأسوأ من ذلك، أن تكون مجرد «معلومات مبتسرة» كما يسميها الطبيب والكاتب عبدالإله المرياح.

كاتب من المغرب

الأفلام والأغاني. وأتعجب من بعضهم يتابع المباراة على التلفزة وعلى طاولته في المقهى جواله المفتوح على المباراة نفسها؟

لا مشاحة في التعامل مع الصوري والهزلي، ولا عيب في التواصل مع الآخرين عن طريق الإشراك والمشاركة والإعجاب في ما يتصل بتبادل التهاني والتعازي، وجديد الأخبار والفضائح، أو في استخدامه للطلبيات وقضاء المآرب اليومية، أو البحث عن المعلومات العادية. لكن أن يغدو هذا هو «الحس المشترك» في ملامسة الجيب، فإن ذلك يقلل من الاستفادة مما يزخر به، وما يتيحه من إمكانات.

كنا في الكتاب لا نتعلم فقط القراءة والكتابة. كنا نتعلم كيف نبري قلم القصب، ونصنع مداد الدواة من الصوف والصمغ والماء. كل المتعاملين مع الجيب الرقمي لا يتعلمون سوى وظيفة الدخول والخروج، والمتاح والسهل. يسألني طلبة عن بعض المراجع؟ فأتعجب كيف لا يستطيعون العثور عليها وهي في جيوبهم؟

لا بد من امتلاك ثقافة الجيب الرقمي، قبل تفصيله على قد فلوسنا. ويمكن للمدرسة والجامعة والإعلام أن تقدم تكوينات في الثقافة الرقمية تمكن من الغوص في مختلف الطبقات الغائرة التي يحتويها هذا الجيب، وإلا بقينا نطفو على سطح اللعبي والترفيهي. يمكن للكثيرين أن يلقوا باللائمة على الجيب، ودوره في «التسطيح» الذي بدأ يسود، وفي «تحول» القيم، وفي «غياب» التواصل بين أفراد الأسرة... لكن العيب في التوظيف لأنه يتم في غياب أي تكوين.

الجيب الجديد يستدعي ثقافة جديدة.

ناقد من المغرب

الموبايل في زمن وَاتْساب

عبدالسلام بنعبد العالي

هل الموبايل وسيلة للحصول على معرفة؟ لكي نجيب عن هذا السؤال، ربما وجب التمييز بين المعلومة والمعرفة. فإذا كانت المعلومة أداة للمعرفة، فهي ليست معرفة بالرغم من ذلك. المعلومة معطى خام. إنها المادة الأوّلية لبناء المعرفة، أي للتعامل مع المعلومات بروح نقدية متفتحة، بهدف تمحيصها وتحليلها، والتمييز فيها بين ما يصلح قاعدة لبناء معارف وما لا يليق، وإلاّ ظلت المعلومات مجرد ركام من المعطيات المختلطة. لا يمكننا أن نقول، والحالة هذه، إن بإمكان الموبايل أن ينقل المعارف. الموبايل يمكّن من التزويد بالمعلومات، وبما أنه يكتفي بالتقاط المعلومة وهي متنقلة بين الهواتف، فإن بإمكانه كذلك أن ييسر انتشار الشائعات، فيجعلنا نغرق في المعلومات، الصحيحة منها والخاطئة. وإذا سلمنا مع الفكر المعاصر بألاّ معرفة إلا نقدية، أدركنا أن المعرفة وحدها هي الكفيلة بأن تمكّننا من أن نقود تفكيرنا ونفحص معلوماتنا. فإذا كان مفهوم مجتمع المعلومات يقوم على التقدم التكنولوجي، فإن مجتمع المعرفة يشمل أبعادا اجتماعية وأخلاقية وسياسية، وهي أبعاد أكثر شمولا واتساعا. والحال أننا أصبحنا اليوم أمام مجتمع إعلام يعمل فيه الموبايل، من بين وسائط أخرى، على الزيادة التي فاقت كل التوقّعات من كمّ المعلومات المتوفرة، وسرعة انتقالها، وسهولة انتشارها.

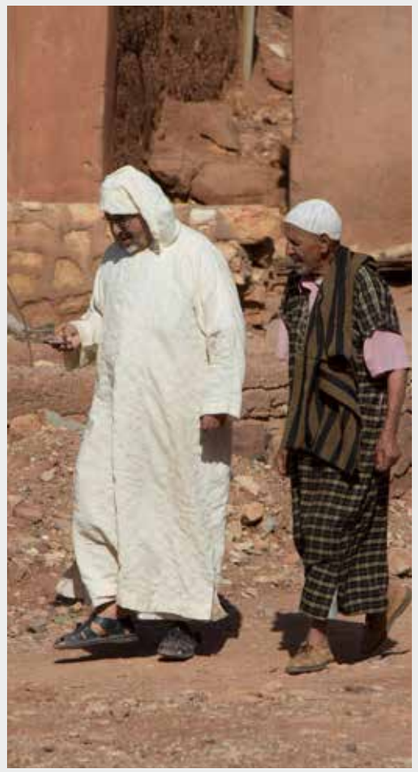

في كل مكان من العالم وكل الفئات والطبقات وكافة الأعمار الموبايل هو الصديق الأوفى

عندما تصلني المعلومة عبر وَاتْساب فإنني لا أشعر أن عليّ تمحيصها، بقدر ما أحسّ أن عليّ أن أساهم في نشرها و«اقتسامها» مع آخرين. هذا ما توصيني به كل رسالة أتلقاها: اقتسم مع غيرك Partager. فأنا، في نظر واتساب، «نقطة توزيع» و«محطة بث» أكثر مني «نقطة فحص». هاتفي أداة وصْل وليس وسيلة تواصل، إنه محطة توزيع، تسهم في «حركة» نقل المعلومة ونشرها.

قد يقال إن هذا التوزيع والاقتسام من شأنه أن يحقق نوعا من التواصل، بل ومن «العدالة المعلوماتية»، باعتبار كون المعلومة، مبدئيا، سلعة تباع وتشترى، وباعتبار أن اقتصادها يخضع مثل باقي المواد الاقتصادية لقانون الندرة، لكن الموبايل، بفضل واتساب، غدا ييسر الاتصال «المجاني» الذي لا يكلّف صاحبه إلا نقرات كي ينقل ما يصله من صور ومعلومات إلى من يعرفه ومن لا يعرفه، أو لنقل إلى الجميع: المقربين والأقل قربا. إلاّ أن هذه التّسوية لا تسمح لنا ربما بأن نتكلم هنا عن تواصل حقيقي، مادام ذلك التواصل يقتضي اختلافا في العلائق، ومراعاة لدرجة التقارب بين المتواصلين. والحال أن الموبايل عبر واتساب يسوّي بين العلائق، ويجعلني أشارك غيري، أنّى كان وكيفما كان، المعلومات نفسها، الحميمية وغير الحميمية، المهمة والأقلّ أهمية، بل إنه يجعلني أنشر، دونما رقابة ذاتية، أخبارا كانت تعتبر حتى وقت قريب أسرارا يلزم الاحتياط في نقلها، والتحفّظ في شأنها أو التحمّس المتساهل معها.

لكن، ربما لا يمكننا أن ننفي، بالرغم من ذلك، أن في هذه التسوية وهذه «المبادرات الإخبارية» ما من شأنه أن يخلق رأيا عاما معارضا لما يجري، أو على الأقل، ساخرا من واقع الحال، حتى وإن بُني ذلك الرأي على أحكام غير مضبوطة، بل وعلى شائعات مغلوطة!

مفكر من المغرب

ناشط عالمي غاضب من هيمنة آبل على على سوق الاعلان في العالم

عولمة المعلومة وهتك الأسرار

جيل «ريفكا» يؤسس لثقافة الموبايل في الجزائر

صابر بليدي

أدخلت تكنولوجيا الهاتف الجوال تحولات عميقة في مجتمعاتنا العربية، وفي سلوكات المواطن العربي، الذي بات يستأنس به في حياته اليومية وفي اهتماماته المختلفة، فالموبايل لم يعد مجرد وسيلة اتصال وتواصل فحسب، بل صار مصدرا ووسيلة وأحد الأشكال الحديثة لاكتساب وتبادل المعارف والمعلومات والثقافات، فمن أبسط صورة إلى مطالعة رواية أدبية، أو صحيفة، أو مشاهدة فيلم سينمائي، احتضن هذا الجهاز واستجمع شتات الوسائل الأخرى رغم حداثتها، ووفر لإنسان العصر الحديث ما كان يشتت جهده ووقته وذهنه بحثا عنه.

رغم حداثة تجربة انتشار تكنولوجيا الهاتف الجوال في الجزائر، مقارنة بباقي الدول العربية، فإن الجهاز عرف توسعا مطردا منذ مطلع الألفية، كوسيلة اتصال وتواصل، ثم كأداة ذات أبعاد معرفية وثقافية، وبرزت إفرازاتها مع توسع دائرة الهاتف الذكي، الذي استفاد من السوق الرائجة ومن شغف الجزائريين بمواكبة التطور التكنولوجي، لا سيما لأولئك الذين وجدوا ضالتهم في هذه الوسيلة التي تختصر ما يريده الجميع في مصدر واحد في متناول الجميع.

لتسليط الضوء على الجوانب والتفاصيل المتصلة بدور الموبايل كوسيلة وشكل من أشكال تبادل واكتساب المعارف والثقافات، وعلى الأبعاد الاجتماعية والنفسية والثقافية للظاهرة، اتصلت «الجديد» بعدد من المختصين والفاعلين والناشطين في مختلف المجالات ذات الصلة، لاستقراء أثر ثقافة الموبايل في المجتمع الجزائري، ومدلولات وجوده كواحد من الخيارات المستحدثة، لا سيما في ظل المقاومة التي تعتري كل جديد، ومدى جدواها في أن تكون بديلا ناجعا لوسائل تقليدية للمعرفة مازالت تحتفظ بمكانتها وأنصارها، فضلا عن تأثيراتها ومضامينها في تنشئة أجيال ما بعد الكمبيوتر.

المحتويات والمضامين التي تعيق طريق «ثقافة» الموبايل

تضاربت الرؤى والمواقف حول هذا الوافد الذي يؤسس لمرحلة ثقافية ومعرفية جديدة. أجيال الهاتف الذكي في الجزائر، هي بين مرحب به كبديل أو منافس شرس لوسائل التثقيف والتثاقف الكلاسيكية وحتى العصرية، وبين مؤكد على أن الطريق لن يكون مفروشا أمام الثقافة الجديدة بالسجاد الأحمر، قياسا بالمقاومة التي تتخذ من مضامينه وتأثيراته المتعددة ذريعة للتوجس منه.

الناشط الجمعوي والباحث في الشؤون التاريخية رياض بن مهدي، لا يبدي انزعاجا أو خجلا من عدم امتلاكه لهاتف ذكي، لأنه مصرّ على الوفاء لجيل الكمبيوتر، ويبرر موقفه بالقول «شخصيا لا أمتلك موبايل ذكيا، خشية أن أكون فردانيا في سلوكي، خاصة بعدما شاهدت عن كثب بعض الناس وقد أصبحوا بوجوه بشر وحركات آلات، نتيجة كثرة تعاملهم مع الموبايل وتأثرهم بالمحتويات الفارغة والتافهة».

ويضيف بشأن مخاوفه من تأثيراته الاجتماعية «بعض الناس تجد لقمة الأكل بيمناه وهاتفه الذكي بيسراه. الكثير من الناس ومنهم حتى آباء وأمهات لم يعودوا قادرين على رعاية أبنائهم بصورة جيدة، ولا حتى منحهم قسطا من حنان الأبوة أو الأمومة، والسبب هو انغماسهم في الموبايل والتفرغ لأشخاص آخرين، بل والأكثر من ذلك الانغماس في مضامين لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا تفيد الأسر والمجتمع في شيء».

ويشدد على أن تأثيرات الموبايل بدأت تتجلى في شيوع ظاهرة فردانية الفرد ونزوعه تدريجيا نحو المزيد من الهجران، ليس لأصحابه وشبكة

علاقاته ومحيطه فحسب، بل للروابط الأسرية، وداخل أسرة صغيرة تتكون من أب وأم وأولاد.

آلة العصر

على النقيض من هذه التخوفات، يعتبر الإعلامي الإلكتروني محمد لهوازي، المسألة عادية، فالموبايل «ككل الأجهزة الحديثة التي ظهرت مع التطور التكنولوجي، أثارت جدلا كبيرا، خصوصا في السنوات الأخيرة، حول أهميتها وسلبياتها وتأثيرها على الأشخاص وسلوكياتهم، إلا أن الواقع يقضي بأن كل تقنية جديدة لها إيجابيات وسلبيات أو هي سيف ذو حدين إن صح القول».

ويضيف «الحقيقة التي لا مفر منها هي أن أجهزة الهاتف النقال أضافت الكثير لحياة الأشخاص وسهلت عليهم التواصل وتقريب المسافات، هذا من الناحية الاجتماعية، أما اقتصاديا فساهمت في تطوير شبكات اتصال بين المؤسسات والأفراد ووفرت الجهد والمال، وبرزت مؤسسات متخصصة فقط في تقديم الخدمات عبر الهاتف النقال، وهو ما يسهم في تسهيل مختلف مناحي الحياة في المجتمع، بما فيها التدفق الهائل للمعلومات والمعارف والثقافات».

ويلفت إلى أن «ما لا يجب إنكاره هو بعض السلبيات التي رافقت انتشار الهواتف المحمولة، مثل المساهمة في بروز ظاهرة الفتور الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد، حيث صارت حوارات البعض بلا روح ولا إحساس، كما ظهرت الاستعمالات غير السليمة للموبايل من طرف الأشخاص للإضرار بالآخرين كنشر الصور الشخصية والعائلية دون إذن خصوصا على شبكات التواصل الاجتماعي، أو استعمال الهاتف النقال في جنح وجرائم دون معرفة الجزاء العقابي نتيجة الجهل بالقوانين، وهو ما يعرض الكثير للوقوع تحت طائلة العقوبات المختلفة».

ظاهرة ريفكا

عدم امتلاك الهاتف الذكي لا يخجل المتحفظين عليه، والجهل به ربما يكون من بين المقدمات التي مهدت لتكوين انطباعات الخوف والحذر من هذا الوافد الجديد، وديمقراطية الهاتف الذكي. ولعل إطلاق الحكومة لخدمات الجيلين الثالث والرابع للهاتف الخلوي بعد سنوات من المماطلة والتردد، قد كوّن شغفا لدى الجزائريين لولوج هذا العالم وطرح فئات عريضة لمكبوتاتها في غرفها المغلقة وخلواتها المستأنسة.

الشاب الجزائري المعروف على شبكات التواصل الاجتماعي بـ«ريفكا» فاجأ الجزائريين وفجر جدلا صاخبا، بعدما قدم إليه زهاء عشرة آلاف شاب أغلبهم من طلبة الثانويات والجامعات، لتهنئته بعيد ميلاده الواحد والعشرين في ساحة مقام الشهيد بالعاصمة، باعتباره أشهر شاب جزائري على شبكات التواصل الاجتماعي محليا وعالميا.

الهاتف الذكي كان المنصة الأولى لتهنئة ريفكا بعيد ميلاده. بعض متابعيه قالوا إن جدار صفحة ريفكا هو الأكثر متابعة بين الشباب، لما ينشره فيه من تسجيلات اجتماعية وفكاهية تحمل معاني ورسائل مؤثرة في مخيال وعقول الشباب.

حفل عيد الميلاد غير المسبوق في الجزائر أثار جدلا قويا في البلاد حول التغيرات العميقة في الخطاب ووسائل التواصل بين أفراد المجتمع، وما يبدو تأسيساً لقواعد ثقافية جديدة، لا سيما في ظل عجز المؤسسات الكلاسيكية (أحزاب، جمعيات ونقابات وحتى فنانين)، وفشل الجيل القديم في استقدام الحشد الهائل الذي استقدمه ريفكا إلى تجمعاتهم الشعبية، رغم تفوقهم عليه وتقديمهم لوسائل النقل والأكل وحتى مصروف اليوم.

شيء جديد

الروائي الناشر عبدالرزاق بوكبة ينظر إلى الأمر من زاوية التحولات المرافقة له فيرى أنه «لا يمكن رؤية الموبايل كشيء محايد بلا تأثيرات في تشكيل وعي جديد، بغض النظر عن كونها إيجابية أو سلبية، فذلك يُناقش في سياق خاص، بل هو يملك القدرة على إزاحة تفكير أو سلوك مكرس في مقابل خلق سلوك أو تفكير جديد».

ويستدل على ذلك بكون «مفهوم الهوية، قبل هيمنة الموبايل على حياتنا، اختلف عما هو سائد اليوم، ففي زمن الهاتف الثابت، كان السؤال الذي نطرحه عند تلقي مكالمة هاتفية هو 'من أنت؟'، لمعرفة هوية المتصل. مع الموبايل، بات اسم المتصل يطلع لنا مسبقا مع موسيقى وصورة مميّزتين له، لذلك فإن السؤال الذي نطرحه هو 'كيف حالك؟'، وهو ما يعني أن الموبايل نقلنا من سؤال الهوية إلى سؤال الحالة، بكل ما يترتب عن هذا التحول من ثمار على مستوى التفكير والسلوك والقاموس».

وباتت موبايلات النخب الثقافية والسياسية والاقتصادية في الجزائر، منصة لنشر واستقبال الأفكار والآراء، بفضل خصوصياتها الفنية ومرونة حجمها مع الحركة الجسدية، فذكاء الهاتف من ذكاء صاحبه برأي البعض، والعبرة بالمحتوى والمضمون، وليس بالتباهي أو إفراغ عقد نفسية واجتماعية أمام الآخرين.

والموبايل بالنسبة إلى من يعتبره مرادفا لطيش الشباب وينعته بـ«المراهقة الإلكترونية»، لاختطافه عقول مستعمليه هو بمثابة إدمان من نوع جديد، لا يختلف عن الإدمان على مواد ووسائل أخرى، لكن الأرجح اليوم بين الشباب أن الغالبية سلمت بحتمية ركوب قطار العصر خوفا من التخلف عن الركب، وتضييع فرصة قد تتحول إلى عقدة في المستقبل.

السياسيون وممتهنو الاتصال وصناعة الرأي العام لا بد أنهم وقعوا تحت صدمة قوية بسبب حشد ريفكا، الذي سرّع خطوات الموت التدريجي للخطاب السائد والوسائل الكلاسيكية، لا سيما مع إظهاره قدرة فائقة في التأثير على الشباب، وهو ما عجزت عنه أقوى الأحزاب السياسية وأعتى المؤسسات الإعلامية في البلاد. بعض المعلقين دعا إلى توجيه رسائل التحذير للجميع من مفاجآت أمثال ريفكا، ومن تأثير العالم الافتراضي في صناعة العقل والثقافة الجديدة في المجتمع، ومن

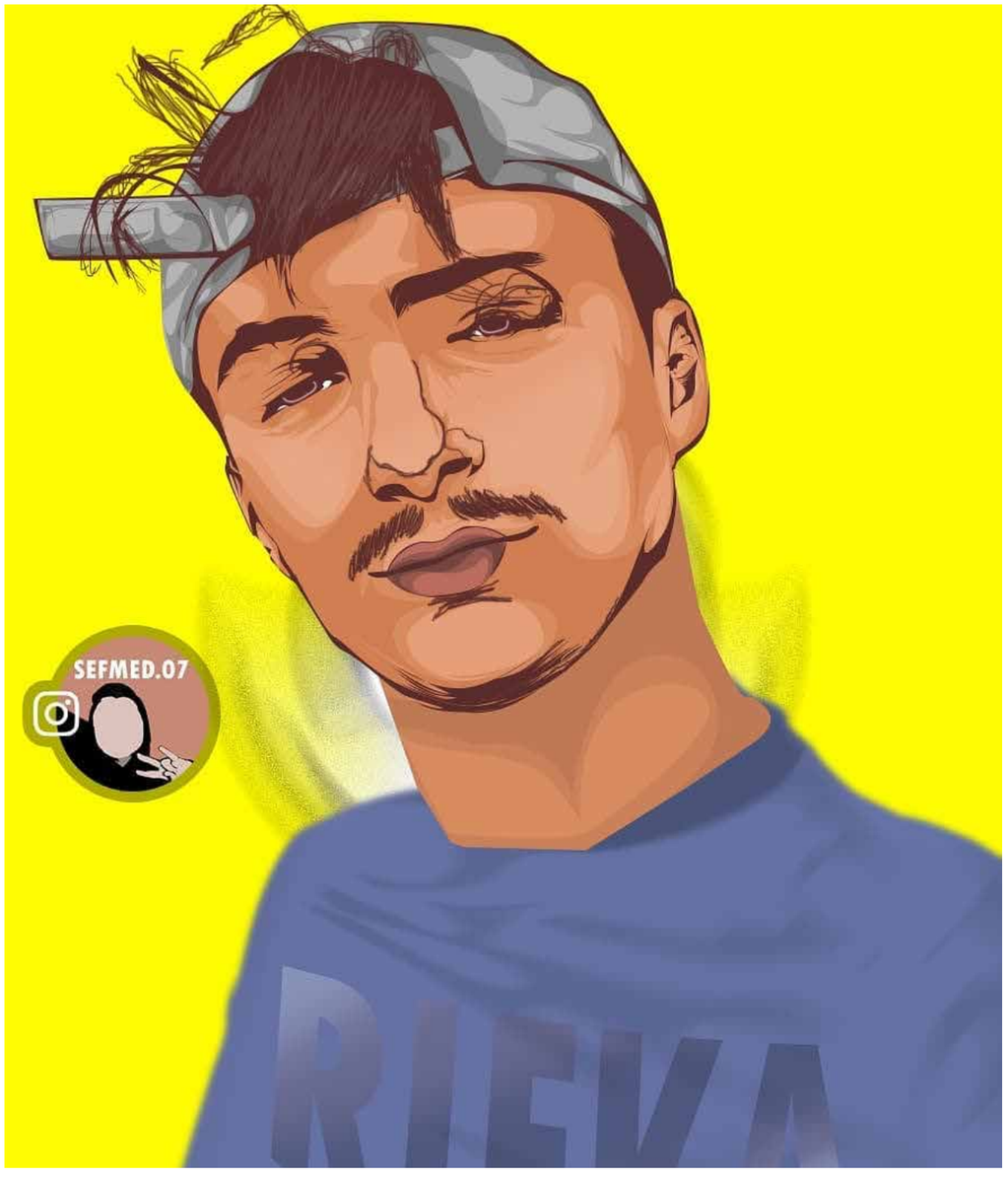

الشاب الجزائري «ريفكا»

مخاطر سرقة الشباب الجزائري من حضنه الاجتماعي والأسري.

نظرة منفتحة

الباحث في علم الاجتماع مصطفى راجعي علق على المسألة بالقول «إنها ظاهرة طبيعية، لأنها تترجم حالة الارتباط الوثيق بين هؤلاء الشباب وبين وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الاتصال الحديثة، وأن الجيل الحالي من الشباب له اهتماماته وتوجهاته في الحياة، ويحاول التعبير عنها وتقاسمها مع الأصدقاء على منصات التواصل الاجتماعي، وسلاحه في ذلك هاتف ذكي لا غير».

ولفت إلى أن «الظاهرة الجديدة من شأنها أن تحرج الطبقة السياسية باختلاف توجهاتها، لأن هؤلاء الشباب باتوا قادرين على تعبئة الجماهير في وقت عجز فيه بعض السياسيين عن ذلك، بسبب إصرارهم على التواصل مع الشارع بواسطة وسائل تقليدية تجاوزتها التطورات».

نظرة محافظة

على النقيض من ذلك يذهب المختص في شؤون السوسيولوجيا والبيداغوجيا رابح الأصقع، إلى أن «الحديث عن ثقافة الموبايل يقودنا للحديث عن الثورة المعلوماتية والثروة الاقتصادية وسط هذا الانفجار المعرفي الهائل، وكل هذه الوسائط التكنولوجية الحديثة والشبكات العنكبوتية، فهذا العنكبوت الذي امتدت خيوطه إلى كامل المعمورة لاصطياد فريسة العصر الإنسان، من أجل الاستيلاء على فكره واستلاب ثقافته ومرجعيته الدينية، الاجتماعية والثقافية بكل كيانه لتختزل في مصطلح واحد هو ثقافة الزر».

ويشاطره في ذلك رئيس جمعية «شامة» التاريخية بمدينة برج بوعريريج رياض بن مهدي، ليؤكد بأن «الموبايل لم يعد وسيلة أو جهازا بسيطا للتواصل اللاسلكي التقليدي، فهو اليوم يمتاز بـ'الذكاء'، وهو يطلعنا على التوقيت والتاريخ وأحوال الطقس وخرائط البلدان والعالم، وسيلا من المعارف والمعلومات، وكل هذا في اعتقادي جعل منه أكثر جاذبية لكل الناس بمختلف مستوياتهم المعرفية والعلمية وحتى الاجتماعية، ففيه تذوب كل الفوارق بين الناس من حيث الاستعمال والاستهلاك وليس من حيث طريقة ومنهجية الاستعمال».

ومع ذلك يعترف المتحدث بأن الموبايل وفر ديمقراطية المعلومة والمعرفة للبشرية، فقد أذاب الفوارق الشاسعة في الحصول على المعلومة باختلاف أنواعها ومصدرها، فما يمكن للبروفيسور أن يطلع عليه بكبسة واحدة على زر في الموبايل، هو نفسه ما يمكن أن يطلع عليه شخص آخر محدود المعرفة العلمية أو الثقافية بنفس الحركة على جهاز مماثل.

ويضيف «لقد أتاح الموبايل للجميع وفي كل بقعة من بقاع العالم الحصول على تيار جارف من المعلومات في لحظة واحدة، باعتباره حاملا أو وسيطا تكنولوجيا حديثا، لا يقل تأثيره وسرعته في نشر المعلومة عن سرعة الكمبيوتر بل وأسرع منه حتى».

ويخلص إلى أن «تأثيراته متفاوتة القوة بين شخص وآخر، وفق المستوى التعليمي والتكويني لكل فرد، وحسب تعلق الفرد بهذا الجهاز وطبيعة المحتوى أو الاهتمام الذي يربطه به كخيار لاكتساب معرفته وثقافته والاطلاع على العوالم التي قد تكون مفيدة كما قد تكون ضارة وهدامة».

ثقافة الموبايل سطحية ومعلبة

رغم ما يوفره الموبايل لأصحابه وتحوله في ظرف وجيز إلى مصدر ثري لكل ما يحتاجه الفرد في حياته، إلا أن هناك من يبدي تحفظا عليه وعلى تأثيراته ومضامينه المشكوك في نزاهتها وخدمتها، خاصة وأن دراسة أعدتها المختصة في علم الاجتماع بجامعة قسنطينة سوقال إيمان، تشير إلى أن استعمال الجهاز في الجزائر، تستحوذ عليه شبكات التواصل الاجتماعي بالدرجة الأولى 60 بالمئة، وتأتي مثلا القراءة والمطالعة في ذيل ترتيب اهتمامات مستعمليه.

ويتساءل في هذا الشأن المختص في الشؤون الاجتماعية والتعليمية رابح الأصقع «إذا كانت ثقافة الموبايل هي الطريقة الأنسب للحصول على المعارف، فأي معرفة نقصد؟ خاصة إذا كانت هذه المعرفة تميل إلى السطحية، بل معلبة وموجهة للاستهلاك لا غير، وهل هي معرفة حقا؟ وإذا كانت العلوم والمعارف لا حدود لها، فكيف تختزل في موقع محتكر ضمن ملكية خاصة، يمتلك صاحبها مفاتيح الصياغة والتصرف والتأويل؟ إذ يجب أن نفرق بين المعلومة والمعرفة».

ويضيف «هذه الوسائط التكنولوجية، ومنها الموبايل هي مخازن وفضاءات للتسويق المعلوماتي وليس المعرفي بمفهوم المعرفة. كما تدخل ثقافة الموبايل كظاهرة دائمة التفاعل في إطار ما يسمى بالظاهرة الاجتماعية، حيث أصبح الفرد أسير جهازه، وأمسى أيضا ظاهرة تلقائية».

مخاوف النخبة الحاكمة

يرى خبراء جزائريون في مجال الاتصالات أن «تأخر وتردد الحكومة في إطلاق خدمة الجيلين الثالث والرابع للهاتف الخلوي إلى غاية العام 2016، مردهما إلى مخاوف لدى النخبة الحاكمة من مساهمة التقنية في إحداث ثورة على الحرس القديم في السلطة، التي كانت تعتبر سيولة المعلومات والمعارف بواسطة الخدمة في الهواتف الذكية، ستهدد عرشها السياسي».

ويذهب آخرون إلى أن «الهاتف الذكي رغم ما يوفره لصاحبه من خدمات وفرص الاطلاع والمطالعة، فإنه يبقى مجرد وسيلة والمستعمل هو المسؤول عن مضامينه ومحتوياته، وهو ما يفضي إلى أنه لن يكون وحده في صناعة الوعي الجماعي للأفراد».

وفيما يصنف المختصون في علم الاجتماع الهاتف الذكي كوسيلة جماهيرية سابعة، باعتباره يتيح التفاعل مع المعلومة بشكل شخصي وفردي، ودائم الاشتغال، واستعماله المكثف حيث يأخذه البعض حتى أثناء فترة النوم، فضلا عن مرونة طريقة التعبئة، والطبيعة المحفزة على الإبداع من خلال التفنن في صناعة محتوياته وتصميمها وإثرائها والتفاعل معها، فإن المختصة في علم الاجتماع إيمان سوقال، خلصت في دراستها إلى أن الهاتف الذكي يمثل مرحلة ما بعد الكمبيوتر بكل أبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

ولفتت إلى أن استعمال الهاتف الذكي في الجزائر، يسجل أعلى معدلاته في الفترة الممتدة من التعليم الثانوي إلى الجامعي، وتأتي بعدها مرحلة التعليم المتوسط، بالنسبة للفئات المتعلمة، وأن فترة استعماله تصل حتى إلى عشر ساعات في اليوم، وتنزل إلى ساعة واحدة يوميا، في حين يبرز آخرون بأن المسألة تشمل كل الفئات الاجتماعية ولو بشكل متفاوت.

وتصب الدراسة الاجتماعية في وعاء تأكيد الاستعمال المختصر والسطحي، مما يبقي دور ومفعول الوسائل الأخرى قائما وجديا، حيث كشفت عن أن ستين بالمئة من المستعملين يوظفونه في شبكات التواصل الاجتماعي، وأكثر من 20 بالمئة في تحميل التسجيلات، وأقل من عشرة بالمئة في الاتصال، وحوالي خمسة بالمئة في كتابة الرسائل الإلكترونية، وغابت عن الجدول القراءة أو المطالعة.

ولو أن هناك من يشدد على أن الموبايل أتاح للناس إمكانية كبيرة ومرنة للحصول على ثقافة أوسع وبطريقة أسرع، فالعالم اليوم صار أقل من قرية واختصر في هذا الجهاز العجيب، لأن صحافة المواطن مثلا أصبحت ملاذا لرواد متابعة التطورات، بل وحتى مصدرا لوسائل الإعلام الكلاسيكية.

وهو ما يذهب لتأكيد تأسيس الموبايل لمقاربة جديدة في الاستفادة من محتوياته عبر الاكتفاء بالاختصار والقاموس اللغوي غير الموضب، وإلى طغيان التباهي ومواكبة الأحداث والتطورات على مبررات اكتساب الموبايل في الجزائر، بدل استعماله في الأغراض المفيدة.

الإبحار دون بوصلة

القراءة والمطالعة آخر اهتمامات جيل الموبايل. ويرى في هذا الشأن أستاذ البيداغوجيا رابح الأصقع، أن «المصممين والمنفذين لهذه الثروة المعلوماتية درسوا أولا طبيعة الظاهرة الاجتماعية والسلوك البشري الفكري والعملي، قبل أن يصبح الموبايل الوسيط والخلوي المكشوف والمراقب، هو الملاذ الوحيد والمفروض على من يفضل 'الإبحار' لكن دون بوصلة».

ويضيف «هذا الصغير في حجمه والكبير في مهامه المسيطر المرن والناعم، ويعري كياننا ويزيل مرجعية كل أمة، هو أحد أوجه العولمة والفرد العالمي، فلقد أصبح الفرد خاصة الشباب والطلبة يعيشون عالما افتراضيا منتجا لأمراض نفسية كالإحباط واليأس ناهيك عن عولمة الأسرار والخصوصيات، فالعائلة الجزائرية اليوم لم تعد محصنة كما في الماضي، فصفحتها وجدارها على شبكات التواصل الاجتماعي، هما مرآتها أمام العموم، سلع لسوق اقتصادي، ومنها فقدان الكيان وروح الانتماء».

من التخبط إلى النضج

بخلاف ذلك، يرى أن الدول والمجتمعات المتقدمة تجاوزت حاليا هذه المراهقة المعلوماتية، ووصلت إلى مرحلة النضج، من خلال العودة إلى أقسام التدريس بالسبورة والطباشير، ومن اللوحة التفاعلية إلى الإنسان التفاعلي، وتوظيف كل هذه التكنولوجيا بمختلف وسائطها في تسهيل الحياة وتذليل المصاعب واستثمارها في مختلف القطاعات كالزراعة والطب والاقتصاد، في كل ممتلكات الحياة قيمة مضافة لا وسيلة هدامة».

ولكن الناشر والروائي يذهب إلى أن مفهوم الخلوة، كان يعني في السابق انفراد الشّخص بنفسه، حيث يصبح معزولا عن العالم القريب والبعيد، أما الخلوة اليوم التي أحدثها الموبايل، فيمكن للفرد أن يكون بمفرده في غرفته، لكنه في الوقت نفسه يكون متصلا مع هذا العالم، بكل ما يترتب عن فعل الاتصال من أفعال كثيرة، منها مثلا فعل الجنس جزائريا.

ويضيف «يكاد عدد الهواتف النّقالة يقترب من نصف عدد السكّان أو يزيد بقليل، لكن المنظومات المعنية برصد التحولّات في المجتمع، لم تتحرك لرصد الثمار الناتجة عن هذا المعطى على مستوى السلوك والتفكير والقاموس والتواصل. بل إن المنظومة الجامعية والأدبية والثقافية نفسها لم تواكب هذا، إن لم نقل إن شطرا منها بقي ينظر إلى الموبايل نظرة اشمئزاز أو توجّس أو رفض، حتّى أنّك تجد مثقفا يتفاخر بأنه لا يملك هاتفا ذكيا في ظل واقع يقول إن ثمة تحولات عميقة في الشّارع الجزائري، حيث نستطيع تجاوز معطى العشريات في تصنيف الأجيال، إلى تصنيف جديد فنقول جيل ما قبل الموبايل وجيل ما بعده».

المنظومة الوصية لم تواكب ثورة الموبايل في المجتمع. ويمثل الموبايل للكثير من النخب الفنية والأدبية، منصة للتفاعل المرن والترويج المجاني لأعمالهم وأفكارهم، فقد وفر عليهم عناء استنزاف وقت طويل مع الوسائل الأخرى، ومكنهم من ربح معركة سرعة الحياة العصرية، لا سيما المرتبطين والناشطين على شبكات التواصل الاجتماعي، الذين وجدوا ضالتهم في الهاتف الذكي.

وبينما يقوم بعض الأكاديميين في المراكز والمناصب التقنية، باستعمال الموبايل بتحفظ، بسبب خوفهم من سرقة وقتهم والتشويش على تركيزهم في أعمالهم الدقيقة، يلجأ الكثير من وجوه الأدب والفنون إليه كوسيلة فعالة للتعاطي الفوري مع شيطان الإلهام ولحظة المخاض غير الملتزمة بدقة المواعيد.

لا لمقاومة الموبايل

حول حظوظ وجدية معركة المقاومة التي يبديها البعض، يعتبر الإعلامي محمد لهوازي مصطلح مقاومة وجود الهاتف النقال غير مجد، والحديث عن ذلك مجرد عبث، لأن التقنيات الجديدة لا يمكن رفضها والانكفاء عنها، بل يجب استغلالها والاستفادة منها قدر الإمكان، لأن العالم أصبح قرية صغيرة، وبدل الحديث الذي نسمعه هنا وهناك عن مساوئ الهاتف النقال، كان الأحرى هو دعم وتطوير مضامينها ومحتوياتها.

ويذهب إلى أن المساهمة التقنية يمكن أن تكون منصة لمنتوجنا الثقافي والمعرفي، وأن سيرورة هذه التقنية في هذا الاتجاه تعود إلى احتكار إنتاجه من طرف شركات وثقافات معينة، وأن الإشكال الجوهري يوجد في علاقة المستخدم بالموبايل وكيفية استخدامه وليس في الجهاز في حد ذاته.

ولأن المتحدث من المستشرفين بزوال الصحافة الورقية في العالم، رغم الصمود الذي تتصنعه المؤسسات الإعلامية في الجزائر، فضلا عن شغفه بالتكنولوجيات الحديثة للنشر في قطاع الإعلام، لا سيما في ظل الانتقال التدريجي من الوسائل الأخرى إلى ما بات يعرف بصحافة

إلياس إيزولي

الموبايل أو النشر في الموبايل، سبب في انتقاله من الصحافة التقليدية إلى عالم الصحافة الإلكترونية، الذي يصفه بـ«المتشعب والمغري في نفس الوقت».

وذكر بأنه «استفاد كثيرا من الدورات التكوينية في هذا المجال، خاصة لدى تلك المنظمة من طرف جهات باتت تملك تقاليد في هذا السياق، وهو ما جعله يحمل رؤية متفائلة بمستقبل ثقافة الموبايل، ويجهر بحتمية التفاعل مع هذا التطور بالشكل الإيجابي كي لا تتحول الأجيال الصاعدة إلى رهائن لدى محتكري القطاع، وذلك عبر ضرورة الحضور والتفاعل والاستفادة من تجارب الآخرين».

المغامرة المفتوحة

وفيما يرى أن «استعمال الهاتف الذكي يتزايد بشكل كبير للتواصل بين الشباب، لأنهم لا يريدون أن يفوتهم الجديد، أو أن يبقوا معزولين عن العالم الخارجي، وأن إدمان الشباب اليافع على مواقع التواصل وتعلقهم الدائم بالهواتف النقالة باتا مألوفين في كل دول العالم، ومنها الجزائر، فلا تخلو وسائل النقل اليوم من شباب غائبين تماما ذهنيا ولا يهتمون بمحيطهم، غير أنهم يتفاعلون مع هواتفهم الذكية بحركات رؤوسهم وتعابير وجوههم»، فإن الناشط الجمعوي رياض بن مهدي، يتوقع أن تأكل التكنولوجيا نفسها بنفسها، على رأس عباقرة الكمبيوترات ومخترعيها، وأن الجزائريين لم يبلغوا بعد الفهم الحقيقي لدور الموبايل، ولا حتى معرفة فوائد استعماله أو ما الذي يمكن تجنبه وكيف نتجنبه، ومتى نتيح لأنفسنا فرصة الاطلاع على مضامين الموبايل ومن ورائها مضامين الشبكة العنكبوتية.

وحول ما إذا كان يمكن للموبايل أن يكون بديلا أو مكملا للوسائل الأخرى التي تضطلع بنشر المعارف والثقافات وتساهم في تعميمها، يرى محمد لهوازي أن «بنظرة بسيطة للواقع نلاحظ أن أجهزة الهاتف النقال طغت على الحياة اليومية للأشخاص، وأصبح الفعل الثقافي عبر الوسائط الحديثة أكثر استقطابا للمتابعين للشأن الثقافي، مقابل تراجع وسائل التثقيف التقليدية مثل الكتب والجرائد المطبوعة بشكل ملحوظ لصالح الأجهزة الخفيفة المرتبطة بالشبكة العنكبوتية وعلى رأسها الهاتف الذكي».

المقاومة ستخسر الرهان

يضيف لهوازي «بالحديث عن هذا الموضوع أود التذكير بأن عدد مستخدمي الهواتف النقالة يقدر في سنة 2018 بحوالي 4.93 مليار شخص، حسب مراكز إحصائيات عالمية، وفي الجزائر عدد المشتركين في الهاتف النقال 45.817 مليون مشترك سنة 2016 و45.845 مليون سنة 2017، حتى أصبح هذا الوضع يطلق عليه (اكتظاظ) سوق الهاتف النقال، ما يعكس شغف الفرد الجزائري بهذه التطورات لدرجة اشتراكه في أكثر من متعامل».

ويتابع «إن هذه الأرقام ستواصل الارتفاع مستقبلا باطراد، وهو ما يفضي إلى أن ثقافة الموبايل في الجزائر فرضها الواقع وغزو التكنولوجيا الحديثة، واعتماد أساليب الإبهار لكسب المزيد من الأشخاص المستعملين للتقنيات الجديدة التي توفرها أجهزة الهواتف المحمولة المرافقة لمختلف مناحي الحياة، ويزداد التعلق بها يوما بعد يوم، وهنا يتوجب التنويه في هذا الخصوص إلى أن ما توفره هذه الهواتف من مادة ثقافية يفوق ما تقدمه الكتب والمجلدات الكثيرة، واختصرت الموبايلات الوقت والكيف، وقدمت خيارات لامتناهية من الأطباق الثقافية المتنوعة وما على المتلقي سوى الاختيار».

ويخلص إلى أنه «بالنظر إلى هذا يجب الإقرار بأن ثقافة الموبايل ستستمر في التطور والانتشار مستقبلا، وطالما تطورت وسائل الاتصال أكثر فإنها ستساهم أكثر في توسع فئات المجتمع التي تستخدم الهواتف النقالة كوسيلة للتثقيف والتثاقف».

ولمدمني هواية التوثيق بالصورة والصوت، علاقة حميمية مع هذا الجهاز لما يوفره من إمكانيات تقنية وقدرة على تحقيق السبق، فالنجومية أحيانا تتحقق بلحظة الحدث وبهاتف ذكي، ليصبح صاحبه ألمع من مذيعي ومحرري ومراسلي وسائل الإعلام الكبرى، وهو الأمر الذي حوله في بعض الأحيان إلى المستهدف الأول لمصالح الأمن، التي تتدخل بأي شكل في بعض المواقف، لمنع التصوير أو التسجيل وافتكاكه من أصحابه، لأن أصحاب القرار يريدون التعتيم على المسألة.

قلق المحافظين

مع ذلك يبقى الهاتف الذكي مصدر صداع وقلق حقيقيين، بالنسبة لمسؤولي ومنتسبي قطاع التربية والتعليم في الجزائر، بسبب مساهمته الكبيرة في انتشار طرق الغش الإلكتروني، الذي أوصل مصداقية الامتحانات في بعض المواسم إلى حافة الانهيار، فكشف بذلك عن وجهه السلبي وعن المفاهيم الخاطئة المتكونة لدى فئات عريضة من الطلبة والشباب، في توظيف التكنولوجيا في ما يسير عكس تيار بناء الفرد والمجتمع.

ولم يسلم أحيانا من انتقادات حتى رجال الدين، حيث أدلى الناشط والشيخ شمس الدين الجزائري بفتوى تكره استعمالات الهاتف الذكي في بعض الخصوصيات العائلية والمواقف الحساسة كالموتى والجثث والحوادث الدامية، وهو ما يعكس مدى قدرة الموبايل على كسر الحواجز والتابوهات، في خطوة تؤسس إلى عولمة المعلومة وإخراج الأسرار من جدرانها لجدران المدونات الإلكترونية.

ومع أن الكثير استهجن الصور التي بثت على شبكات التواصل الاجتماعي لضحايا انفجار أنبوب الغاز بضاحية براقي بالعاصمة مؤخرا، وهم عراة في درجة متقدمة من الإصابة بالحروق، إلا أن البعض الآخر أشاد بها واعتبر الموبايل هو الذي كشف درجة الضرر ولولاه لتم التكتم على الأمر، بدعوى احترام المشاعر وأخلاقيات المهنة.

كاتب وصحافي من الجزائر

الكواكب المستوحشة

الأرنب الأبيض والجيل الديجيتالي وفتنة الموبايل

ميموزا العراوي

"لست مجنوناً، ولكن عالمي يختلف عن عالمك" هذا ما قاله القط ذو الابتسامة الواسعة في رواية "أليس في بلاد العجائب" للكاتب لويس كارول. ربما تكون إجابته من أبلغ ما يكون أمام سؤال قد يطرحه أحد الناضجين لأي يافع في السن، يتراوح عمره ما بين التاسعة والسابعة عشرة في مختلف بقاع العالم، حول تعلقه الشديد بهاتفه المحمول.
سيعتبر اليافع في السن السؤال المطروح عليه إما نوعاً من الإدانة لكثرة استخدامه وملازمته لتلفونه الذكي، أو استفزازا له لأنه يعي، ضمناً ودون أن يعترف بذلك، أن تعلقه به شديد وأن كل الأشياء والكائنات غالباً ما تختفي، بالنسبة له ولسائر أترابه، عندما يهوي نظره في الجحر الديجيتالي خلف شاشة جواله الرقيقة كما هوت أليس عميقاً في جحر الأرنب الأبيض الذي أتاح لها آفاقا جديدة وهائلة التنوع استقت منها أفكارها ومشاعرها وآراءها وساهمت بشكل مصيري في تحولات شخصياتها وتبلور ذوقها الجمالي وتكون مبادئها الأخلاقية.

الجوال المحمول هو مجرد شيء مصنوع في مختلف الأحجام، له شكل مستطيل ولا يشكل أي أهمية لافتة إن لم يكن مُفعّلاً ببرامج إلكترونية قابلة للتطور ولشتى أنواع الإضافات. لذا يجب الالتفات إلى الفرق ما بين ما يُطلق عليه بـ«الهارد وير» وهو الوسيلة/الآلة، و«السوفت وير» وهي البرامج الإلكترونية المتنوعة التي هي المضمون المؤثر التي تأخذ المُسافر على متنها إلى التماس مع أغرب الأفكار والمعلومات والانخراط في مغامرات وعوالم خيالية قيد الإنشاء والكثير منها ما يقوم المُتلقي بتشييديها ديجيتاليا/افتراضياً حتى العيش فيها في نوع من الانشقاق شبه المرضي عن الواقع المادي/الحياتي.

تأثير وأهمية الهاتف المحمول مثله مثل أي آلة «وسائطية» كالآي باد، أو كومبيوتر المكتب، أو آلات الألعاب الديجيتالية وغيرها من وسائط هي مجرد بوابات ديجيتالية ضيقة لعالم لانهائي تتيح تخليق وتفعيل إمكانات ومعارف وحيوات افتراضية تلقى اهتماماً هائلاً من ناس هذا العصر ولا سيما جمهور اليافعين في السن.

الكواكب المستوحشة

يُطلق تعبير«الجيل الديجيتالي» على فئة من البشر الذين نشأوا وهم على اتصال متواصل مع عالمهم من خلال الشاشات الديجيتالية، وأيضا على تماس مع تقنيات مختلف وسائل الاتصال الحديثة وتطورها الدائم، ويتميزون بمعظمهم بقصر فترة التركيز على أي عمل يقومون به مما خلق ولا يزال مصاعب في المجالات الأكاديمية استنفرت الخبراء في التربية ودفعت بالأساتذة إلى ابتكار وسائل تعليمية يتم فيها استخدام التقنيات الجديدة لأهدافهم التربوية.

وإذا كان «الجيل الديجيتالي» يتميز بعلاقته الشائكة مع الهواتف الجوالة وغيرها من آلات التواصل والمعلومات فالجيل الذي تتراوح أعماره ما بين الخامسة والسابعة والمُسمى بـ«الجيل المتشرذم» هو أكثر عرضة من «الجيل الديجيتالي» لما يشبه «التطبيع» مع الآلة بشكل مثير للريبة، وله تجلياته وقوانينه غير الواضحة إلى الآن باعتراف أهم خبراء النفس.

هذا الجيل ولد في عالم مُتصدع وسريع التحولات «يهتف» فيه الأرنب الأبيض، الآخذ هيئة هاتف محمول، يهتف لهم ليدخلوا إلى عوالم أخرى تبدو أكثر «حقيقية» وأهمية وتشكل لهم مرتعاً للإقامة أكثر منه للزيارة.

تزامنا مع هذه الظاهرة كثرت التطبيقات الإلكترونية التي اعتمدها الأهل لتحديد المدة المسموح بها لأولادهم في استخدام الهاتف الجوال وغيره من آلات التواصل واللهو الإلكتروني. كما أن هناك مدارس بدأت تأخذ على عاتقها منع الأطفال واليافعين في السن على السواء من استخدام جوالهم كي تدفعهم إلى اللعب مع بعضهم البعض والالتفات إلى الممارسات المسلية التي تساهم في بلورة نموهم الجسدي والذهني كالتحادث، والغناء والاستراحة في كنف حدائقهم الجميلة والركض والانهماك بلعبة «الغميضة» و«كرسي كراسي» وغيرها من الألعاب.

لم يتم بعد تحديد كامل أثر كثرة استخدام هذه التقنيات على الجيلين، أي «الجيل الديجيتالي» و«الجيل المُشرذم» وبالتالي على «البشرية» جمعاء. بشرية باتت تحت مجهر المُساءلة في زمن سُمي منذ سنوات قليلة بزمن «ما بعد الحقيقة».

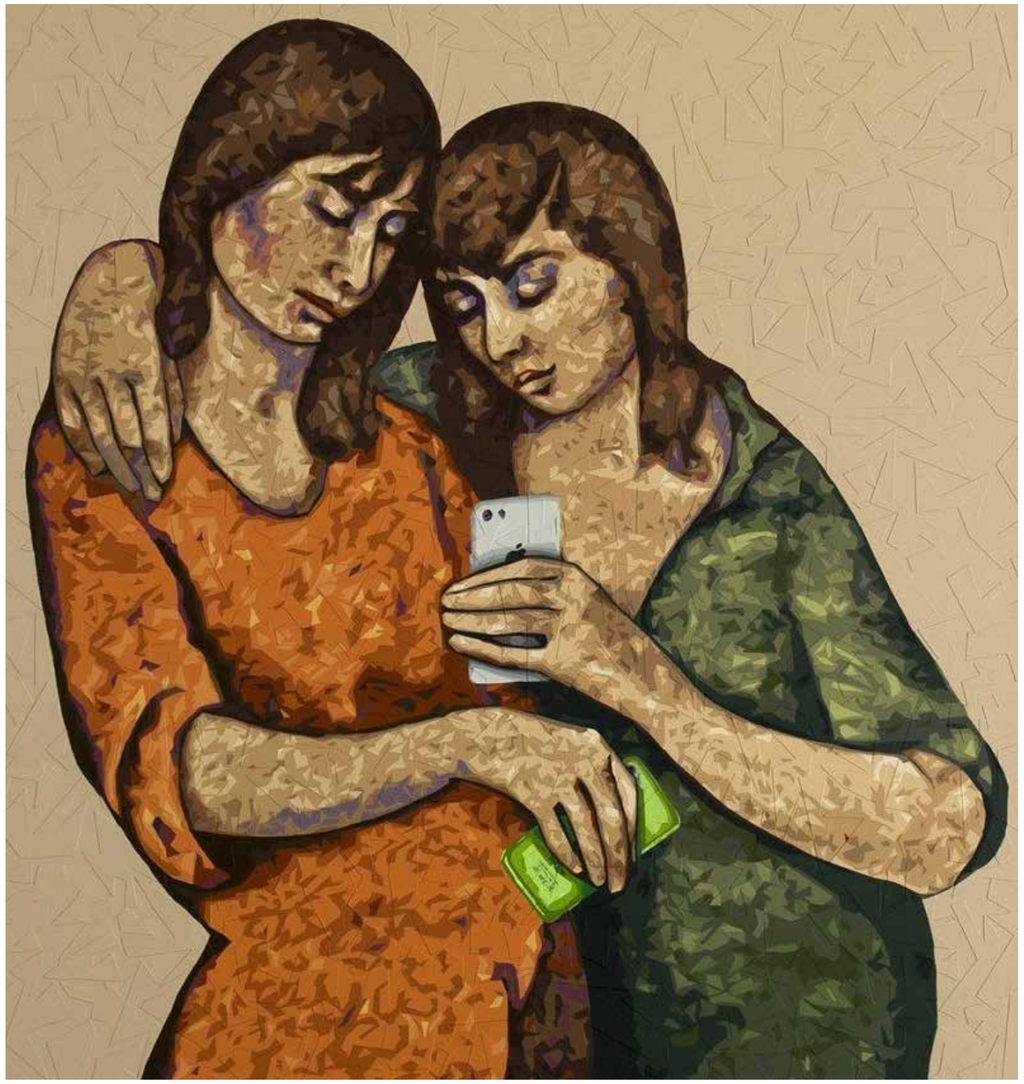

الياس إيزولي

تشاؤم وتفاؤل

مجرد ذكرنا لهذه الأفكار كفيل بأن يضعنا أمام أهمية وخطورة ما يحدث مع، ولأبناء اليوم والمستقبل. إنما ليس كل ما يحدث يبعث على التشاؤم. بل ثمة فوائد كثيرة وأكيدة حظي بها الجيل اليافع، «الجيل الديجيتالي»، الذي نحن معنيون به هنا، من تطورات وتحديثات هذا المستطيل الصغير الذي يرافقهم أينما ذهبوا حتى وإن قصدوا سريرهم مساء إلى النوم. فقد استخدمت الهواتف الذكية وغيرها من الآلات الإلكترونية في مجال التربية، وساهمت في تقديم كم كبير ومتنوع من المعلومات شأنها شأن مكتبة هائلة فيها الثمين والرخيص في آن واحد، وتتطلب معرفة وأدنى حدّ من الوعي الفكري والثقافي لتحديد الفرق.

وجب لأجل ذلك النظر إلى الهاتف المحمول وكل الوسائط التكنولوجية المُشابهة بخوف

أقل. والاهتمام بما يُمكن أن تجلب من منافع دون أن تدمر الشيء الذي لا يزال حتى الآن أساسيا وهو إنسانيتنا وكل ما تعنيه من معاني وقيم وتطلعات.إضافة إلى ذلك وجب أن تستقر النظرة للجيل الديجيتالي عند محور الوسط في ما بينهم وبين العالم الذين يعشيون فيه. وأن تسعى هذه النظرة إليهم وتتلقاهم بوصفهم كواكب مُحتشدة ولكن منعزلة عن بعضها البعض في كون/عالم تكثر فيه حالات الاكتئاب، والغزارة الهائلة في المعلومات والأخبار المتناقضة.

كواكب مُحتشدة ومنعزلة ولكن على تراصف طولي/ خطي مع العالم الذي يختبرونه واقعياً وافتراضيا على السواء.

هذه المقاربة لهؤلاء اليافعين قد يترتب عنها بعض الخلل في منظومة النظرة إلى علاقة الزمن بالمكان، وأساسية هذه العلاقة بالنسبة لنا كبشر.

ولكن أليس هذا الخلل بات واقعا قيد المُساءلة والدراسة وفق ما توفره مؤخرا الاكتشافات والاختبارات العلمية؟. المقاربة هذه، هي مجرد محاولة لردم حفر الخوف من الآتي وللتخفيف من الآثار الجانبية التي تترتب على استخدام التقنيات البحثية والمعلوماتية والترفيهية الحديثة.

حادثة صاعقة!

من ضمن هذا السياق حدث أن واجهت واحداً من هذه «الكواكب»، أي فرداً من «الجيل الديجيتالي». كان تلميذا في الرابعة عشرة من عمره يبكي بحرقة كبيرة في حديقة مدرسته.

Sve

اقتربت منه يومها ودار بيننا الحديث التالي، سألته:

- ما بك، لماذا تبكي؟

في صوت بالغ التهدج أجاب:

- أخذ الناظر مني هاتفي الجوال.

- لماذا فعل ذلك؟

- لأنه كان بيدي في الصف.

- أنت تعلم بأنه ممنوع استخدامه في الصف.

- ولكنني كنت أنظر إليه فقط! يريدني الناظر أن أذهب إلى المسؤولة عن مصادرة التلفونات كي أعترف بخطأي. أي خطأ؟ لم أخطئ بشيء!

- لماذا البكاء إذا، سوف ترده إليك.

استطرد الصبي قائلا وقد ازداد بكاؤه:

- لا لن ترده إلا عند آخر السنة.. هل من الممكن أن تأتي معي وتتكلمي معها؟ أنت تعرفين أنني تلميذ جيد ومهذب. أرجوك.

يُطلق تعبير «الجيل الديجيتالي» على فئة من البشر الذين نشأوا وهم على اتصال متواصل مع عالمهم من خلال الشاشات الديجيتالية، وأيضا على تماس مع تقنيات مختلف وسائل الاتصال الحديثة وتطورها الدائم، ويتميزون بمعظمهم بقصر فترة التركيز على أي عمل يقومون به مما خلق ولا يزال مصاعب في المجالات الأكاديمية استنفرت الخبراء في التربية ودفعت بالأساتذة إلى ابتكار وسائل تعليمية يتم فيها استخدام التقنيات الجديدة لأهدافهم التربوية

أمام شدة انفعاله وإلحاحه توجهت معه إلى «المسؤولة عن المصادرات» لتسمع منه الحديث نفسه. عندئذ قالت له:

- اعتذارك مقبول ولكن سيبقى معي التلفون حتى آخر السنة. هذه هي القوانين.

هنا، انهار التلميذ تماماً.

- ولكن لماذا أحضرتني إلى هنا لتذليني فقط؟

فوجئت السيدة من كلامه فعاجلته بالقول:

- المدرسة لا تريد إلا مصلحتك.

فأجاب بصوت ضعيف ببضعة كلمات كانت كفيلة بأن تجعلني أطلب من المسؤولة أن ترده له شرط أن يتعهد أمامها عدم استخدامه في المدرسة وليس فقط خلال وجوده بالصف وذلك حتى آخر السنة الدراسية. لكن المسؤولة رفضت. فسارع التلميذ بالقول:

- أنت لا تفهمين. لو كنت تفهمين لما كنت فعلت هذا بي. إنه حياتي كلها.. أتفهمين؟ قتلتني !

ما الذي يشكل «كل حياة» الصبي؟ وما الذي «يقتله» غيابه إن هو غاب؟ هل مجرد المستطيل الأرعن الذي يرافقه أينما ذهب؟ لا، إنما ما يشكل حياة الصبي هو وجه المستطيل المضيء، البوابة السحرية والشفافة التي ما إن يلامس إصبعه موضعا ما من مساحتها حتى تستجيب له وتتفتح له على عالم يختار قوانينه، وربما يفهمه أكثر مما تفهمه، على الأقل برأيه، «المسؤولة عن المصادرات» وباقي الناس من حوله.

أسلوب عيش

قد يكون المثال الذي قدمته من الأمثال القصوى، ولكن من يقضي بشكل يومي مدة لا تقل عن سبع ساعات في وسط ما يقارب 800 يافع متبرم من تحولاته ومن ضغط تحصيله لأعلى الدرجات العلمية يعرف أن الجوال المحمول هو أسلوب عيش وليس مجرد أداة تسلية، أو أداة اتصال بأحدهم. ثقافة، أو صيغة عيش باتت متأصلة في حياته ولا يمكن للصبي أن يتخيل عالمه الواقعي دون هذه الصيغة وقوانينها، كما يشكل حرمانه ممّا يقدمه الجوال من نمط عيش نوعاً من التعدي على حريته الشخصية التي هي أكثر تبلوراً مما كانت تتطلبه الأجيال السابقة.

لم تنته قصتي هنا مع محاولة الإنقاذ الافتراضي لحياة صبي، هو من ألطف وأبرع التلاميذ في استخدام مخيلته في مادة الفن والملتيميديا.

فمنذ شهر تذكرته لدى انتسابي إلى ورشة تدريب وعمل حول أساليب التعليم المعاصر، لمعرفتي بأنني مازلت دخيلة على عالم التربية «المريب» الذي كرهته منذ أن كنت صغيرة والذي قذفتني إليه الظروف منذ بضعة سنوات.

لم أشعر بمثل الملل والإحباط اللذين شعرت بهما خلال الساعات الثماني التي توالى فيها خبيرات وخبراء على مشاركتنا أساليبهم التعليمية في تقديم وتقييم التطور الذهني والعلمي للفئة العمرية التي تمتد من العاشرة إلى السابعة عشرة من العمر.

نظام خانق

القدر الهائل والمطلوب من النظامية في التعاطي مع ذاتنا ومع التلامذة وجدته خانقاً إلى درجة سريالية، ربما لأنني لست مكلفة إلا بتعليم الفن والملتيميديا. كما كانت قدرة الخبراء خلال ورشة العمل على تفسيخ وتجميع فكرة واحدة تحت مُسميات مُختلفة تفوق قدرتي على الاحتمال وهي حتما، وإن بالنسبة لي، لا تنتمي إلى نمط التفكير المعاصر والمُنفتح على أخطر الانزلاقات. كما وجدت فيها عبثية مُسيئة للمُتلقي، أي التلميذ، كما لأي أستاذ ينتمي إلى هذا الزمن.

وجدتني أتخيل إخضاع التلامذة إلى أضيق الممارسات التي، على الأقل برأي، تختلف كثيراً عن طبيعتهم (وطبيعتي) وتخالف كونهم أبناء العوالم الافتراضية بامتياز حيث تكمن الشواذات من ضمن أصلب القواعد تماسكاً.

عند انتهاء ورشة العمل وجدت نفسي أفكر أكثر بما قد يجده التلامذة مُملاً في مسار التربية المعاصرة وفي المقابل ما يجدونه صاخباً وجذاباً وبديلاً عنها وعن غيرها من نشاطات واقعية في هواتفهم المحمولة التي لا تفارقهم. هواتف محمولة تتحمل بمعظمها استقدام كم هائل من البرامج الإلكترونية الموجودة على أجهزة الكومبيوتر الأكثر تطوراً، والتي يمكن بدورها وعلى طريقتها أن تلقنهم «دروساً» كثيرة تنبض حيوية وسرعة تشبه عالمهم القلق والمُتسارع.

عندما طُلب منا في آخر الورشة التدريبية أن نكتب كيف تبلورت نظرتنا إلى كيفية التعامل مع هؤلاء اليافعين بشكل عام، وجدتني أتذكر التلميذ إياه وقد بت أكثر اقتناعا بما كنت أفكر به قبل انتسابي لورشة العمل.

من يقضي بشكل يومي مدة لا تقل عن سبع ساعات في وسط ما يقارب 800 يافع متبرم من تحولاته ومن ضغط تحصيله لأعلى الدرجات العلمية يعرف أن الجوال المحمول هو أسلوب عيش وليس مجرد أداة تسلية، أو أداة اتصال بأحدهم. ثقافة، أو صيغة عيش باتت متأصلة في حياته ولا يمكن للصبي أن يتخيل عالمه الواقعي دون هذه الصيغة وقوانينها، كما يشكل حرمانه ممّا يقدمه الجوال من نمط عيش نوعاً من التعدي على حريته الشخصية

كتبت التالي «التعليم المعاصر في أقصى حالاته يجب أن يكون قائما على مقاربة حدسية/ فردية نحو من يصعب مقاربتهم (اليافعين في السن) لأنهم كواكب مُستوحشة تكتنز مخاوفها وتحاول ترجمة ابتهالاتها الشخصية جدا في عالم يضيق عليهم ويتسع في آن واحد».

أليكس غروس والفتى بالأزرق: حرب تُشن على حروب

تكاد لوحات الفنان التشكيلي الأميركي «أليكس غروس» تختصر ما هم عليه معظم اليافعين في السن في هذا العصر وفي علاقتهم الشخصية مع جوالهم المحمول. ويطال ما يصوره الفنان، الجيل العربي مع تفاوت في درجة الإصابة. وإن اعتبر الكاتب «لويس كارول» في روايته «أليس في بلاد العجائب»، أن «الخيال في زمن الحرب هو السلاح الوحيد ضد الواقع» فذلك ينطبق بالتمام والكمال على ما يُمكن اليوم أن يُطلق عليه بالجيل العربي الذي ينفذ إلى داخل جواله ليحلم أو ليرسل نداءات إنذار مُبطنة أو ليُشارك افتراضياً في الحرب على.. حروب الراشدين.

عمد الفنان «أليكس غروس» وبشكل جلي على تصوير الجانب المظلم من حياة هؤلاء اليافعين الذين وجدوا في الهواتف المحمولة جحيمهم، ولكن أيضا ملاجئهم المُسلية والمريحة ربما لأنها، أي تلك الهواتف، لا تملك الحق التربوي الصارم في «لفظهم» إلى خارجها، إلى خارج «الجحر» كلياً كما حدث على السواء مع الصبي الذي صادفته في ملعب المدرسة و«أليس» في رواية أليس في بلاد العجائب.

«أليس»، الفتاة التي، للمفارقة، عادت إلى أهلها وإلى حياتها «الواقعية» باهتمام جلي ونضج أكبر من دون أن تخسر الجانب الحالم من شخصيتها الذي يؤكد لنا الكاتب بقاءه من خلال أدلة مادية رافقتها إلى خارج جحر الأرنب وأكدت لها أن ما عاشته لم يكن حلماً البتّة.

الأكثرية الساحقة من اليافعين الذين رسمهم الفنان الأميركي أليكس غروس، نجد أشباههم في بلادنا العربية أيضاً وإن على درجات مختلفة من الحدة. في لبنان مثلا، ليس هناك أي مبالغة إن قلنا إن اللوحة التي رسمها

اليكس غروس

الفنان السوري «إلياس إيزولي» ويظهر فيها مراهق أزرق اللون ومعه هاتفه الجوال المتصل بسمعات موضوعة في أذنيه، وخلفه كائن أسطوري يحمل حقيبة تحمل ماركة مسجلة عالمياً، ممكن أن تكون لوحة عن الصبي الذي ذكرته آنفا لأنه يشبهه كثيراً خاصة في نظراته وفي التعبير المرسوم على شفتيه.

اليفاعة الكئيبة

يُمكن، وإن بشكل عام إدراج أثر ما تقدمه الهواتف المحمولة لليافعين في خانتين. الخانة الأولى تتعلق بقدرتها على تشكيل قيمهم الأخلاقية والاجتماعية. معظم هذه المبادئ والقيم يكرسها العالم الاستهلاكي الذي يتكون بدوره من ناحية من المُنتج/المُسوق الفارض لثقافته، ومن ناحية أخرى من المُستهلك الأضعف والمُتلقي لتلك الثقافة بأشيائها وأفكارها.

أما الخانة الثانية والتي لا تنفصل كثيراً عن الأولى تتعلق بأثر ما تشكله وتقدمه الهواتف المحمولة من إمكانات اللهو، وإقصاء للملل المُتأتي خاصة من وفرة الموجودات وسهولة اقتنائها، وردم الصمت باعتباره آفة.

وتتضمن الخانة الثانية ما تؤمنه الهواتف المحمولة من شبكات التواصل الاجتماعي التي يصعب إحصاؤها، من أمثال الفيسبوك والإنستغرام، والواتس آب والسناب شات وغيرها، وما يلمع نجمه منذ فترة غير طويلة وهو تطبيقات الواقع المضاعف التي «تعبث» بالواقع المادي إضافة أو انتقاصا.

تغص لوحات الفنان أليكس غروس بأكثريتها الساحقة بالأيقونات البصرية للمجتمع الاستهلاكي. الماركات المسجلة والباهظة الثمن، الأكل الجاهز والسريع، ونجوم السينما، وتفاصيل من عالم الألعاب الإلكترونية الشاسع كلعبة «كاندي كراش» وغيرها، وبالتالي تأثيرها في تشكيل هوية الأفراد اليافعين. هؤلاء يملأون لوحاته بينما يغيب عنها بشكل شبه كامل الراشدون. تحضر في لوحاته أيقونات لافتة، ورسائل دعائية تقع تحت تأثيرها خاصة الفئة العمرية اليافعة، التي غالبا ما تتعرض لها من خلال استخدامها شبه المتواصل للهواتف المحمولة على أنواعها وذلك حسب العديد من الدراسات النفسية/السوسيولوجية.

ويشكل تعرض اليافعين وتأثرهم بها عاملا أساسيا في تكوين شخصيتهم الاجتماعية، وسرعة اندماجهم في مجتمع يريدون من

تكاد لوحات الفنان التشكيلي الأميركي «أليكس غروس» تختصر ما هم عليه معظم اليافعين في السن في هذا العصر وفي علاقتهم الشخصية مع جوالهم المحمول. ويطال ما يصوره الفنان، الجيل العربي مع تفاوت في درجة الإصابة. وإن اعتبر الكاتب «لويس كارول» في روايته «أليس في بلاد العجائب»، أن «الخيال في زمن الحرب هو السلاح الوحيد ضد الواقع» فذلك ينطبق بالتمام والكمال على ما يُمكن اليوم أن يُطلق عليه بالجيل العربي الذي ينفذ إلى داخل جواله ليحلم

ناحية أن يشبهوه ومن ناحية أخرى أن يثوروا عليه.

في خضم الكم الهائل من المفردات والرموز المعاصرة في معظم لوحات الفنان الأميركي تسير أو تجلس أو تتصرف شخوصه كما لو كانت مخدرة، زائغة بعيداً عما يحدث من حولها. كما تنضح من ملامحها نظرات حزينة تائهة حتى وهي ضمن حشود متجانسة من البشر.

أما «الحشود» المتجانسة شكلياً فهي لا تعبر في لوحاته عن مفهوم التواصل أو التعاضد الاجتماعي، بل هي عبارة عن مجموعات من أفراد قد تكون تعرف بعضها البعض ولكن لا يتحقق حضورها فعليا في عين الآخر إلا إذا وجدت طريقها افتراضيا بهيئة صور شخصية إلى شاشة جواله المحمول. شخوص هي باختصار شديد ناطقة بثلاثية الزمن المعاصر: الكآبة والوحدة والملل.

أبناء الضوء الأزرق

«مهما كان الأمر، أنا ممتن لهم لأنهم اخترعوا القنبلة الذرية. إن حدث وانطلقت أي حرب أخرى سأتحمس لجحيمها ولسوف أتبرع للقتال. قسما بالخالق!» هذا ما ورد على لسان المراهق الثائر على كل شيء حتى على ذاته في الرواية الشهيرة «الحارث في حقل الشوفان» للروائي جي. دي. سالينجر.

ظهرت هذه الرواية سنة 1951 قبل عصر الإنترنت بما يقارب أربعين سنة، لكنها تتخطى كمعظم الروايات المفصلية عصرها ومكانها. بطل الرواية يكاد أن يكون «عينة بشرية» عما يمكن أن تكون الحالة النفسية لمراهق متورط في هاتفه الجوال حتى الإدمان.

كلامه وموقفه من الحياة ومن ذاته إشارة حادة إلى الزمن المعاصر وإلى الجانب السلبي من ثقافة الهواتف الذكية عبر تمظهرات العدوانية الكامنة تجاه الذات والآخر والرغبة في التماهي مع بطولة ما حتى وإن كانت جحيمية في تجلياتها. وفي صميمها موقف ضد الحروب وإن بشكل مُبطن ويدّعي العكس. وهناك أيضا حضور مدوّي للسأم الذي ساق بطل الرواية إلى قلب عالم خيالي ابتكره لذاته كما يبتكر المهندسون الألعاب الإلكترونية الموجهة لليافعين في السن.عالم يحتار فيه أن يكون نرجسياً، كسولا، كارهاً، مجرماً، لامباليا، أو أن يكون متعاطفاً، حماسياً،

عاشقاً، ومنقذاً.

الدراسات الاجتماعية/النفسية الجدية التي أثنت على اهتمام اليافعين بالتحول إلى عوالم خيالية على صلة قوية مع الواقع وبالتقاط الصور الشخصية المعروفة «بالسلفيز»، أشارت في الوقت ذاته إلى أن الإفراط في هذه الممارسات يغذي الحس النرجسي عند الفرد إلى حد غير محمود، ينتج عنه آفات اجتماعية كثيرة كالعزلة والشعور بالوحدة والعداونية تجاه الذات والآخر.

من ناحية أخرى يشير الخبراء في علم الاجتماع إلى أن إفراط مُستخدم المحمول الذكي في التقاط الصور الفوتوغرافية لكل ما هو موجود أو يحدث من حوله سينمي عنده حس المُشاهدة على حساب انخراطه في الحياة اليومية ومُشاركته للآخرين في أعمالهم واهتماماتهم.

كما تشير الدراسات إلى أن ما تغير على وجه التحديد ما بين جيل ما قبل الإنترنت و«جيل السلفيز» ليس فقط كيفية إمضائه معظم أوقات فراغه منغمسا بالهواتف الذكية بدلاً عن ممارسة النشاطات الاجتماعية أو اللعب في الأماكن الحرة، بل تبدل نظرته كلياً إلى العالم الذي يعيش فيه.

ظواهر متلاحقة

يخلص الخبراء من مختلف أرجاء العالم إلى أن الهواتف المحمولة بين يدي هذا الجيل يجعله أكثر كسلاً وانعزالية وحزنا وليس بالعكس. فقد يبقى الفرد منهم يوما كاملاً برفقة أصحابه أو مع والديه وأقرانه دون أن يتحدث معهم أو ينتبه إلى ما يقولونه إلا بعد عدة محاولات للفت نظره إليهم.

من أخطر نتائج انغماس «جيل السلفيز» أو «الجيل الديجيتالي» بعوالم الجوال المحمول الذي يعج بحيوات افتراضية ومغامرات خارقة وألعاب بالغة الخيال في نسيجها الحكائي والبصري هو ميلهم إما إلى مقاربة الحياة والموت وكأنهما أمر واحد، أو الاستخفاف بقيمة حياته الشخصية أو أهمية حياة الآخرين. وقد شاهدنا مصرع العديد من اليافعين وهم يقدمون على التقاط صور شخصية لهم أثناء تعريض ذواتهم لظروف خطرة كالوقوف على حافة نافذة أو على قمة جبل مُشرف على هاوية.

من جهة أخرى يؤكد علماء النفس أن ليس كل يافع ومُستخدم نهم للجوال الذكي سيصيبه اكتئاب حاد أو سيصل إلى فعل

على الرغم من أن المعرض تضمن مجموعة من اللوحات التشخيصية، التي مثلت بالنسبة للفنان حالة كل من مكث في سوريا خلال السنوات السبع الأخيرة فهي تحيل المُشاهد العربي على أسئلة كثيرة أبعد من زمنها ومكانها وتتعلق بالمعاصرة، وأثر أدواتها الإلكترونية التي أخرجت اليافعين من جنات البطء واستدرجتهم إلى عوالم فيها الكثير من مسببات العزلة والسأم الذي كثيرا ما أدى ويؤدي إلى تمتين النزاعات بين أفراد العائلة والمجتمع الواحد

الانتحار أو القتل. لكن من المؤكد أن من لديهم انطوائية أو صعوبة في التكيف مع البيئة المحيطة أو يعيشون وسط عائلات مأزومة أو ظروف قاهرة (وهم كثر في هذا العصر) هم مرشحون أساسيون لذلك.

يكفي ذكر لعبة «الحوت الأزرق» وما تسببت فيه، بمقتل أكثر من مئة وعشرين يافعا، قبل أن تلقي السلطات القبض على مبتكرها وهو روسي الجنسية لندرك حجم الأذى الذي يمكن أن يكون لاستخدام تطبيقات سهل الوصول إليها عبر الوسائط الديجيتالية والأكثر تداولاً منها، الهواتف الذكية.

كما تعتبر ظاهرة «التنمير» عبر شبكات التواصل الاجتماعي أو ما يُسمى بـ«السايبر بوليينغ» التي يمارسها اليافعون في السن ضد بعضهم البعض للتنفيس عن غضب أو ضغط ما في تصاعد، وتعد من أهم أسباب انتحار اليافعين عالمياً، وهي ظاهرة تحظى حالياً باهتمام متزايد من جانب الاختصاصيين.

في سياق آخر ولكن منسجم تماماً مع مخاوف الاختصاصيين في مجال عالم النفس والاجتماع يعتبر الأطباء وعلماء الصحة أن إدمان اليافعين على الهواتف الذكية يؤثر سلباً على نظرهم لأن الضوء الأزرق المنبعث من شاشاتها في عتمة الليل يؤدي من ناحية إلى إضعافه ومن ناحية أخرى يصيبهم بالأرق، في حين أنهم بحاجة إلى ثماني ساعات من النوم المريح لكي يكتمل نموهم.

من الوردة إلى الموبايل إيزولي يستلهم كيالي

اشتهر الفنان التشكيلي السوري الرائد لؤي كيالي (1934-1978) من خلال لوحاته بانحيازه العاطفي إلى الفقراء والأطفال والطبقة الكادحة واشتهر بلوحاته التي رسم فيها نبل هؤلاء في مزاولة أعمالهم وصمتهم ولحظات راحتهم وتأملاتهم في مجهول مُقلق. نذكر من لوحاته تلك التي صور فيها بائع اليانصيب والصحف والصيادين، وبائع الذرة، وبائع اللبان، وبائع المسبحة، ومرمم الشباك، وحلاق القرية، وراكب الدراجة، والغسالة، والأم وطفلها، وقاطفو القطن وغيرهم من أهل الواقع المُنهك.

على وقع أعماله الرائعة وبعد أكثر من أربعين سنة قدّم الفنان التشكيلي السوري إلياس

إلياس إيزولي

إيزولي سنة 2016 معرضاً في صالة «أيام» في بيروت أطلق عليه عنوان «تواصل» يحاكي فيه بشكل مباشر لوحات الفنان التشكيلي الرائد لؤي كيالي ولكن من منظور معاصر استبدل فيه انشغالات شخوصه وأشياءها بأيقونات معاصرة لها علاقة بتكنولوجيا التواصل وبالعولمة التي تسوّق لأفكارها وأهدافها عبر تصديرها لبضائعها وخاصة إلى الدول النامية وما يسمى بدول العالم الثالث.

فعلى سبيل المثال نذكر اللوحة التي رسم فيها الفنان كيالي فتاتين تحملان ورودا. استبدلها الفنان إلياس إيزولي بهواتف محمولة دون أن يزيل ملامح الحزن عن وجهيهما. وأيضا نشير إلى اللوحة التي يجلس فيها يافع حالم في مقهى وبيده هاتف محمول. ومن هذه اللوحات نذكر أيضا اللوحة الشهيرة لكيالي التي بدا فيها «ماسح الأحذية» هذه المرة منهمكاً في الاستماع إلى الموسيقى عبر جواله المحمول.

أما لوحة «بائع الورد» فقد ظهر فيها الصبي يحمل قطعة شوكولاتة مغلفة بورقة «الكيت كات»، الماركة الشهيرة المستوردة بدلاً من حمله للأزهار.

ولم يتوان الفنان إلياس إيزولي، ولكن بوعي شديد وفنية عالية تحمل بصماته اللونية والتقنية الخاصة، من أن يقارب اللوحة ذائعة الصيت لكيالي «ثم ماذا؟» التي رسمها من وحي نكبة فلسطين سنة 1948 والتي أدت إلى سلخ الشعب الفلسطيني عن أرضه، وكذلك هزيمة 1967 التي أفرزت حالة من اليأس العارم بعد سلب الصهاينة كامل الأراضي الفلسطينية.

استبدل الفنان إلياس إيزولي في نسخته الفنية المعدلة لوحة «ثم ماذا» الرجل المنكسر بين جوقة نساء في الحداد، بسوبرمان البطل الخارق/الأميركي الذي يُروج له اليوم أكثر من قبل الزمن المعاصر من خلال الهواتف وباقي أجهزة التواصل المحمولة وغير المحمولة.

علق الفنان إيزولي على معرضه «تواصل» بهذه الكلمات «انطلقت فكرة المعرض من مبدأ الثابت والمتحرك.. في ما يرتبط بحالة الإنسان

الياس إيزولي

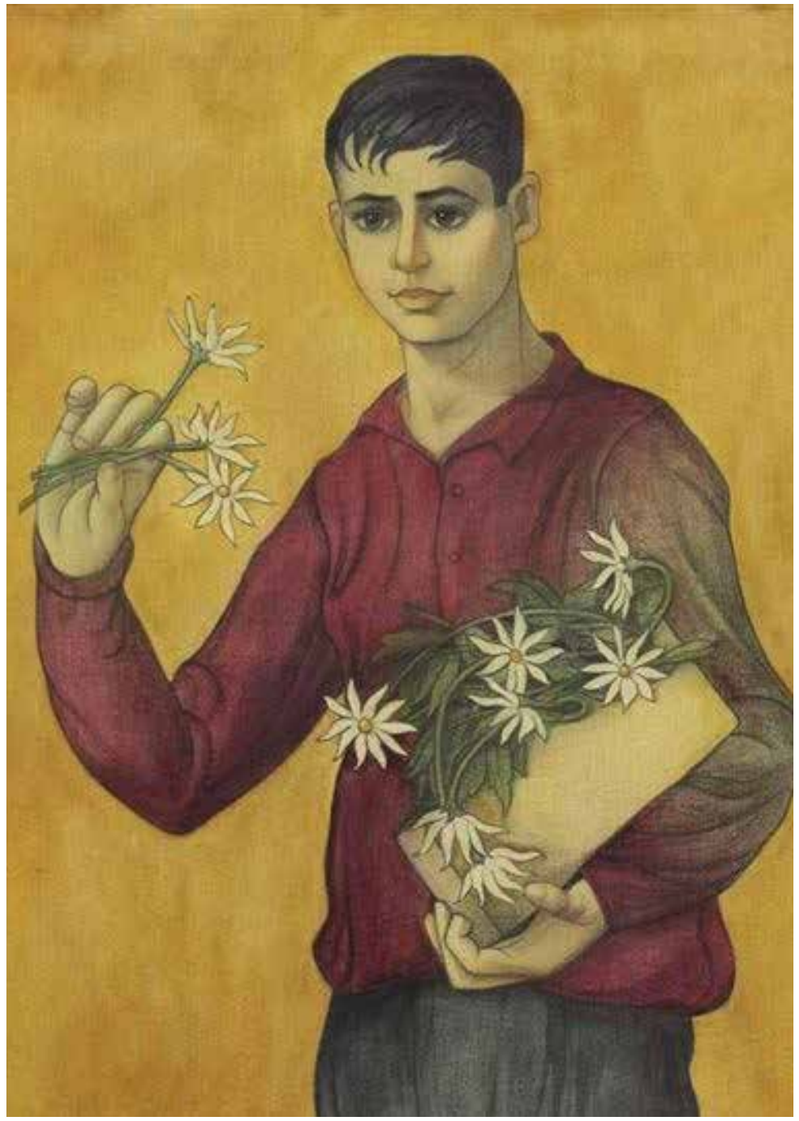

بين الماضي والحاضر، وكان الأقرب إلي والأحب إلى نفسي أعمال فنان الإنسانية لؤي كيالي. أنا لم أتطلع إلى شهرة من خلال محاكاتي لأعماله، بل أردت رصد الواقع الإنساني الذي لا يزال مفقوداً حتى يومنا هذا».

وما الواقع الإنساني الذي ذكره الفنان إلياس إيزولي آنفاً إلا هذا الذي شرذمته تكنولوجيا التواصل الحديثة وزرعت بذاره الإلكترونية في بنيان اليافعين في السن، خاصة هؤلاء الذين لم أو لن يحظوا برعاية كافية تحميهم من السقوط عميقاً في متاهاتها المؤذية والكثيرة.

استطاع الفنان إلياس إيزولي، وبأسلوبه الفني الخاص من أن يؤكد على أهمية أعمال الفنان كيالي من خلال ما تعكس من آلام شعوب المنطقة العربية بشكل عام والسوريين والفلسطينيين بشكل خاص ولكن مع الإشارة إلى مساهمة العولمة والاختراعات التكنولوجية في تكريس الحزن والملل إياه.

استُبدلت الأشياء، وتغيرت الأيام وتوالت السنون ولا يزال الملل والشعور بالعزلة في ملامح نظرات شخوص اللوحات، لا سيما اليافعين في السن الذين تعج بهم لوحات الفنان لؤي كيالي والفنان إلياس إيزولي.

يكفي أن تسير في شوارع مدينة كبيروت لتجد جمهرة من الصبيان أو اليافعين جالسين سوياً أو فرادى على قارعة الطريق تحت أشعة الشمس وفي وضح النهار خارج المدارس والأشغال وهم منهمكون بجوالاتهم التي لم تفلح في محو الإرهاق ولا الملل ولا اليأس من على وجوههم.

سبع سنوات وأكثر

إذا كانت لوحات معرض «تواصل» المشغولة بأسلوب فني وفكري فذ وخاص بالفنان إيزولي مسكونة بشخوص يافعين تؤكد لنا من جهة على مصداقية ورؤيوية الفنان لؤي كيالي، وعلى استمرار انعدام الفرح في ظل حضور آلات التواصل التكنولوجية من جهة أخرى، فإن معرضه الأخير الذي حمل عنوان «سبع سنوات» 2018 يبدو تكريسا لحال الأسى المتأصل في روح اليافعين في السن الذين تأصل في نفوسهم ويومياتهم حتى وصل بهم الأمر إلى إهمال ألعابهم التقليدية و«الحديثة» على السواء ليعيشوا عزلتهم وحزنهم ومللهم المنقطع النظير.

وعلى الرغم من أن المعرض تضمن مجموعة من اللوحات التشخيصية، التي مثلت بالنسبة للفنان حالة كل من مكث في سوريا خلال السنوات السبع الأخيرة فهي تحيل المُشاهد العربي على أسئلة كثيرة أبعد من زمنها ومكانها وتتعلق بالمعاصرة، وأثر أدواتها الإلكترونية التي أخرجت اليافعين من جنات البطء واستدرجتهم إلى عوالم فيها الكثير من مسببات العزلة والسأم الذي كثيرا ما أدى ويؤدي إلى تمتين النزاعات بين أفراد العائلة والمجتمع الواحد وذلك وفق الاختصاصيين.

من ضمن الأسئلة التي يطرحها مُشاهد لوحات الفنان على ذاته: ما سر أجواء اللهو التي لا تعرف كيف تتحقق إلا في خيال هؤلاء الأولاد المشدوهين أمام ألعابهم «التقليدية» كدولاب الهواء والطابة والدمية في لامبالاة لافتة وتململ سقيم؟

أجوبة عديدة يمكن سوقها وإسقاطات شعورية متنوعة قد يحلو للبعض أن يصبغوا بها لوحات الفنان إلياس إيزولي، ولكن أغلب الظن أن معظم الزائرين يفضلون الخروج من الصالة وهم يتساءلون:»من هم؟ من نحن؟، وثم ماذا» وفق أسلوب «كيالي» الواضح. ماذا بعد اجتياح أجهزة التواصل الإلكترونية ومن ضمنها الجوال حياة اليافعين العرب؟

عودة إلى التلميذ والموبايل

على الرغم من كل الإيجابيات التي تحملها

الياس إيزولي

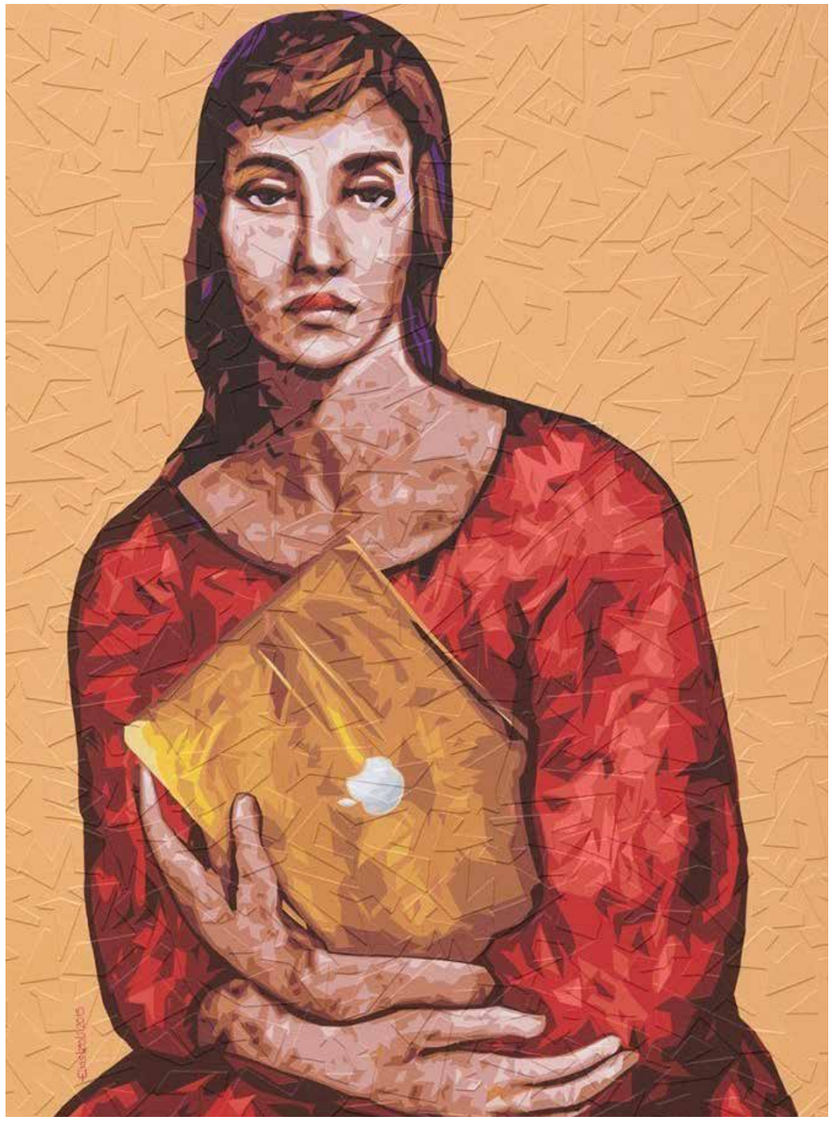

التطورات التكنولوجية التي لا يمكن إنكارها إلا أنني أميل إلى نوستالجيا وردية اللون خلافا لزرقة لوحات إلياس إيزولي. أميل إلى العودة بالذاكرة إلى الصبي/ التلميذ وعينيه الزرقاوين والواسعتين والمغرورقتين بالدموع وهما تنظران إلي لتؤكدان لي، على الأقل حتى الآن، أن إدمان اليافعين في السن لهواتفهم المحمولة تسلب منهم إدراك جوهر حريتهم وحدودها والتلذذ بعذوبة نومهم. نوم مؤسس ومُرمم على السواء وذلك قبيل أن ينخرطوا بشكل تدريجي في عالم الراشدين الشائك الذي يفيض بالشرور المتعاظمة.

وداعا للبطء، وللشعر ودعوته اليافعين إلى مشاهد بصرية خيالية يصنعونها وفق ما يهوون. ووداعا لملاحظة نسمة هواء تحرك أطراف ستائر شرفة غرفة الجلوس العائلية. وداعا لرحلة في الطبيعة على متن سيارة يُرسل منها اليافعون أنظارهم في تمايل أوراق الأشجار وتألق الضوء من بين أغصانها بدلا ًعن طأطأة الرأس والتحديق المتواصل بشاشة هواتفهم غير مبالين بما يمرون به من مشاهد خلابة خارج نوافذ السيارة.

وداعاً لأحضان دافئة و»بشرية» يعود إليها اليافع بعد كل جولة مواجهة تدريبية مع عالم الراشدين ليتمم بطيب وآمان لحظاتها. وداعاً. فقد عاد الأرنب الأبيض من جديد بحلة جديدة وبأهداف متبلورة، وبيده ساعته المُقلقة التي صارت تدفعه إلى سرعة قصوى خوفاً من التأخر على موعد مع...اللاشيء.

عاد وقد اكتسب ملامح عصرية أهمها عينان تنطلق منهما أضواء «الليد» زرقاء تدفع باليافعين إلى أن يلحقوا به وبساعته الديجيتالية عميقاً في الجحر الاصطناعي خلف شاشة جوالاتهم الرقيقة. شاشات مضيئة وساحرة هي بوابات تدخلهم إلى عوالم ليست لا واقعية بقدر ما هي موازية ومتداخلة مع عالمهم خارج الجحر ليقع الالتباس وتهتزّ الرؤيا.

تشكيلية وناقدة فنية من لبنان

التفاحة التي غيرت العالم

محمد الحجيري

حين حمل السوري الأصل، والأميركي الجنسية الراحل ستيف جوبز آلة «الهاتف الذكي» في يناير من العام 2007، وعد الحاضرين بأن ما يحمله سيغيّر كل شيء. وكان أول هاتف ذكي مجهز بشاشة يمكن من خلاله استخدام الإنترنت والهاتف والاستماع إلى الموسيقى، وبالفعل، أصبح الهاتف الذكي السلعة الأسرع نموا في الانتشار التجاري العالمي.
فتفوّق على مبيعات الكمبيوتر الشخصي أربع مرات.
نحو نصف البالغين في العالم اليوم يحملون هاتفا ذكيا، وفي سنة 2020 سترتفع النسبة إلى 80 بالمئة من البالغين. وبات بعض المراقبين يرددون أن ثلاث تفاحات غيّرت العالم: تفاحة آدم وتفاحة نيوتن، مكتشف قانون الجاذبية، وتفاحة شركة «أبل» التي أسسها جوبز، الرجل الذي مات في 5 أكتوبر 2011.

من يطالع العناوين في وسائل الإعلام الإلكترونية والمكتوبة، يدرك التغيير الذي أحدثته هذه الآلة، إذ نسفت المعايير وقلبت الموازين والعلاقات الاجتماعية، فنقرأ في عناوين المقالات عبارات طبيّة مثل «الهاتف الذكي يغيّر وجه العالم... ويقوّض دور الطبيب» و«الهواتف الذكية يُمكن استخدامها كأداة مُكَمِّلة للمناظير التشخيصية والعلاجية»، واقتصادية «الهواتف الذكية تتسبب بكساد سوق الكتب الدينية»، وتقنية «اختلف المختصون. هل قتل الهاتف الذكي فن التصوير؟» وسوسيولوجية مثل «الهاتف الذكي بيت المراهقين الثاني»، و«العصر الذي نعيش فيه هو عصر الهواتف الذكية والأشخاص الأغبياء» وسياسية «ديمقراطية الهواتف الذكية»، وبحثية «أدب الهواتف الذكية. الشباب يقرأون أكثر من أي وقت»، و«إن الهواتف الذكية لا تحول أي شخص يقتنيها إلى زومبي بل قد تفعل ما هو أبشع!»، و«خلافا للتوقعات، الهواتف الذكية تعيد القراء إلى الكتب التقليدية» و«الصين تعيد اختراع الأدب» وتشاؤمية «في حين تنمو ذاكرة الآلات الذكية، تضمحل ذاكراتنا». هذه ما هي إلا الجزء البسيط من كم العناوين التي تعطي صورة عن «ثورية» الهاتف الذكي في السلب وفي الإيجاب، بين الإفراط في الذكاء والإفراط في تعميم الغباء في الوقت نفسه، فالدراسات تقول إن الأميركي العادي يمضي أكثر من ساعتين في اليوم وهو ينظر في هاتفه الذكي. أما المراهقون البريطانيون فأفادوا أنهم يفضلونه على التلفزيون والكمبيوتر وألواح الألعاب الإلكترونية، فالعلاقة العصابية بالهاتف ظاهرة بلغت مبلغا من الانتشار حمل البريطانيين على اشتقاق كلمة لوصفها «نوموفوبيا»، أو ما نسميه بـ«رهاب فقدان الهاتف الذكي»، ويعني توتر الشخص حينما لا يكون هاتفه الذكي بحوزته، حيث كان استطلاع للرأي على عيّنة من حوالي ألفي شخص، من البريطانيين، قد أشار في العام 2008 إلى أن 58 بالمئة منهم يميلون للتوتر والتعصب، حينما لا يكون هاتفهم الذكي معهم، وتظهر أعراض هذا النوع من الإدمان في علامات كثيرة.

والهاتف الذكي بحسب مجلة الـ«إيكونوميست»، (فبراير 2015) لم يغيّر حياتنا الفردية الشخصية فقط، بل سيغيّر دنيا الأعمال التجارية والصناعية والعلوم أيضا. بل إن الكاتب الفرنسي فرانسيس بروشيه يناقش في كتابه «ديمقراطية الهواتف الذكية: الشعبوية من ترامب إلى ماكرون»، ظاهرة التحول في الممارسة السياسية والديمقراطية في العديد من الدول الغربية من واقع اتساع تأثير خدمات الهواتف الذكية في عمليات الدعاية الانتخابية، وأيضا في توسيع وتسريع فعالية قنوات التواصل بين الساسة والناخبين والمواطنين العاديين بشكل عام. إذ أن الهواتف الذكية التي باتت الآن في أيدي الجميع قد غيرت جذريا من العلاقات الاجتماعية والسياسية، وبفضلها، صار لدى الناس انطباع عام بأن لديهم قوة تأثير مؤكدة، في العالم، هذا التحول الذي كرس نوعا من الديمقراطية المباشرة، دون وسطاء كالأحزاب والهيئات التمثيلية، وهذه القدرة على التغيير سببها آلة الهاتف الذكي الصغيرة الحجم والمتعددة الوظائف.

ثقافة جديدة

غرض المراهقين الأول في استعمال الهاتف الذكي، ليس إجراء مكالمة ولا حتى إرسال رسالة نصية. وهم يجمعون على أن الغاية من الهاتف هي الاستماع إلى الموسيقى، وإرسال رسائل فورية بواسطة تطبيقات مثل «سنابشات» أو «إنستغرام»، ونشر «قصص» مع صور عن حياتهم اليومية، وتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، ومشاهدة شرائط فيديو على «يوتيوب». يترافق ذلك مع أحاديث كثيرة عن تأثيرات سلبية تسببها الهواتف. بعض المتخوفين من تفشي دور التكنولوجيا في حيواتنا، يحذرون من أننا لربما أصبحنا كحيوانات السيرك التي سيتحكّم بها الذكاء الاصطناعي. فالتكنولوجيا الذكية باتت تسونامي تفرض نفسها كأنها نمط حياة تماما كما السينما من قبل، بل تفرض لغتها وناسها وأدبها.

أثر الهواتف الذكية وطوفانها جعلا بعض دور النشر البارزة تبحث عن أطر لكتابة كلاسيكيات الأدب بلغة معاصرة تناسب جمهور الهواتف الذكية، لنتخيل أنه في ذكرى مرور 400 عام على رحيل أبوالإنكليزية المسرحي شكسبير، انتشر خبر مفاده أن دار «راندوم هاوس» قررت كتابة مسرحياته بلغة معاصرة بتكليف روائيين من أنحاء العالم. وأعادت الدارُ التجربةَ من جديد لكن هذه المرة بـ«عصرنة» روايات سيدة الكتابة في المملكة المتحدة جين أوستن. هكذا ستتحول رواية «كبرياء وتحامل» إلى «مؤهل للزواج» للكاتبة الأميركية كورتس سيتينفيلد، التي لقيت سيلا من الانتقادات لأنها ذهبت بها إلى أقصى حدود العصرنة ما أفقد شخصيات أوستن هالة المثالية التي أحاطت بها. جوبهت رواية سيتينفيلد بانتقادات حادة أبرزها أنها تخلت عن العمق الأدبي لمصلحة السخرية اللاذعة.

هجر اللغة الكلاسيكية التي كُتبت بها أعمالٌ لصالح تقديمها بلغة تواكب مستلزمات الحياة المعاصرة الإنترنتية، يبدو أقرب إلى عملية تدمير هالة تلك النصوص.

«الأدب اليوم في ظل عالم افتراضي لم يعد يأبه كثيرا باللغة والأحاسيس العميقة وبالنظم التي ابتدعها سابقا، أصبح في خطر حقيقي، ومهددا بالانتفاء»، هكذا قال الروائي واسيني الأعرج، في مقال له؛ فقد اتسع العالم الافتراضي ليبتلع كل شيء، ونحن نكتب عن الهواتف الذكية وأثرها، يحضر في ذهننا مقال الفيلسوف الألماني فالتر بنيامين «العمل الفني في عصر الاستنساخ الآلي» (1936)، ويدرج العنصر الذي جرت تصفيته في الفن خلال القرن الماضي وهو «الهالة» التي تطير في استنساخ الأعمال الفنية، والأمر نفسه في «عصرنة» الكتب الكلاسيكية، وتجريدها من زمنها.

تفاحة ستيف جوبز غلبت بشهرتها تفاحة آدم

آبل ... التفاحة الكونية

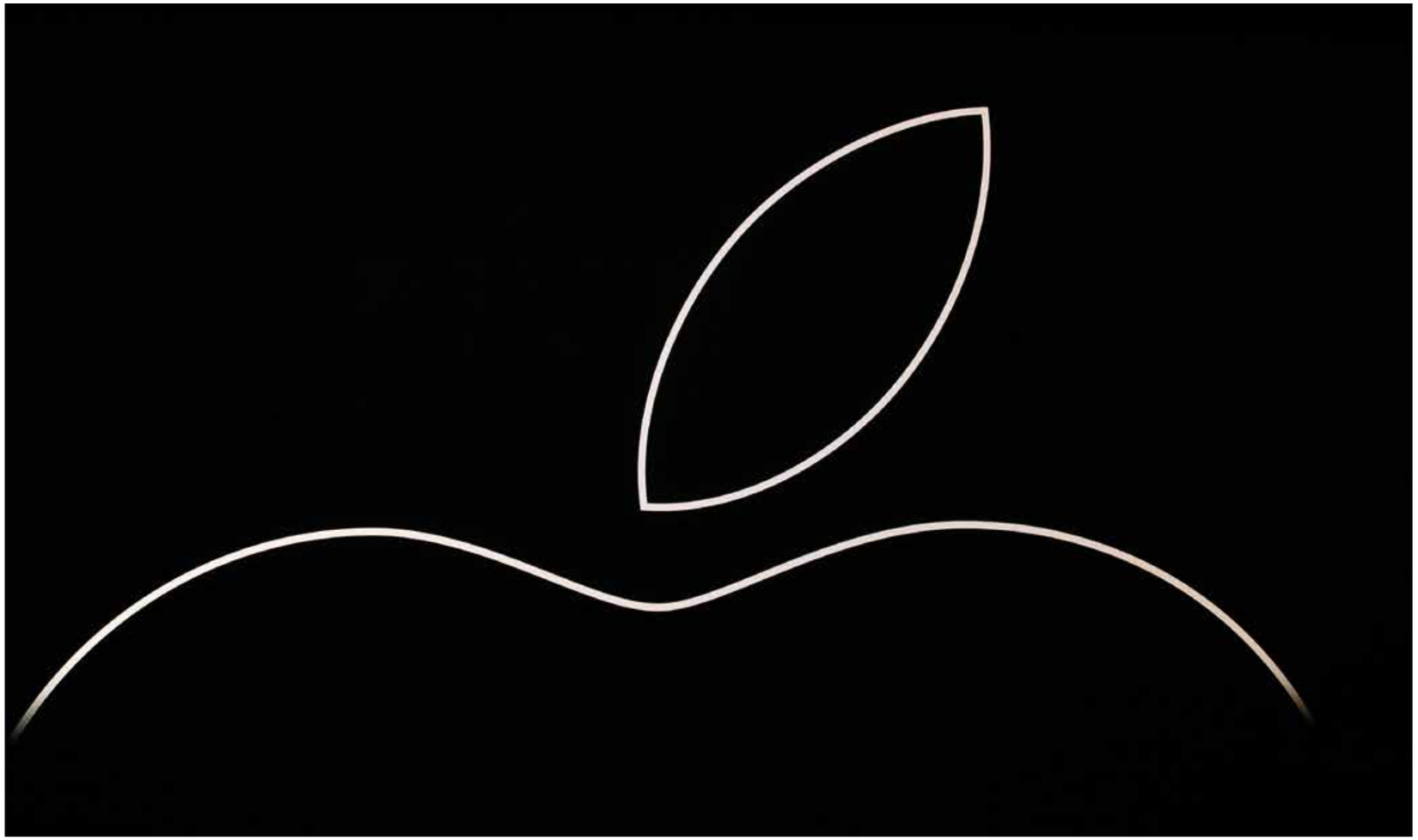

جنوح وتراجع

ليست هناك نتائج حاسمة وموحدة حول تأثير الهاتف الذكي على الكتب وثقافة المعرفة والناس، فأثر هذه الآلة بين الهبوط والصعود، بين الجموح والتراجع، يكتب الصحافي آدم مينتر في صحيفة بلومبيرغ» «قد تؤدي الهواتف الذكية إلى هلاك المطبوعات في الصين وانقراضها، لكنها في الوقت ذاته تحدث ثورة في الأدب، حيث قرأ 333 مليون صيني خلال العام الماضي 2017 روايات تمت كتابتها خصيصا لهواتفهم وأجهزتهم، بحسب بيانات حكومية. ففي نهاية التسعينات، بدأ مؤلفون في نشر روايات مسلسلة على منتديات ولوحات نشرات على الإنترنت؛ وكانت تلك طريقة نشر غير رسمية وبعيدة عن أعين الرقابة، وحظيت بعض الروايات الأولى، وبخاصة الرومانسية منها، بشعبية كبيرة. ومع الانتشار السريع للهواتف الجوالة في الصين، أصبحت الروايات المسلسلة ظاهرة بارزة. ومنذ عام 2012، شهد سوق أدب الإنترنت نموا بنسبة تزيد على 20 بالمئة سنويا. في المقابل، تبين من تقرير صادر عن المكتبة العامة في بريطانيا أن الانتشار الهائل للهواتف الذكية دفع القراء للعودة إلى الكتب التقليدية بدلا من هجرانها كما كانت تسود التوقعات، وبحسب التقرير البريطاني فإن رواد المكتبات العامة ارتفعت أعدادهم بنسبة 10 بالمئة في حالة إقبال كبيرة وملحوظة على الكتب التقليدية، مفسرا هذا الارتفاع بأنه يرجع إلى «الاشتياق من قبل القراء للكتب الورقية المطبوعة». وأشار بحث أُجري على مبيعات الكتب الإلكترونية في المملكة المتحدة إلى أنها شهدت تراجعا بنسبة 17 بالمئة في عام 2016، في الوقت الذي زادت فيه مبيعات الكتب الورقية بنسبة 7 بالمئة.. ووفق ما أعلنته رابطة الناشرين فإن الأبحاث التي أجريت في الولايات المتحدة أظهرت نتائج مشابهة أيضا، حيث انخفضت مبيعات الكتب الإلكترونية بنسبة 18.7 بالمئة خلال الأشهر التسعة الأولى من 2016، بينما ارتفعت مبيعات الكتب الورقية بنسبة 75 بالمئة خلال تلك الفترة.

وتمثل هذه البيانات تأكيدا جديدا على أن سوق الكتب المطبوعة ليس على وتيرة واحدة، هو في مرحلة قلقة، سيظل على قيد الحياة، لكن لا نعرف ما الذي تحمله «ثورة» الهاتف الذكي في السنوات المقبلة. ويؤكد الخبراء أن هناك سببا رئيسيا آخر وراء انخفاض مبيعات الكتب الإلكترونية، هو أن الأشخاص أصبحوا يبحثون عن تقليل وقت تعرضهم لشاشات أجهزة الكمبيوترات والهواتف الذكية.

الورقة والشاشة

ثمة صورة أخرى أشبه بنمطية وتفيد أن ذكاء الآلة يؤدي إلى غباء الإنسان، بمعنى من المعاني «الإنسان عدو نفسه»، اخترع شيئا ليكون ضحيته، في دراسة نشرها موقع «حكمة» الإلكتروني بعنوان «لمَ يفضّل الدماغ الورق؟» وموقعة باسم ف. جبر، تفيد أنه «منذ ثمانينات القرن الماضي، نشر باحثون متخصصون في علم النفس وهندسة الكمبيوتر وعلوم المكتبات والمعلومات، على أقل تقدير، أكثر من مئة دراسة أُجريت لاستقصاء الفروق بين الكيفية التي يقرأ بها الناس من الورق وتلك التي يقرأون بها من شاشات الكمبيوترات. وقد خلصت معظم التجارب التي أجريت قبل عام 1992 إلى أن الناس هم أبطأ سرعة في قراءة القصص والمقالات من الشاشات، وأقل قدرة على تذكر مضامينها، ولكن ما إن صارت شاشات الأجهزة بمختلف أنواعها أكثر دقة، حتى بدأت الدراسات تُطلعنا على مجموعة من النتائج المتفاوتة»، وتضيف «معظم الدراسات التي نشرت منذ أوائل تسعينات القرن الماضي تُثبت صحة الاستنتاجات السابقة التي تفيد بأن الورق، من حيث كونه وسيلة للقراءة، لا يزال يتفوق على الشاشات» وإن التباينات في فهم القراءة بين الورق والشاشات يمكنها أن تتضاءل إذا ما واظب الناس على تغيير مواقفهم. ولعل العبارة الشهيرة ’المجلة هي آيباد لا يعمل‘ سوف يزداد نجمها تألقا، إذا ما خفّت حدة الأحكام المسبقة التي تبدو منتشرة بصورة مبطنة بين الأجيال الأكبر سنا حيال الشاشات».

على أن هناك بعض البحوث تشير إلى أن «استبدال الورق بالشاشات في سن مبكرة له سيئات لا يجوز أن نتغاضى عنها بهذه البساطة». والحال أنه برغم أن الهاتف اسمه الذكي لكن هناك العشرات بل المئات من الدراسات التي ترجح أنه محطة «إلى الغباء». كشفت دراسة كندية حديثة أجراها عدد من الباحثين في جامعة «Waterloo» أن الهواتف الذكية تدفعنا نحو الكسل والغباء. وأكدت الدراسة أن الأشخاص الذين يملكون قدرات عقلية كبيرة لا يقضون وقتا طويلا في استخدام الهواتف الذكية ولا يضيعون ساعات طويلة في تصفح هواتفهم، على عكس الأشخاص الذين يملكون قدرات عقلية ضعيفة، حيث أصبحت الهواتف الذكية سببا في الشعور بالكسل، فأي شيء يقف أمامنا نلجأ إلى الهاتف لحله في ثوان معدودة دون أن نبذل أي مجهود عقلي للتفكير فيه. وحين أصدر الفيلسوف الإيطالي موريزيو فيراري كتابا بعنوان «الغبي الذي هو أخيرا أنا» يُعالج مسألة الهاتف الخلوي وبالنسبة إليه الغباء صار جزءا من الشرط الإنساني. ذلك أن هذا الجهاز الميتافيزيقي يُقارن مع الغباء الإنساني لا سيما إزاء سلسلة التطبيقات الذكية والتي أدخلت الإنسانية في عصر ما بعد الحقيقة، لا سيما مع المجال الافتراضي الذي أحدثته التطورات التكنولوجية الحديثة.

موريزيو الإيطالي الذي نهل من الروائيين الكبار، لديه أفكاره الإشكالية وآخرها إثارته مسألة الغباء كشكل من أشكال مقاربة التطور الذي أحدثه الهاتف الخلوي في الحياة العامة. يتحدث موريزيو عن الهاتف الخلوي كظاهرة، ليس فقط كوسيلة استخدام أو وسيلة نقل، أو وسيلة تواصل وإعلام، بل طريقة في تحويل المفاهيم وجعل الأشياء مرئية أكثر ولا سبيل إلى المناورة في شأنها، وتأثيره على الواقع الاجتماعي كجزء من التحولات التي أحدثتها العولمة.

وليس بالضرورة أن ينتج الهاتف الذكي غباء، لكن هذا وجه من وجوهه الكثيرة والمتعددة والمتشعبة، فهو من دون شك ساحر، وفتاك فن آن.

هناك من يقول إن الهواتف الذكية ربما تختفي كما اختفى الفاكس، لكن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة، فمن يضع الأسس لهذه الخطى سوى الشركات الضخمة!

كاتب من لبنان

دمية تمثل ستيف جوبز في مدخل متجر للالكترونيات في نابولي/إيطاليا

الإنترنت والأدمغة

أي علاقة وأي نتائج

رضا إبراهيم محمود

في عام 2010 نشر الكاتب الأميركي نيكولاس كار كتابه الموسوم بـ"السطحيات ماذا تفعل الإنترنت بأدمغتنا؟"، وجاء في فقرة من فقراته "إن الإنترنت نظام للمقاطعة والإعاقة، كونه يستحوذ على اهتماماتنا فقط، لكي يقوم بتشتيتها" وتأكيدا على ذلك القول، فقد أظهر التصوير بالرنين المغناطيسي أن أدمغة مستخدمي الإنترنت، الذين يلاقون صعوبة في التحكم بتوقهم الشديد إلى التواصل الدائم مع الإنترنت، تتعرض لتغيرات شبيهة، كالتي ظهرت في أدمغة الأشخاص المدمنين على المسكرات والمخدرات، وفي دراسة أجريت عام 2011 نشرت نتائجها جريدة "التلغراف" البريطانية، ظهر أن الانقطاع عن الإنترنت ليوم واحد لا أكثر، قد أظهر عوارض انسحاب وانكماش جسدية وعقلية لدى بعض مستخدميه!

على عكس الاعتقاد العلمي السابق، الذي يعود إلى فترة القرن التاسع عشر، والقائل بأن هيكلية الدماغ تراتبية، أي أنها تعمل من فوق إلى تحت أو العكس، ومن خلال الدراسات العلمية، ظهر أن أجزاء وخلايا الدماغ تتفاعل على نحو شبيه للغاية بعمل وتفاعل شبكة الإنترنت، وأوضحت دراسة قام بها علماء أميركيون بأساليب حديثة في نجاحهم بالتقاط إشارات، عبر مناطق فائقة الصغر في الدماغ، مسؤولة عن أمور عدة، مثل الضغط النفسي أو الكآبة أو الشهية، قد ألقت الضوء على طبيعة تفاعلها وتواصلها.

ولأن أجهزة الكمبيوتر، تعمل بإشارات ثنائية، فذلك يعني أن المعلومات تعرض في شكل آحاد وأصفار فقط، أما الدماغ البشري فيتميز بعدة مليارات من الإرسالات الكهروكيميائية الحيوية، التي ترتبط بالأفكار والأفعال، لذا ففي حالة الرغبة في توصيل الدماغ البشري بالكمبيوتر، فلن يحتاج العلماء فقط إلى جهاز لتحويل البيانات، ولكنهم سيحتاجون إلى وسيلة بالغة الصعوبة.

ربط الأدمغة بشبكة الإنترنت

كان من نتائج تصغير حجم الشرائح الإلكترونية، وزيادة سعتها التخزينية بشكل كبير مع مرور الأعوام، إلى جانب حجم انتشار المعالجات والشرائح بكافة الأمور الإلكترونية، وضوح أن الإنسان بلغ درجة إيجاد التناغم بين الآلة والأدمغة البشرية، إلى درجة تسمح بربط الأدمغة بشبكة الإنترنت، وفي مدينة جوهانسبرغ عاصمة جنوب إفريقيا، نجح فريق متخصص، ولأول مرة في ربط الدماغ البشري مباشرة بالإنترنت، وهي التجربة التي أطلقوا عليها «مشروع براين نت»، حيث استخدم فريق علماء الأعصاب ونفر من الخبراء، جهاز رسم المخ الكهربائي والذي يمكنه الكشف عن الإشارات الكهربائية في الدماغ، لنقل النشاط العصبي إلى جهاز كمبيوتر «راسبيري» آخر، والذي يُعدّ في حجم البطاقة، ثم بث تيارات البيانات إلى برنامج يعمل على موقع على شبكة الإنترنت، ليسهل على أيّ شخص عرضها في أيّ وقت.

وفي بيان منسق المشروع جاء فيه «في نهاية المطاف، نحن نهدف إلى تمكين التفاعل بين المستخدم وعقله، بحيث يمكن للمستخدم تقديم حافز ورؤية الاستجابة، فهناك نقص في البيانات التي يسهل فهمها، حول كيفية عمل الدماغ البشري ومعالجة المعلومات، لذا فالمشروع الجديد يسعى إلى تبسيط فهم الشخص لمخه وأدمغة الآخرين، عن طريق الرصد المستمر لنشاط الأدمغة، وكذلك تمكين بعض التفاعل»، ومن خلال تحسين المشروع آنف الذكر، فهو قد يصبح قادرا على تصنيف التسجيلات، التي يتم الحصول عليها من خلال تطبيق على الهواتف الذكية، مما يساهم في توفير البيانات الخوارزمية للتعلم الآلي، وهو ما يعني أنه في المستقبل، يمكن أن تصبح هناك طريقة لنقل المعلومات في كلا الاتجاهين (المدخلات والمخرجات) إلى الأدمغة.

اختلالات دماغية لمدمني الإنترنت

هناك تغيرات دماغية، تحدُث لدى ما يُعرفون بـ«مدمني الإنترنت»، تشبه تلك التي تحدُث للمدمنين على المخدرات والكحوليات، ففي بحث مبدئي أجراه خبراء صينيون من «الأكاديمية الصينية للعلوم» خلال مسح طبي، على أدمغة سبعة عشر شابا من مدمني الإنترنت، ظهرت اختلالات في بعض الوظائف

محمد عبد الرسول

الدماغية لديهم، والمعلوم أن إدمان الإنترنت يجري تحديده خلال عدد من الاضطرابات الإكلينيكية، التي تجعل مستخدم الإنترنت فاقدا للسيطرة على نفسه، تبعه إجراء لنفس الخبراء الصينيين بمسح دماغي على خمسة وثلاثين شابا وفتاة، تتراوح أعمارهم بين أربعة عشر إلى واحد وعشرين عاما، حيث تم تشخيص سبع عشرة حالة منهم، تعاني من اضطرابات تتعلق بإدمان الإنترنت.

وذلك بناء على إجابتهم بقول «نعم»، على عدد من الأسئلة من أهمها هل قمت بمحاولات متكررة للتحكم في أو التوقف عن استخدام الإنترنت وفشلت في ذلك؟ وقد أظهرت الدراسة التي استخدمت ماسحات الرنين المغناطيسي على الدماغ، أن هناك تغيرات في المناطق البيضاء من المخ، لدى الأشخاص الذين تم تحديدهم بعد التشخيص على أنهم مدمنون للإنترنت، إلى جانب وجود دلائل تشير إلى وجود اضطرابات في الاتصالات الخاصة بتلك المناطق البيضاء في المخ، وهي مناطق تحتوي على الألياف العصبية، التي تربط بين أجزاء المخ المتعلقة بالعواطف، وبين اتخاذ القرار وضبط النفس.

انتحار وصعوبة في التركيز

تؤكد هنريتا باودن جونس الأخصائية النفسية في معهد إمبريال كوليدج في لندن، كونها تتولى إدارة عيادة لمعالجة مدمني الإنترنت، على أن غالبية الأشخاص الذين نراهم من الذين يعانون إدمانا شديدا للإنترنت، هم من ممارسي الألعاب الذين يقضون فترات طويلة في ألعاب متنوعة، مما تسبب في إهمال التزاماتهم، وكلما زادت ساعات استخدام الإنترنت، زادت معها مخاطر الانتحار لدى بعض الفتية في العاشرة من أعمارهم، فبعد إجراء مراجعة لأبحاث ودراسات سابقة تناولت الصبية، استنتج الباحثون في جامعة أوكسفورد ببريطانيا، أن الفترة التي يجري قضاؤها على الشبكة، تترافق مع مخاطر كبيرة للانتحار وإيذاء الذات، بين المراهقين المعرضين لذلك.

وفي تعليقه على ذلك يؤكد البروفيسور بول مونتغمري أستاذ التدخل النفسي والاجتماعي بجامعة هامبولدت بقوله «نحن لا نقصد هنا أن جميع الشباب الذين يتوجهون إلى الإنترنت، تزداد عندهم خطورة الانتحار وإيذاء الذات، بل نحن نتحدث هنا عن شباب صغار معرضين لذلك، الذين يتوجهون إلى الشبكة بالأخص لمعرفة المزيد عن إيذاء الذات، أو لأنهم شرعوا يفكرون في الانتحار من قبل»، إلى جانب احتمالية وجود إشكالات الذاكرة، فمن خلال جلسة نموذجية من التصفح بمواقع التواصل الاجتماعي، فقد تؤدّي إلى تحميل زائد في المعلومات، مما يجعل من الصعب ترتيب المعلومات وتنظيمها في الذاكرة، لأن عقول الأشخاص الذين يتعرضون إلى سيل لا ينقطع من المعلومات الإلكترونية، بدءا من الرسائل الفورية إلى المدونات، إلخ. قد يجدون صعوبة ماسة في التركيز، وعدم القيام بالتنقل من عمل إلى آخر بكفاءة.

الاعتدال يعزز وظائف الدماغ

لم يقف الأمر على ما سبق من دراسات أو تجارب، فقد ذكر موقع «بي.بي.سي»، أن باحثين في جامعة كينجز بالعاصمة البريطانية لندن، وجدوا أن التدريبات العقلية حفزت العقول على العمل، وساعدت الناس على القيام بالمهام اليومية، مثل التسوق وغير ذلك من المهام، إذ أن الاعتدال في استخدام الإنترنت، من شأنه تعزيز الوظائف الدماغية، وقد عززت دراسة في عام 2008 أعدها الدكتور جاري سمول أستاذ العلوم العصبية والسلوك البشري في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس، أن استخدام محركات البحث بالإنترنت، من شأنه تحفيز النشاط العصبي، والوظائف الدماغية لدى البالغين الكبار، وتُعدّ نتائج تلك الدراسة مشجعة لكون تقنيات الكمبيوتر التي تبرز، قد يكون لها تأثيرات نفسية، وفوائد ممكنة بالنسبة إلى متوسطي الأعمار والبالغين الكبار، وجاء في نهاية حديث الدكتور سمول قوله «إن أبحاث الإنترنت، تفرض نشاطا دماغيا معقدا، قد يُساعد على تمرين الدماغ ويُحسن وظائفه».

وفي تجربة أطلقتها سلسلة وثائقيات «بانج جوز ذا ثيوري» العلمية التابعة لهيئة الإذاعة البريطانية، سجل حوالي سبعة آلاف شخص في الخمسينات من العمر للمشاركة في التجربة التي استغرقت ستة أشهر بالتمام والكمال، وشارك المواطنون في التجربة الذين سُجلوا فيها، أنه لم يسبق أن عانى أيّ منهم من إشكالات في الذاكرة أو الإدراك، وشجع الباحثون بعض المتطوعين على ممارسة ألعاب الإنترنت التي تُنمي العقل لمدة عشر دقائق في كل مرة، كلما رغبوا في ذلك، بينما طلبوا من آخرين القيام ببحث بسيط على الإنترنت، وأجرى الباحثون سلسلة من الاختبارات المعرفية المعترف بها طبيا.

ثم أعادوا الاختبارات المعرفية مرة أخرى في فترة ما بين ثلاثة وستة أشهر، لمعرفة ما إذا كان هناك أيّ فرق بين المجموعتين، ليتضح أن أولئك الذين مارسوا ألعاب الإنترنت احتفظوا بمهارات معرفية أوسع، وبشكل أفضل من أولئك الذين لم يفعلوا، إذ مارست هذه المجموعة الألعاب خمس مرات أسبوعيا، ووفقا لتقارير صحافية، فإن المجموعة التي كانت أعمار أفرادها، أكبر من ستين عاما ومارسوا تلك الألعاب، قد سجلوا درجات أفضل لتنفيذ المهام الأساسية التي يقومون بها كل يوم.

كاتب من مصر

غرافيك «الجديد»

نبوءة بيل غيتس

عباس الحايك

عندما وضع بيل غيتس في كتابه «المعلوماتية بعد الإنترنت» تصوراً لما سيحدث للعالم في كل مجالات الحياة بعد ثورة الإنترنت، لم يكن يدور في خلده ما ستفعله ثورة الأجهزة الذكية، حيث تجاوزت مخيلته وهو يرتكز على مخطط شركة ميكروسوفت لتغيير ملامح هذا العالم، وليس على نبوءة. لكن ما حدث تجاوز ما خطط له؛ فقد تحول العالم بشكل حقيقي إلى مجرد أزرار افتراضية بين أصابعنا، صار الانتقال الافتراضي إلى أي مكان في العالم أسهل بكثير مما كنا نتصور، فقد اجتاحت ثورة الموبايل عالمنا بكل تفصيلاته، صارت تحضر في كل دقائقنا وثوانينا.

الهواتف الذكية لم تخترع لتكون جهاز اتصال فقط كما كانت الهواتف العادية، أو الجوالات التي نقلتنا من حالة ثبات الهواتف الثابتة إلى حركية الهواتف الجوالة؛ الهواتف الذكية اخترعت لتكون أدوات تواصل وليس اتصالاً فقط، فقد ألغت كل المسافات صوتاً وصورة، ألغت الحدود وحتى جدران البيوت والغرف الخاصة، ألغت كل ما يقف أمام الإنسان من حواجز اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها. فقد أدخلتنا إلى بيوت الناس ووجدنا أنفسنا شركاء في رحلة أو في حفلة أو في اجتماع أو في غيرها من الفعاليات الاجتماعية، في أي مكان ونحن مسترخون على كراسينا أو نتجول في سوبرماركت أثناء التبضع. لم يعد صعباً أن نعرف كيف يقضي أحدهم عطلته في بلاد لم نرها.

كل هذا الاقتراب أيضاً أثر على توجهاتنا، على آرائنا، على وجهات نظرنا حول ما يحدث في العالم. لم نعد مجرد أتباع لإعلام مفروض علينا يوجهنا كيفما يشاء، فقد أتاحت الموبايلات ظهور ما سمي بالإعلام الجديد، الذي تحول معه كل من يحمل موبايل إلى صحافي ومراسل. وما عدنا ننتظر أن تنقل لنا نشرات الأخبار ما تنتقيه.

المثقفون وجدوا أنفسهم ينسحبون مع من انسحبوا نحو هذه الثقافة الجديدة، وإلا سيكونون خارج التاريخ؛ فهذه التقنية الجديدة بالتأكيد ستفيد تخصصاتهم وتسهل أعمالهم، وتفتح لهم آفاقاً جديدة، وتتجاوز حواجز التواصل مع مجاييلهم من مثقفين وممارسين، أو حتى مع قراء. فما عاد البحث صعباً، فمن الموبايل يمكن البحث عما يريدون، ويجدون الإجابة في لحظتها، ولم تعد الكتب ورقاً، بل يمكن أن يحمل موبايلهم الذي يضعونه في جيوبهم آلافاً من الكتب التي قد لا تسعها غرف مكتباتهم. صارت الصحف قريبة والتلفزيونات أقرب، والكم الهائل من الصور والفيديوهات في جهاز واحد. فأي عالم يختصره هذا الجهاز؟ عدا عن هذا، صار متاحاً للمثقف أن يحضر أمسية شعرية وهو في بيته، وصار قادراً على متابعة افتتاح معرض تشكيلي، أو متابعة مهرجان فني. فأي تقنية أتاحت له كل هذا عدا عن الموبايل؟

وبعيداً عن الخوف الطبيعي مما كل ما هو جديد، يبدو متواتراً ذلك الخوف من الموبايل واكتساحه حياتنا، وتغييره توجهاتنا، وتغييره أيضاً نمط حيواتنا، خاصة تلك المتعلقة بالجانب الثقافي. لكن يبدو فعلياً أن هناك أثراً على الجانب الاجتماعي لهذه الموبايلات، فلم يعد التواصل الفعلي موجوداً ما دام الموبايل سهل التواصل الافتراضي، صرنا نميل إلى نقاشات الواتساب أكثر من نقاشات المقهى، النقاشات التي نُعمِلُ فيها كل حواسنا، فنحن نسمع ونرى لندرك ما تعنيه دلالات وإشارات الجسد التي تعضد النقاش. فالواتساب أفقدنا هذا الإدراك وصرنا نقرأ ما يكتبه البعض دون أن ندرك كيف قيل الكلام وأي إحساس وصلنا. الحالة الاجتماعية فقدناها بفعل هذا الموبايل، فبمجرد الدخول إلى عوالمه نتغير، نتبدل، نشعر أننا مقيدون بوجوده، ويصل الأمر بنا إلى أننا لا نشعر بوجودنا الواقعي إلا به إلى درجة أن بعضنا مصاب بما يعرف بالنوموفوبيا وهو رهاب فقدان الجوال، صرنا نشعر بالفزع لو أننا فقدنا التغطية أو فقدنا هذا الجهاز الذي قيدنا.

رغم كل ما أعطانا، إلا أنه أفقدنا الكثير؛ أفقدنا متعة القراءة المتأملة، القراءة العميقة، فنحن ننشغل بالإشعارات التي تأتينا كل لحظة، فننفصل عن تأملنا. أفقدنا حياتنا الاجتماعية والتواصل الواقعي، أفقدنا صفاء الذهن والمزاج للكتابة، فالإشعارات تلاحقنا وتفسد مزاجنا كلما رحنا في تعمقنا. الجوالات، رغم كل ما منحتنا من فرص التواصل، وسهلت علينا أمورنا، إلا أنها تأخذنا إلى السطح، فصرنا نبحث عن الجاهز والسطحي والسريع، ولم يعد طعامنا سريعاً وجاهزاً فقط، بل حتى ثقافتنا ومعرفتنا سريعة وجاهزة. صار البعض يستمد ثقافته ووعيه من تطبيقات كالتويتر والواتساب والفيسبوك، من الإعلام الجديد الذي لم يعد من السهل التفريق فيه بين ما هو حقيقي وما هو مزيف.

الثقافة الجديدة التي أدخلها الموبايل علينا جعلت من السطحيين والفارغين مشاهير ومؤثرين، وكل ما يقدمونه موجه للأطفال والفتيان، فأي ثقافة يمكن أن تبنيها مثلاً مقاطع اليوتيوب التي لا تحمل محتوى يعول عليه، لجيل اعتادها وأدمنها وصارت حاضرة في يومياته؟ أي ثقافة ستنشأ من مقاطع التحديات اليوتيوبية التي تملك ملايين المتابعين؟ هل يمكن أن نتصور عمقاً ومعرفة حقيقية يمكن أن يخلقهما هذا الجهاز الذي بين أيدينا وأيدي الناشئة، وهو على ما هو عليه؟ لست متشائماً، لكني أحمل بعض الخوف مما سيكون عليه العالم بعد سنوات، ونحن نمر بمرحلة الموبايل، مرحلة الجاهز والسريع، ونحن غير قادرين على كسر قيد التعلق به وإدمانه والعودة إلى حالة الصفاء الذهني.

كاتب مسرحي من السعودية

بيل غيتس ومستيف جوبز.. أسطورتان في عصر واحد (غرافيتي)

كاميرا التلفون الذكي تزاحم بميزاتها افضل الكاميرات

ملف

الموبايل وحاجاتنا السلوكية والثقافية

طاهر الزارعي

حياتنا الآن أصبحت تعيش صراعا بين أكثر من جيل، فجيل يرفض وجود الموبايل، وجيل آخر لا يرى حياته من دونه، أما الجيل الثالث فهو يقف وسطا بينهما. ونحن هنا لا يمكن أن نعالج ذلك في مختبرات نفسية بقدر ما يهمنا أن نرسّخ مفهوم الموبايل من الناحية الثقافية والسلوكية وتأثير ذلك على المنظومة المتبعة ليس عندنا فقط، وإنما أيضا في أنحاء كثيرة من دول العالم.

حياتنا أصبحت أكثر رقمية، فثمة تصالح بيننا وبين هذه الأجهزة الذكية التي حددت كثيرا من مفاهيمنا ومسيرة أعمالنا ومناشطنا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والرياضية، وغيرها على اعتبار أن هذه الأجهزة وتطبيقاتها تسعى إلى وجود تواصل دائم بين كل الجهات والأفراد الذين نتعامل معهم.

لا يمكن لنا أن نستغني عن الموبايل، وأقصد بذلك الموبايل الذكي الذي انخرط في حياتنا منذ العام 2007 تقريبا، حيث يوفر لأي مقتن له حزمة من التطبيقات لا يمكن أن نجدها في جهاز الكمبيوتر أو التلفاز أو أي اختراع آخر، وبالتالي فنحن موجهون إلى هذا الموبايل في كل لحظاتنا وأوقاتنا، فأصبح رفيقا لنا في سفرنا وإقامتنا ومشاعرنا، بل أصبح ضرورة تواكب العالم بعد أن كنا منذ عقود مضت نعتمد على الورقة والقلم والبريد اليدوي وأمور أخرى اتسمت بالبطء واللامنهجية، ففي الوقت الذي يستغرق إرسال رسالة واحدة إلى أحد ما شهورا نجد أن هذا الموبايل الذكي يرسلها في لحظتها بضغطة زر وقد تصل العالم كله في وقت واحد. إنها التكنولوجيا وتطور وسائل الاتصالات التي منحتنا سرعة التواصل مع من تربطنا علاقة بهم.

إن تطبيقات هذا الموبايل كثيرة، ومن السهل تحميلها والتعامل معها، منها ما هو خاص بالدوائر الحكومية والشركات، ومنها ما يخص أمورا أخرى كتطبيقات الصحة والعلاقات العامة والتعاملات المالية والأسواق والأخبار المتنوعة، ومتى ما استخدمت هذه التطبيقات باحترافية فإنها توفر على الفرد كثيرا من الوقت لإنجاز معاملاته. لكن للأسف فالكثير من الدراسات العربية أكدت أن الشعوب العربية في غالبية سكانها لا تحسن التعامل مع هذه التطبيقات أو إجادة تحميلها من متجر الموبايل بل تحرص كثيرا على إنزال تطبيقات الألعاب وتكتفي بتطبيقات التواصل الاجتماعي كواتسآب وتويتر وفيسبوك وسكايب. ومن هنا يجيء اهتمامنا بهذه التطبيقات على استحياء، بل الكثير من الأفراد لا يزالون ينجزون معاملاتهم بشكل تقليدي بحجة أنهم لا يحبذون التعامل مع هذه التطبيقات أو ربما لعدم معرفتهم بها أو الخوف منها على اعتبار أنها تمثل دخيلا على ثقافتهم، وبالتالي فإن هذا الأمر قد يؤثر سلبا على تقاليدهم ومعتقداتهم.

كيف أثر استخدام الموبايل على سلوكنا إيجابا وسلبا؟

لا شك أن هناك تأثيرات إيجابية وأخرى سلبية، وقد ذكرت آنفا جملة من الإيجابيات التي ينبغي للفرد أن يحرص على إتقانها لتسهيل أمور حياته تبعا لرتم الحياة ومتطلباتها، وهذا أمر هام جدا فتسهيل المعاملات كان ولا يزال مطلبا للكثير من الأفراد، وهذا الجهاز وفر ذلك بسهولة كبيرة جدا. كما أنه يساعد على تطوير ثقافة الأفراد والمجتمعات ويجعلهم متواصلين مع أحداث العالم، أضف إلى ذلك أن الموبايل قد أتاح كثيرا من البرامج والتطبيقات التي تساعد الفرد على التعلم والرفع من قدراته الثقافية والطبية والاقتصادية، فأصبحنا نتلقى العلم عن طريق أيقونة أو رابط أو تطبيق. كما أننا نجري معاملاتنا المالية ونحن في البيت، أضف إلى أننا نستطيع علاج أمراضنا دون الذهاب إلى المستشفيات ومصارعة الزحام.

أما الجانب السلبي فقد يكون مزاحما للجانب الإيجابي لهذه التكنولوجيا، فلا نجامل أنفسنا كثيرا، فنحن ندرك خطورة ذلك، وخاصة على الناشئة، بل حتى على الكبار الذين كانوا في وقت ما منزعجين من سلوكيات أبنائهم أصبحوا الآن مرتبطين بالموبايل ارتباطا كبيرا، ويبدو أن انعدام الحوار بين الأفراد هو الخطورة العظمى من وجهة نظري، فالحوار بين الأبناء، وبين الأزواج، وبين المعلم وطالبه، وبين المؤسسات، وغيرها، قد قارب على الاختفاء من حياتنا بفعل هذا الموبايل، إلا ما ندر من أولئك الذين يتقنون آلية هذا الجهاز والوقت الذي يتم فيه استخدامه.

إن توليد ثقافة العنف والانتحار والجريمة من أبرز ما تعانيه المجتمعات، وأعني بتلك المجتمعات التي لا تعير العقوبات أي أهمية، وبالتالي يفسح لتلك العادات الطريق لممارستها والتفنن فيها، وندرك تماما أن ما تفرضه هذه الأجهزة من عزلة على الشباب بحكم الواقع الافتراضي الذي يعيشون فيه ينعكس سلبا على ممارسة الكثير من السلوكات الخاطئة، وما إلى ذلك من أمور سلبية يتركها الموبايل على الفرد بشكل خاص كالاتكالية والكسل وعدم الاهتمام بمذاكرته ومحدودية التفكير وسوء التعامل مع الأسرة وقطع العلاقات مع الأقارب والأصدقاء. والإدمان على هذا الموبايل له خطورة كبيرة قد تؤثر سلبا في سير العمل والنشاط الذي يمارسه الفرد.

باعتقادي أن المستخدم لا بد له من أن يتعامل مع الموبايل وفق حاجاته الضرورية حتى لا يفقد الصورة الإنسانية التي بناها آباؤنا، فأن يكون هذا المستخدم حبيسا لهذا الموبايل، فذاك يعني أن هناك خطأ في استخدامه وعدم استغلاله في ما يفيد. فالمشكلة إذن ليس في تقنية الموبايل بقدر ما هي مشكلة في المستخدم نفسه، وأعني بذلك حرصه على اغتنام وشغل وقته بما يفيد.

الاكتفاء بالذات من سلبيات العلاقة الإدمانية مع الموبايل

هناك خيارات ثقافية كثيرة أدخلها هذا الجهاز على مؤسساتنا الثقافية، وعلى الأفراد، وذلك في ما يخص النسق الثقافي المتبع والسائد، أذكر مثلا ما وفره الموبايل من حاجات ثقافية كثيرة، منها «مفهوم القراءة»، حيث وفر للقراء الآلاف من الكتب التي يستطيع الحصول عليها بضغطة زر.

الثقافة الإلكترونية باتت مطلبا أساسيا لتنمية المعرفة والاطلاع، كما أنها تقف بجانب الثقافة العامة، وهذا المزيج حتما سيوفر للمتلقي المزيد من الحقائق والمعارف والبيانات. وقد ساهمت كثيرا، أي تلك التطبيقات الذكية، في تأهيل الثقافة وقربها من المثقفين والمتعلمين.

إن التطور الذي نلاحظه في هذا العالم الذي يشهد ثورة معلوماتية كبيرة نتيجة لتلك التكنولوجيا التي ساهمت التكنولوجيا بشكل عام والأجهزة الذكية بشكل خاص في إرسائها وتنميتها وتسهيلها.

لقد اهتمت الشركات بتوفير عدد كبير من التطبيقات في هذه الأجهزة الذكية لمقاربة الفعل الثقافي وبناء ذاكرة ثقافية تستطيع أن تؤصل الثقافة بمفهوما الكبير في ذهنية المستخدمين وإيجاد حلول ناجعة لإبراز ذلك المفهوم في العقلية المقبلة على ثقافة مؤطرة بالموروث الثقافي الذي تمتلكه معظم الدول. إنها الحياة الجديدة التي لاغنى عنها، فقد أصبح استخدام الموبايل ضرورة ملحة لمواكبة هذه الحياة ومسايرة متطلباتها الإلكترونية، على الرغم من بعض الأضرار التي يتركها هذا الجهاز على الإنسان وخاصة الأطفال، فقد أكدت الكثير من الأكاديميات والدراسات أن تأثير الهاتف الذكي قد يكون بمثابة «قنبلة موقوتة صحية» على عقول الناشئة بإصابتهم بأضرار العين وأمراض التوتر والصرع وما إلى ذلك من أمور قد ذكرنا بعضها في بداية المقال. ندرك تماما حجم الفائدة الإيجابية من هذه الأجهزة، لكن علينا أن ننتبه ونقنن فترات استخدامنا لها. ففي استخدامها عدالة لعقل الفرد وصحته، وأن يكون هذا الاستخدام من منظور الحصول على المزيد من الثقافة والمعرفة، وأن يكون، أي هذا الاستخدام، نقلة نوعية لحضارتنا وبناء أحلامنا.

كاتب من السعودية

ملف

نحن والهاتف الذكي

ريما إبراهيم حمود

لا شيء يبدو مغريا أكثر من هاتف جديد، بشاشة واسعة بالغة النقاء، دقيقة الألوان، سعة ذاكرة كبيرة تبتلع كل ما نرجو من صور، مقاطع فيديو وكتب، وملمس ناعم مصقول الحواف، ينزلق في كفك ليلائم أصابعك التي سيلتصق بها طوال اليوم، طوال بضع سنين حتى يهرم، وتهرم روحك معه.

من هواتف كانت الشركات تتنافس في تقليص حجمها إلى هواتف تتنافس الآن في زيادته، ليتسع لكل التطبيقات الجديدة، ويصير أداة الترفيه والاتصال الأولى، فها أنت تحمل مكتبك، ذكرياتك، أقاربك، أصدقاءك، كتبك، تسليتك أينما ذهبت.

ومن وسيلة للاتصال تطور الهاتف سريعا ليصبح جزءا من شخصية كل منا، وامتدادا لأفكارنا التي صار من السهل علينا التعبير عنها عبر التطبيقات المختلفة صورا، ثرثرة، مقاطع فيديو، خربشة، وصار مائدة لا نهاية لها تفتح شهية الباحث، وتغريه بدفق هائل من المعلومات التي قد تخرج عن سيطرته أحيانا، وتقوده إلى حالة من الضياع.

والآن صار الهاتف منبرا ثقافيا يمنح صاحبه القدرة على الوصول للجمهور رغما عن قوانين دور النشر، ويمكّنه من تلقي النقد المباشر، فيكفي أن تنشئ صفحة عن أحد مواقع التواصل، وتضيف الأصدقاء لتتسع الدائرة وتبدأ بالنشر لتتلقى الآراء، وتكتشف مدى قبولك لدى الجمهور، هذا على افتراض صدق الأصدقاء الافتراضيين، وجديتهم في قراءة ما ينشر.

على أن الهاتف أيضا مكّن أدعياء الثقافة من نشر ما يظنون أنه ينتمي إلى الأدب بكل سهولة، وأعطاهم القدرة على الثرثرة والدخول في سجالات لا منفعة منها، والتطفل على ساحة الأدب.

هذا ولا ننسى كمّ المعلومات العلمية والطبية الخاطئ الذي يتدفق يوميا عبر هواتفنا يبدو مريعا، إذ عليك أن تتأكد من كل معلومة تصل إليك عبر بحث طويل في الشبكة، حتى أن الزيف وصل إلى نشر الأحاديث النبوية الموضوعة، والأكاذيب السياسية وتزييف الحقائق بمهارة عجيبة تحتاج إلى جهد لكشفها.

ومن أهم التطبيقات التي يعتمد عليها الجميع، وأظنها أنفعها للمثقفين والكتاب، فيسبوك وتويتر كمنبر للنشر والقراءة والنقاش وتبادل الأفكار، كما أن تطبيقات القرّاء (جود ريدر) مثالا مكنت الكثير من القراء من تبادل الآراء حول الكتب وتقييمها. وهناك أيضا منصة تيد التي تتناول مجموعة واسعة من المواضيع الثقافية والعلمية عبر بث حي للمحادثات، وأظنها تلبي حاجة كل مثقف وباحث للاطلاع والمشاركة والنقاش.

على أن الهواتف الذكية غيرت علاقاتنا الاجتماعية للأسوأ، فما عليك إلا أن تراقب الجالسين في مقهى على سبيل المثال، لترى كلا منهم مشغولا بهاتفه منسحبا إلى قوقعته المحمولة في جيبه، وحتى في العائلة، لم تعد الجلسات العائلية تعقد برضا وقبول من الجميع لانشغالهم بهواتفهم، وهوس الشباب -بالذات- في تأكيد هوياتهم وتقبل المجتمع لهم عبر مشاركة دقيقة لخصوصياتهم، ولذلك تبدو محاولة خلع الهواتف من أيديهم مستحيلة.

كما أن الهواتف مكنتنا أيضا من تجنب البعض عبر الابتعاد عن أي نقاش معه، وجعلتنا نستطيع رسم الصورة المناسبة لنا لنقدمها للأصدقاء والمعارف الافتراضيين. وكشفت التطبيقات أيضا عن الوجه الآخر للبعض، المساند للدكتاتوريات، المنافقين تحديدا، وبذلك مكنتنا من إقصائهم، وتحديد دائرة معارفنا الثقافية بما يناسب توجهاتنا.

ونستطيع القول إن الهاتف الذكي أتاح لنا الحصول على ثقافة أوسع، تتجاوز حدود الكتب الورقية والصحف والمجلات، إذ نستطيع أن نقرأ لكل كاتب على الأرض عبر صفحته دون الحاجة للبحث عن كتبه، ولا ننكر أن الكتب الإلكترونية انتشرت بسرعة وصارت نصيرة العاجزين عن شراء الكتب الورقية، الباحثين عن الكم الأكبر والأسرع من الثقافة والمعرفة.

ما يقلقني في الهاتف الذكي هو سرعة الوصول لصاحبه، تتبع خطواته، القدرة على اقتحام حياته الخاصة التي صارت هشة ومكشوفة عبره، والقدرة على سرقة كل ما حفظ على الهاتف الذي لا يخلو من ثغرات أمنية قد تدمر حياة صاحبه.

لقد اختلفت حياتنا بعد ظهور الهواتف الذكية، صرنا أكثر جرأة، وعلت أصواتنا، وأصابنا الغرور، استطعنا تزوير الكثير من

محمد عبد الرسول

الحقائق عنا، وتمكنا من خوض المعارك الكلامية، وتشويه صورة الآخر المختلف عنا، كما استطعنا الدفاع عن قضايانا أيضا، وحشد المؤيدين لها، وتتبعها طوال اليوم، وشتم ولعن المعارضين لها.

صار الهاتف جزءا أصيلا من حياتنا، يغرينا مطفأ بالكثير من الترفيه ليرضي فضولنا حول الآخرين، يشغلنا مضاء عن أبسط ما حولنا فننسى أهمية التواجد جسديا وذهنيا مع أحبائنا لنرضي الافتراضيين، لا يستطيع أغلبنا وضع الحدود التي تفصل بين هذا الجهاز والحياة الخاصة بنا، وقد يصل الأذى والدمار إلى عائلاتنا نتيجة علاقتنا المشوهة به وعبره.

ولكل ذلك يقلقني إلحاح طفلي لتملك هاتف ذكي، وأنا مصرة على تجاهل هذا الطلب، فلا أريده أن ينسحب من نشاطات اللعب مع رفاقه والقفز وراء الكرة، والتقوقع فوق هاتفه مذهولا بما قد يعرضه عليه، ملبيا كل فضول له حول هذا العالم المشوه.

أعتقد أن على مبتكري التطبيقات كلها منع الأطفال تحت الخامسة عشرة من التورط فيها، وعلى الحكومات وضع قوانين صارمة تعيد لهم حياتهم الطبيعية، لأنهم لا يمتلكون القدرة على مواجهة هذا العالم بوجوهه الحسنة والمشوهة، وقد يتعرضون إلى أشكال مختلفة من البلطجة والتشويه عبره، فيفقدون ثقتهم بأنفسهم، وتقبلهم لذواتهم وعائلاتهم، وقد يعرضهم لخطر حقيقي.

وأخيرا، أتمنى أن تعود الحياة إلى بساطتها، وأن يوضع الهاتف الذكي على الرفّ لبعض الوقت، ليحصل كل منا على أفكار نقية مصدرها مخيلته وحده، لا يشوهها خوف من الرأي الآخر، ولا تلوثها رغبة في الانخراط في تيار ما، ولا تنمطها حاجة إلى الشهرة والصيت، لنجمع حولنا الأحباء من جديد، ولا نعود إليه إلا عند الحاجة الحقيقية له.

روائية من الأردن مقيمة في الكويت

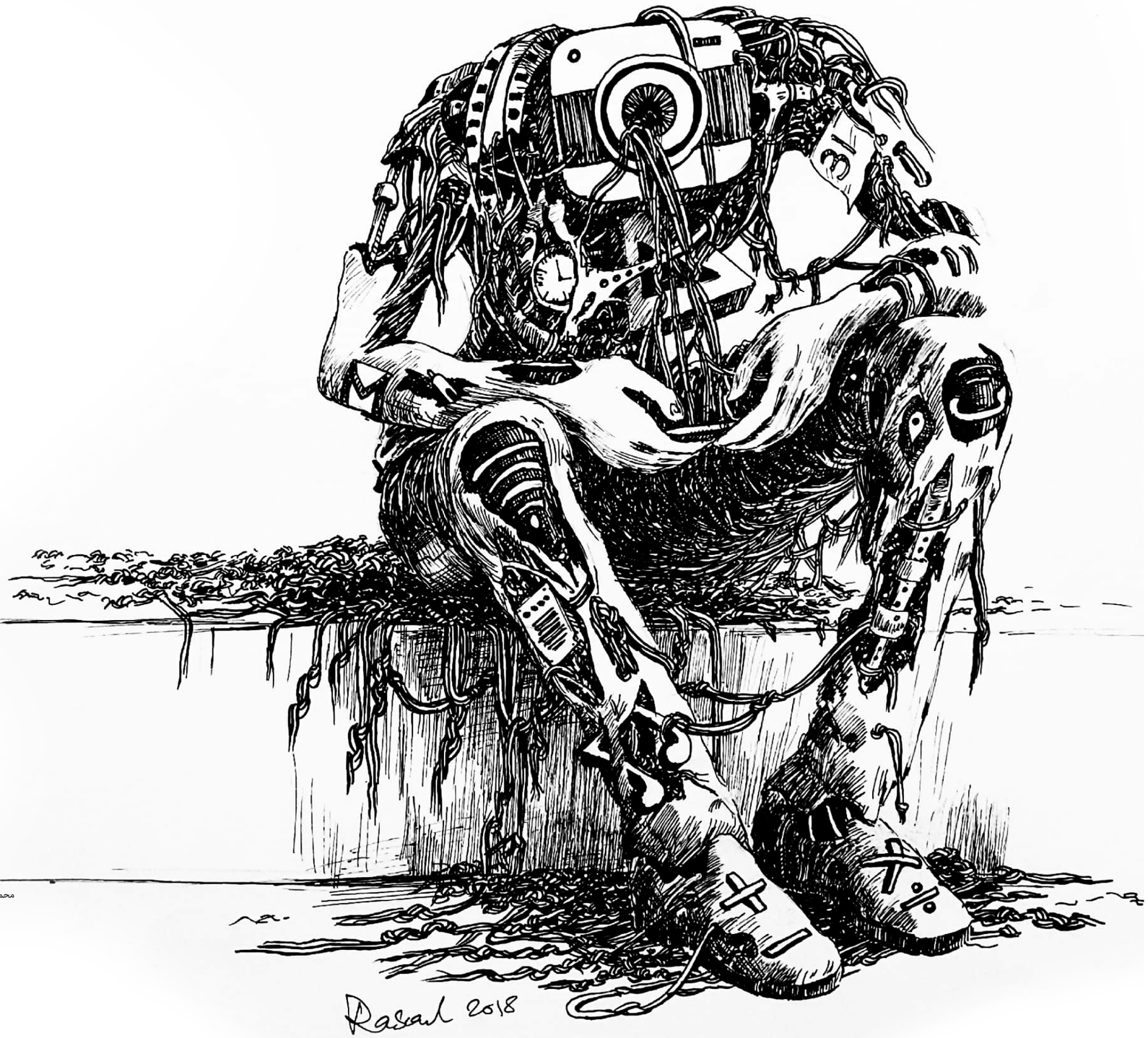

محمد عبد الرسول

شعرية اللحظة الراهنة

قراءة في جدل الافتراضي والواقعي

محمد السيد إسماعيل

يعدّ الشعر أكثر الأجناس الأدبية استجابة للتطورات الحضارية المتلاحقة وقد ظل من الشائع تقسيم الشعر بناء على البعد الزمني إلى عصور متعاقبة بدءا من العصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث أو بناء على البعد الفني من قبل تقسيم الشعراء إلى شعراء الطبع -البحتري مثالا- وشعراء الصنعة كأبي تمام أو القدماء والمحدثين أو بناء على ما شاع في العصر الحديث من مذاهب أدبية كالإحيائية والرومانسية والواقعية والرمزية.

ورغم صحة هذه التقسيمات وجدواها وقدرتها على مقاربة الشعر يظل من المهم أن نتعامل مع الوسيط الذي تنتقل من خلاله «الرسالة» -الشعر- من المرسل -الشاعر- إلى المتلقي، لقد ظل هذا الوسيط مهملا ولم يلتفت إليه كثيرا إلا في العقود الأخيرة من خلال بعض الدراسات القليلة التي طرحت تأثير الشفاهية والكتابية على النص الشعري أو السردي فلا شك في أن انتقال الشعر من الشفاهية -في العصر الجاهلي- إلى الكتابية قد صاحبه الكثير من التغيّرات الجمالية منها على سبيل المثال الانتقال من المباشرة إلى التعقيد الدلالي ومن السمات الجاذبة للأذن إلى ما يلائم الرؤية البصرية.

ولا شك أن مثل هذه السمات الشفاهية ظلت مستمرة مع ما لحقها من سمات كتابية حتى العصر الحديث وليس أدل على ذلك من قول البارودي «تكلمت كالماضين قبلي بما جرت/ به عادة الشعراء أن يتكلموا» فالشعر -عنده- كلام يلقى وتستقبله «أذن» المتلقي بكل ما يستلزمه ذلك من جماليات على مستوى اللغة والصورة الشعرية والإيقاع.

ويمكن القول إن حركة الشعر الحر -شعر التفعيلة- هي أكثر الحركات الشعرية استفادة من الجماليات الكتابية بما أتاحه شكلها المعتمد على الدفقة الشعرية التي لا تلتزم بعدد محدد من التفعيلات من إمكانيات تشكيل فضاء الصفحة الشعرية التي توزعت عليها الكلمات بناء على حركة الدلالة التي يسعى الشاعر إلى تأكيدها.

نحن الآن -ومنذ عقود- أمام ثورة جديدة تتمثل في توظيف وسائل التواصل الإلكتروني من خلال ما يسمى بشبكة الإنترنت التي جعلت العالم أشبه بالغرفة المغلقة وليس -فحسب- أشبه بالقرية، كما كان يقال، وهو ما هدد السلطة الورقية الكتابية وأصبح من الممكن وصف هذا التواصل «الافتراضي» بالسلطة الخامسة بعد سلطة الصحافة الرابعة حيث أصبح التواصل الافتراضي لحظيا من خلال اصطحاب الهاتف الجوال -الموبايل- بإمكانياته المتعددة: الإنترنت، القنوات التلفزيونية، الإذاعة، الكاميرا، المنبه، الساعة، الحاسبة. فمن خلال هذا الجهاز الصغير الذي لا يزيد عن حجم «الكف» يستطيع الفرد التواصل مع العالم أينما كان ووقتما يشاء.

وأصبح من المتوقع والطبيعي أن تترك كل هذه الإمكانيات تأثيراتها على القصيدة من خلال جدل الفضاء الافتراضي والواقع المعيش ويعدّ الشاعر المصري خالد حسان في مقدمة من وظفوا هذا الفضاء الافتراضي وأصبح -بصورة أساسية- نافذتهم على العالم.

حيث يتفاعل الجمهور لحظة بلحظة مع ما ينشر سواء بالرفض أو القبول أو إبداء الملاحظات. وتبدو «التعليقات» وجهات نظر كاشفة للنص ومضيفة إليه كما لو كنا في مائدة مستديرة أو «ندوة» مفتوحة للمداخلات المختلفة.

«الفيسبوك» يكسر هيمنة الصوت الواحد، سواء أكان صوت الشاعر أم صوت الناقد.

لقد تم تفكيك السلطة وتوزيعها وأصبح التلقي جزءا من بنية النص. نحن في «عصر الجماهير الغفيرة» الذي لا يخضع لهيبة الألقاب ولا يعترف بالكلمة النهائية، عصر ما بعد الحداثة الذي يتساوى فيه الرسمي والشعبي والحداثة العليا والحداثة الرثة والذائقة المثقفة والذائقة الفطرية.

ولنتأمل هذا النص الطويل نسبيا لكي نتعرف على من أسماهم خالد حسان بشعراء الفيسبوك:

«أنا أحد شعراء الفيسبوك/ واحد من هؤلاء الذين يرهقون أنفسهم في متابعة عداد اللايكات طوال اليوم/ الذين ينتظرون تعليقات أصدقائهم كمن ينتظر معجزة/ الذين قد تعني لهم «علامة قلب» الكثير/ الذين لا يقرأون بقدر ما يكتبون/ الذين يقعون في إحراج بالغ عند كتابة سيرتهم الذاتية (.....) الذين اتفق الجميع على أن ما يكتبونه خواطر وليس شعرا/ الذين لم يقرأوا المتنبي أو أحمد شوقي أو حافظ إبراهيم...../ الذين يكتبون قصائد مجانية تعطي نفسها من أول مرة/ الذين يطاردون الحياة على حوائط فيسبوك/ وفي الغالب لا يجدونها».

هذا نص كاشف أشبه بالبيان الشعري الذي يحدد طبيعة الشعر وغاياته، فالشاعر لم تعد تعنيه آراء النقاد أو الصحافيين أو الشعراء المكرسين بسلطة الخطاب النقدي. الشاعر -هنا- يتوجه إلى جمهور آخر مختلف يعبر عن رأيه بتقنيات الفيسبوك الجديدة: «اللايك» أو «علامة قلب» أو تعليق الأصدقاء الذين لا يفترق عنهم ولا يرى في نفسه امتدادا لكبار الشعراء.

ونوعية هذا الجمهور تحدّد طبيعة الشعر الذي ينبغي أن يكون مجانيا مباشرا يعطي نفسه لقارئه من أول مرة، الشعر -هنا- بسيط بساطة صاحبه وبساطة جمهوره الذي ينتظره على «جدار فيسبوك» وليس ذلك الفن المهيب الذي يلهث وراءه الشعراء دون أن يقتربوا منه، والذي يبدو مثل:

«الكائن المتعالي الكبير المراوغ/ الذي ليس له قلب/ الذي يضحك من أحزاننا/ الذي عادة ما ينظر إلى لغتنا بسخرية واشمئزاز/ الذي لا يعبأ بلهاث الكثيرين خلفه/ هؤلاء الذين يضيعون أعمارهم في مطاردته بلا جدوى».

هذا الشعر الجليل المهيب المترفع عن البشر وعن نثريات الحياة البسيطة اليومية لم يعد هدف شاعر اللحظة الراهنة.

لقد أصبح الشعر صوت الذات في سعيها اليومي، أصبح رفيقا بسيطا يلازم الشاعر ويختلط بأنفاسه وأوجاعه في بساطة ووضوح ويصبح «فيسبوك» -في هذه الحالة- عالما بديلا للحياة أو يصبح هو الحياة ذاتها عند الشاعر وليس -فحسب- نافذته على العالم، وتصبح «الصورة» -التي نحيا عصرها- هي كل شيء، الصورة بديل عن الكائن الحي:

«أحب صورتك على فيسبوك/ ولا أجرؤ أن أصارحك بذلك/ في رسالة عابرة/ كل ليلة أشاهدها كأنني أراها لأول مرة».

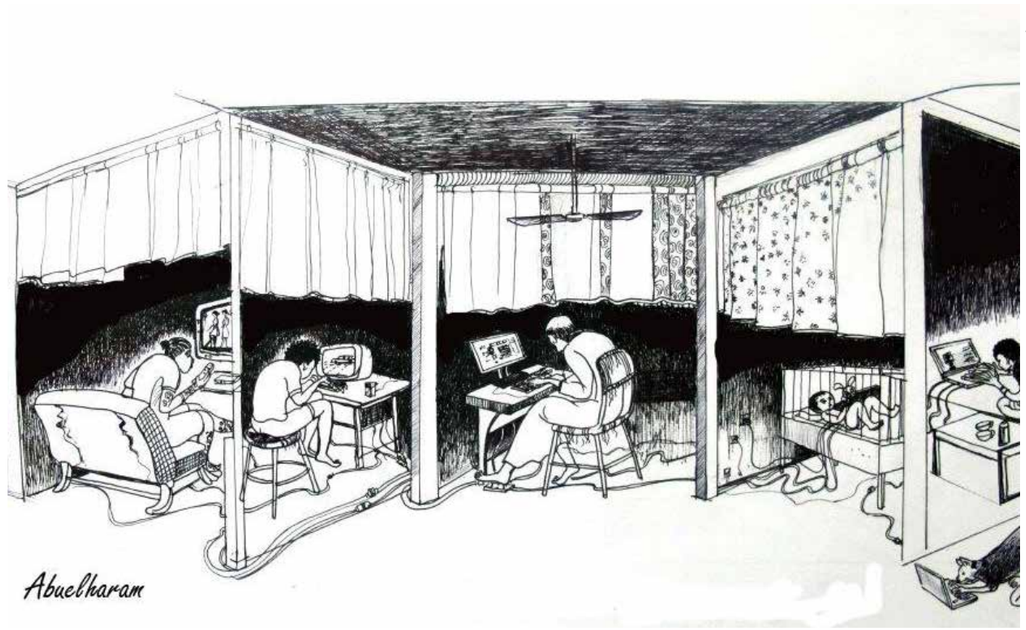

ياسر أبو الحرم

هذه السطور تعكس طبيعة العلاقة الافتراضية بين الشاعر وفتاته من خلال صورتها على «فيسبوك» دون أن نعرف اسمها أو نتعرف على مواقف تمّت بينهما، ولعله من الطريف أن نقارن بين هذه العلاقة الافتراضية وقول شوقي معبرا عن خطوات العلاقة الغرامية التي تعكس إيقاع عصره، هذه الخطوات التي تتمثل في قوله: «نظرة فابتسامة فسلام/ فكلام فموعد فلقاء». ويستمر هذا الجدل بين الافتراضي والواقعي حيث يفضي كل منهما -في نهاية الأمر- إلى الآخر:

«لابأس/ رغم كل شيء/ يتذكر «مارك» يوم مولدي/ وتشارك زوجتي بعض نصوصي على فيسبوك/ دون أن نقرأها/ لا بأس/ رغم كل شيء/ أطفالي يحبونني/ ويعاملني بعض أصدقائي/ على أنني شاعر».

وهكذا استطاعت شعرية اللحظة الراهنة توظيف تقنيات الفضاء الافتراضي وإدخاله في بنية القصيدة بغرض إنتاج نصوص مغايرة عمّا سبقها.

كاتب من مصر

وسيلة المحبين والمثقف الشبكي

علي كريم السيد

أتحين المناسبات للاتصال بأصدقائي المتفرقين عبر الهاتف النقال اتصالا يستنفد آخر «سنت» متبق في رصيد المكالمات، بهذا أسدد ديونا أشعر أني أحولها إليهم من خلال المكالمة! وأستلف بدلها ما يعينني على التذكر والتوهج قبل حلول لحظة الانطفاء والصمت، انطفاء الصوت وانغلاق الهاتف!

أستعير هذه الطريقة من نص أدبي أو شريط سينمائي بل من كتاب الروائي محمد خضير (رسائل من ثقب السرطان)، إذ يقول «صار العراقيون من أبرع الشعوب في اجتياز الفواصل، والاتصال بأكثر من واسطة أنشطها ذلك الصوت المتقطع وهو يشق الفضاء الخلوي ويتمتم بطريقته العاطفية».

مع الموبايل الحديث صارت هناك إمكانية للحب في مجتمع معزول! يفرض الفصل بين الجنسين، صار الحب أسرع وأسهل وأصبح التعارف ممكنا وهذا شيء مهم ومفصلي. صارت السيطرة الاجتماعية أصعب على الشباب واختياراتهم. حتى ظهر مصطلح «الحب عن بعد» وهو كتاب من تأليف عالم الاجتماع البريطاني أنتوني غدنز ليشير إلى الأنماط والعلاقات العاطفية الجديدة التي فرضتها العولمة والتكنولوجيا الحديثة.

الموبايل والتفاعل وجها لوجه

- صار التواصل في المناسبات والأعياد عن طريق الموبايل، مما أدى إلى إضعاف التفاعل والتواصل الاجتماعي والزيارات العائلية المليئة بالدفء، وصار الفرد يعبر عن مشاعره ويتعامل مع المناسبات من خلال الموبايل برسالة قصيرة فقط!

- كما أن الكثير من تفاعلات حياتنا اليومية مع زملائنا محددة بعلاقات تجارية بحتة، ونحن نشتري وبصورة متزايدة وقت الآخرين وتقديرهم وشعورهم وعطفهم وعنايتهم، إننا نشتري التنوير واللعب والسمو وأي شيء حتى قضاء الوقت! والحياة تتحول إلى سلعة أكثر فأكثر ومع ذلك تضيع الفوارق بين الاتصالات وتبادل المشاعر والتجارة.

- الإنترنت والموبايل تم توظيفهما من قبل الرأسمالية الثقافية لندخل اليوم في «عصر الوصول» وهو عنوان كتاب لجريمي ريفيكن، إذ أن عصر الوصول يجلب معه صنفا جديدا من الإنسان والأفراد الشباب من جيل «المتقلبين» يشعرون بالراحة وهم يديرون الأعمال ويرتبطون بالفعاليات الاجتماعية في عالم التجارة الإلكترونية والمجال السايبري، ويتكيفون بسهولة مع عدد من العوالم المحاكاة التي تشكل الاقتصاد الثقافي، إن عالمهم مسرحي أكثر منه أيديولوجي ومتجه أكثر نحو قيم اللعب بدل قيم العمل، والوصول بالنسبة إليهم هو طريقة حياة، ويقضون وقتا طويلا مع الشبكات الإلكترونية التي يتحكم بها عدد محدود من شركات الإعلام العابرة للحدود والتي تمتلك «خطوط الأنابيب» التي يتراسل من خلالها الأفراد مع بعضهم، وهي تتحكم بالكثير من المحتوى الثقافي الذي يدفع ثمنه والذي يشكل خبرات عالم ما بعد الحداثة. ويصبح عمالقة شركات الإعلام المدمجة «حراس البوابة» الذين يحددون الشروط التي يُؤْمِن بموجبها مئات الملايين من البشر التواصل بين بعضهم البعض في العهد الجديد.

- الموبايل أسهم في تقليل الخصوصية، وإمكانية وصول أي شخص إليك، مع الموبايل لم تعد حرا تماما، تقل دقائق العزلة والخصوصية، وتضطر دوما إلى البقاء متصلا! لم تعد قادرا على الانفراد بالذات، حتى مسائل العمل صارت تقتحم وقت فراغنا وتعكر مزاج راحتنا. لم يعد هناك فصل بين الخاص والعام، بين الذات والموضوع!

كما ارتبط الموبايل الحديث بالإنترنت! اتصال وتواصل في نفس الوقت؛ مما أسهم بظهور إنسان غوتنبرغ كما يسميه أمبرتو إيكو وهو إنسان الإنترنت الذي يقرأ كثيرا، وتتراكم عليه المعلومات من كل مكان. الناس ينتقلون من موضوع إلى آخر، حتى أنه يتوقع بأن تختفي حقائب المدرسة التي يحملها الأطفال على ظهورهم، إذ سيحظون بدروس القواعد على أجهزتهم المحمولة.

برغم ذلك، يعتقد إيكو أن التقنية هي المشكلة الأكبر في عصرنا، علاقتنا بالذاكرة تحيلنا إلى شخصية «فونس» تلك الشخصية ذات الذاكرة الرهيبة التي تخيلها بورخيس، وبما أنه يتذكر كل شيء، كان إما مجنونا وإما أحمق! والإنترنت فضيحة ذاكرة من دون تنقية، إذ لا نميز بين الخطأ والصواب، فالمعلومات المتوافدة تتطلب عقلا نقديا تحليليا لكي يميز وينقي الصالح من الطالح والكذب من الحقيقة!

المثقف الشبكي

المثقف الشبكي: وهو لَيْس مستخدم الشبكة البسيط وهو ليس مستهلكا لخدماتها فحسب، بل هو المستخدم المنتج في الشبكة، المؤثر في أفرادها، والمُغني في محتواها، وهو يضطلع بأدوار متنوعة، إذ لا يستطيع هذا المثقف الشبكي أن يبلغ بجهده المنصات الإلكترونية بل متنوع الأنشطة. ومتعدد الوظائف، ما يجعله منظرا ومنظما ومسيطرا، يستعمل المدونات والفيسبوك في ممارسة التأثير الاجتماعي. ويطلق الكثير من الباحثين مصطلح «الفاعلون الجدد» على هذا النوع من المثقفين الشباب، وعلى الدور الذي قاموا به في تحريك الشارع، من خلال استعمال الوسائط التقنية. قد لا يكون على المستوى نفسه الذي يعرف به المثقفون أنفسهم بيد أنه مثقف مقبول ومسموع ومؤثر في جيله، ولذا فهو مثقف ثوري-شبكي استطاع أن يحقق قدرا كبيرا من التأثير من خلال شبكة الإنترنت، إذ يمكن اليوم ومن خلال الموبايل أن تمارس التأثير وترسل رسالتك وأفكارك وأنت جالس في البيت!

وظهر ما يسمى بالمدونين الذين سحبوا البساط من القنوات التلفزيونية بنقل الأحداث أول بأول من خلال الموبايل والصورة السريعة!

وأخيرا مع صوت بلند الحيدري في قصيدته (وحشة) يشتبك الصوت وقد يضيع في زحمة الأجيال؛

«وبرن الصوت

يرنّ.. يرنّ.. يرنّ.. يرنّ.. يرنّ

أجيال تتهدم في أذني

لا شيء منك ولا مني

من نحن.. من نحن...

صوتان يموتان مع السماعة»

باحث من العراق

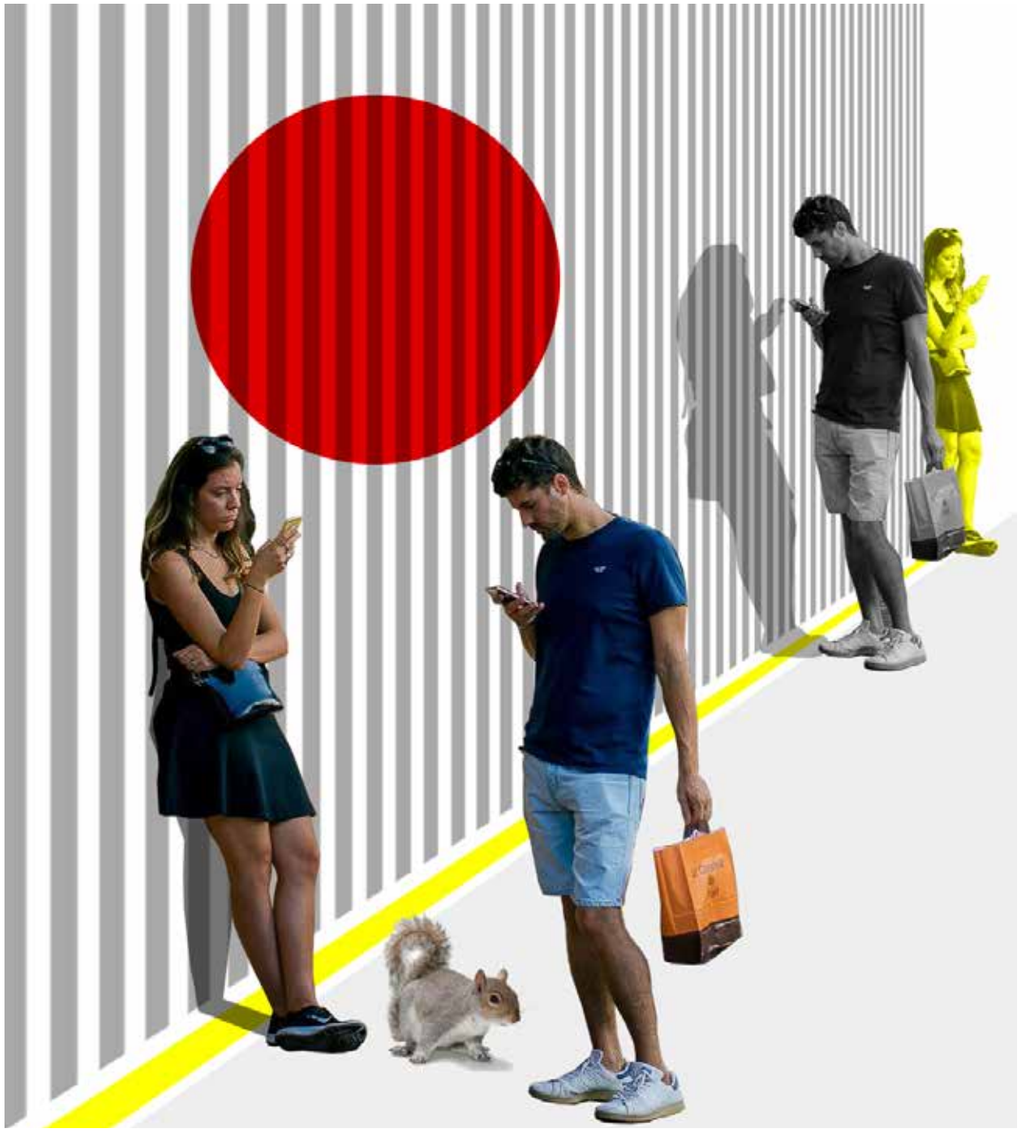

غرافيك «الجديد»

تحرير الذاكرة من الأعباء

أيمن بكر

جارية في العصر العباسي تحفظ من السماع الأول قصيدة تبلغ مئة بيت، وغلام يحفظها من السماع الثاني، أما الوالي الذي يدير هذا المشهد المبهر فيحفظ من السماع الثالث. لا يهم تفاصيل القصة، فهي أقرب للأساطير، لكن حمولتها الثقافية مهمة في سياق الحديث عن الموبايل.

قامت ثقافات العالم على عقليات شفوية تنتج معارفها وتتداولها وتحفظها اعتمادا على آليات المشافهة، حيث الأذن أهم من العين، والذاكرة هي المخزن الذي يحفظ المعارف، أي يحفظ الوجود. العقل الشفوي يخلق شيفرات محددة للإنتاج والحفظ والتداول، فالصيغ الثابتة المتكررة، والجمل القصيرة المتوازنة، والتنغيم وألاعيب البلاغة، والوزن الشعري والقافية جميعا من آليات إنتاج المعارف وتداولها وحفظها لمساعدة الذاكرة بالأساس، إلى جانب وظائف أخرى لا تنفصل عن التفضيلات الجمالية للعقلية الشفوية. في تلك الثقافات تصبح اللغة وما ينتج عنها من نطق سبب دهشة لا تنقضي، وتطلب تفسيرا أعجز العقل ساعتها. اقترحت الثقافة العربية القديمة الجن ككائن وسيط بين العالم كما خبروه وبين ما لا يمكنهم تفسيره، فأصبح للشاعر ذي النص المدهش قرين من الجن يملي عليه، وأصبح الكاهن ذو النص المدهش أيضا متسلطا على الجن قادرا على تسخيرها خدما مطيعين. ولكن تبقى الطاقة التي شعروها خلف فعل الكلام مدهشة تفوق ما وصفوه، فقدسوا اللغة نفسها، وألصقوا بها قدرات سحرية، اللغة في الثقافات الشفوية فاعل في العالم يمكنه أن يفلق الحجر (أليس الحسد يتم عبر اللغة) وهي من يمكنه أن يحمي من الشر (أليست البسملة وما شاء الله تقي من الحسد).

لم يكن التحول الكتابي في عمقه مجرد اختلاف أداة أو انتقال لمخزن المعرفة/الوجود من الذاكرة إلى الكتاب، بل هو تحول في العقلية من أساس أسطوري يغيب عنه العالم إلا قليلا، إلى جانب علمي معرفي اكتشف العالم إلا قليلا. الذاكرة لا تبقي محتواها كما هو، بل تتلاعب به لصالح الجمالي الذوقي، والكتاب ينهك الجمالي الشفوي ويثبته على غير طبيعته في صورة واحدة تدّعي الانتساب لمؤلف لم يكن له وجود حقيقي في الثقافات الشفوية: من يكون هوميروس أو امرؤ القيس حقا؟

جدل نشط لأكثر من عنصر صنع الوعي الإنساني المعاصر في صورته الأكثر تعقيدا: ابتعاد عن الأسطورة، اعتماد للعلم، ثم توسيع لحدود ذلك العلم ليخرج عن جموده المعملي المرتبط بعصر التنوير.

هل تم تحييد الذاكرة البشرية بنقلها إلى ذواكر خارجية: الحواسيب بمختلف مستوياتها والهواتف النقالة بالأساس؟ أم ترى تم تحرير الذاكرة لتبدع؟ هل ضعف العلاقات الإنسانية متصل بخواء الذاكرة وخروج العينين من محجريهما باتجاه مخازن معرفة أخرى، بحيث لم يعد للحضور الإنساني المشترك دور في الشعور بالوجود، أو بإنتاج المعرفة أو باختبار أفهامنا للعالم؟ صحيح أن البشر هرولوا باتجاه الذواكر الخارجية مدفوعين بحلم التواصل الجنوني الذي يجعل الآلاف يفقدون حيواتهم في الشرق العربي بسبب النظر في شاشات هواتفهم أثناء القيادة، لكنّ شيئا استلبهم دون أن يشعروا فأصبحوا جزرا منعزلة، أو ربما أصبح الاتصال مستهدفا الداخل في حالة من الانتشاء الذاتي المرضي. نقل فعل الذاكرة المدهش إلى الحواسيب والهواتف نقل معه السحر الأسطوري إلى الآلة ونزعه دون هوادة من حول الكائن الإنساني. في الفاترينات والإعلانات تتألق صور الآلات بسحر آسر، ويبدو الإنسان أداة مصاحبة تكمل الصورة الأسطورية لأدوات التواصل تحديدا. هل حقا لم يأت الزمن الذي تتحكم فيه الآلة في البشر كما بشرنا فيلم تيرميناتور terminator؟ أم ترانا تخيلنا شكلا للتحكم أعمانا عما يحدث من تحكم حقيقي وحاسم للآلة في الكائن البشري وفي كل ما أنجزه عبر تاريخه؟ تاريخنا المعاصر والقديم كله تحفظه آلات.

في الثقافات العربية، ومعظمها على هامش الوجود الإنساني بصورة مخجلة وأحيانا مقززة، تحولت آلات التواصل، والهاتف النقال خاصة، إلى كيانات قاهرة متحكمة في أصحابها. صحيح يبدو الهاتف مسيطرا في الغرب أيضا، لكن الغرب يصر على وضع قوانين استخدام للهاتف النقال، ونتخفف في ثقافاتنا العربية من تلك الضوابط كلها، بل ونمارس سخرية عاجزة قبيحة ممن يطالبنا بها. في الغرب لا يبالغ البشر في اقتناء الأحدث أو الأكبر ذاكرة، وفي الشرق صار الهاتف النقال رمزا للطبقية المادية، كما تتكرر الشكوى من صغر ذاكرته كإعلان صارخ على امتلاء الآلة وخواء الإنسان. في الغرب لا يمكن للإنسان أن يتواجد إلا في ظل امتلاء معرفي ما في مجال ما سواء تم تخزين المعارف في الآلة أو في ذاكرة البشر، وفي الثقافة العربية صار الامتلاء المعرفي سببا مباشرا لشن حروب إبادة من قبل الجهلة المتحكمين في مصير المؤسسات وعلى رأسها الجامعات معظمها، وأصبح الشحن مرتبطا بالآلة (الهاتف النقال) دون سواها.

لكن هناك وجه يبدو إيجابيا، فلم تزل البقايا الشفوية قوية في الشرق، ما حول الهواتف إلى قينات محمولة تعزف كما عزفت سلامة القس. صار الهاتف مخزنا للفنون المسموعة، كما أبدع العرب في نغمات الهاتف، حتى أصبحت سوقا يدر الملايين على أصحابها. هل يوجد في الغرب عبارة: لنسخ النغمة اضغط علامة الشباك، أو: إذا أردت شراء هذا الدعاء وجعله نغمة هاتفك اضغط علامة النجمة؟ بتلقائية مبدعة تمكنا في الشرق من تحويل المنتج الكتابي العقلاني إلى أداة شفوية جمالية، يتم التلاعب بها كما تلاعب الرواة العباسيون بالنصوص الجاهلية وضعا وتعديلا، المهمّ هي القيمة الجمالية المسموعة. وبدلا من ذاكرة الجارية المدهشة التي تحفظ القصيدة مهما طالت من السماع الأول، أصبح لدينا الجوال الذي يحفظ من الضغطة الأولى معارفنا، صورنا وموسيقانا، تاركا ذواكرنا العربية خاوية بلهاء.

ناقد من مصر مقيم في السعودية

ام وابنتها في فلسطين وأموبايل ثالثهما

إعادة هيكلة القيم

محمد عبدالباسط عيد

كل اختراع جزء من احتياج، وكل احتياج هو بالضرورة جزء من ثقافة ما يعبّر عن مجموع قيمها أو عن بعض هذه القيم، ولأننا نعيش عصر الثورة المعرفية والرقمية، فإن المنجز الجديد يتجاوز سريعا بلد المنشأ ويهاجر إلى بلاد أخرى وثقافات أخرى لا تعرفه ولم تفكر فيه يوما، وقد تكون في غير احتياج إليه، أو تحتاجه بقدر أقلّ وبما يخدم أهداف مؤسسة معيّنة أو شريحة محدودة من مجتمعها.

كل المنجزات سواء في الأهمية، ولكن الاختراع الذي يتجاوز فئة معيّنة إلى جماهير الناس، الكبار والصغار، الأغنياء والفقراء، كما هو الشأن مع الهواتف النقالة، فهنا نكون إزاء اختراع عظيم الأثر، وهو بالتأكيد يتجاوز دوره الوظيفي الذي يتعلق بالتواصل أو الاتصال الإنساني إلى أدوار أخرى ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية وقيميّة.

ويمكننا أن نفترض -مثلا- أنّ الحاجة إلى التواصل الإنسانيّ والعلميّ في مجتمع حداثيّ معقّد، تعلو فيه قيمة الوقت وسرعة الإنجاز كانت وراء اختراع الهواتف النقالة. يمكننا بالتأكيد أن نفترض ذلك، ويمكننا أن نتساءل عن الأثر الذي سوف تحدثه هذه الهواتف في مجتمعات مغايرة وثقافات مغايرة... ولكن الملاحظ أنّ هذه الهواتف اليوم تجاوزت هذه الوظائف الأولى التي قد لا نختلف حول أهميتها إلى وظائف أخرى أحدثت جدلا وتغيّرا كبيرين في كل مكان انتقلت إليه من بلد المنشأ إلى غيره من البلدان.

لقد صارت هذه الهواتف وما اتصل بها من برامج تواصلية كالفيسبوك وتويتر... إلخ أيقونة العولمة وإحدى أدواتها وتجلياتها، فلم يعد الحديث عن كون معولم مجرد كلام وإنما غدا حقيقة ملموسة يعيشها الكبار والصغار لحظة بلحظة، لقد غدا العالم على اختلافه «مجتمعا في شبكة»، كما يقول عالم الاجتماع Castells، وإذا قلنا العولمة فهذا يعني -بالضرورة- التدفق المعلوماتيّ بكافة أشكاله وصوره، كما يعني أننا إزاء كون منفتح تلتقي أطرافه على ما بينها من تباعد في الجغرافيا التي لم تعد ذات أهمية... لقد أثّر هذا بشكل واضح على حالة الثبات والسكون التي شكلت وعي مجتمعاتنا قرونا عدة، وعلى كافة المستويات الدينية والاجتماعية والسياسية... إلخ. بحيث يصح القول: إن هذا الاختراع أحدث هزّة كبيرة في هذه الثقافة، فقد تراجعت حالة الثبات لصالح قيم التمرّد والحراك والتفكير في المسكوت عنه، أو التفكير بصوت جهوري في ما كان يفكر فيه على نطاق ضيق.

لقد بدا الأمر وكأننا نعيش حالا من التمرّد المستمر على كل شيء، بالتأكيد يمكننا أن نتحدث عن حالة من الشوشرة واضطراب الرؤية، وهذا بديهي بالنسبة لثقافة وجدت نفسها -على غير موعد- في مواجهة مع قيم العصر، فكان عليها أن تسلك أحد سبيلين، إما أن تنخرط في عصرها وإما أن تلوذ بما عرفته واستقرّت عليه قرونًا عديدة، وهذا بالفعل ما كان؛ فقد انخرط فريق منّا في الدعوة إلى التغيير الواسع، وتغذية حسّ التمرد متماهيا بذلك مع حراك اجتماعي ثوري دعا إليه بالأساس جيل تفتّح وعيه على ثقافة الهواتف النقالة وامتدّ أكثر فأكثر موجّها نقدا موسعا لأخص ما يميز هذه الثقافة وهو خطابها الديني الذي يعود إلى القرون الأولى للإسلام، وذلك في مقابل فريق آخر يحارب هذه الدعوة ويعتبرها مروقا، ويبث أفكاره تلك عبر البرامج التي أتاحتها الهواتف النقالة أيضا.

بالتأكيد يمكننا أن نتحدث عن قيم عالمية تدعو إليها هذه التقنيات وترسّخها ليل نهار، ويمكننا أن نتحدث في الوقت نفسه عن شكل من المقاومة والنزوع الهوياتي الذي يعتبر هذه القيم عدوانا على ثقافته، وهذه المفارقة تحتاج إلى مقاربة أخرى، فالملاحظ أن كل انفتاح تفترضه العولمة يقابل بنقيضه، وهو الاستغراق في المحلية والمبالغة في ذلك، وهذا لا يقتصر على الثقافة العربية، وإنما يتسع ليضم كل أشكال الثقافة ذات الطابع المميّز أو التاريخ الطويل، فكل حديث عن العولمة يستدعي بالضرورة الحديث عن المحلية، ليس باعتبارهما ضدين متقابلين، وإنما باعتبارهما حضورين متزامنين.

لقد تجاوزت الهواتف إذن فكرة التواصل الأولى بين إنسان وآخر، أو بين أفراد العائلة؛ فنحن نتحدث عن قيم جديدة وتوظيف جديد يعمد إلى خلق وعي مغاير للسائد، لنقل إذن إننا إزاء حالة من الجدل تعاد بها ومن خلالها هيكلة منظومة القيم التي سوف تسفر -بلا شك- عن واقع جديد، لن تجدي كل محاولات تهجينه والسيطرة عليه، وهذه الحالة من الاضطراب والشوشرة لن تستمر طويلا إزاء هذا الانفتاح المعرفي والتغير القيمي

ياسر أبو المجد

الذي تبثّه هذه الهواتف كل لحظة، فالواضح أن الواقع يتغير بشكل كبير لصالح الانفتاح خصوصا مع الأجيال الأصغر سنّا.

فإذا تركنا هذا الجانب ذا الطابع العام إلى متابعة تفصيلة صغيرة مما أحدثته الهواتف الذكية، وهو الجانب المتعلق بالتواصل الفردي، يمكننا أن نتابع بعض تجليات هذا التواصل وقدرته على إنارة الجوانب المعتمة التي لا نريد أن نراها في مجتمعاتنا؛ فقد منحت هذه الهواتف الإنسان (الذكر والأنثى) الفرصة واسعة للتواصل والبوح والكشف والخوض في ما لم يكن مسموحا الحديث عنه.

يمكنك -مثلا- أن تتابع مع رسائل الهواتف وبرامج التواصل الجانبَ المعتّم في الطريقة التي تتكوّن به الأسرة في مجتمعاتنا، لقد حملت إلينا الهواتف أنّات هذه الأسرة وأوجاعها، وكشفت لنا مساحة البوح ما يمور به باطن الأسرة من قهر واضطرار وعجز عن الحياة الحرة، بداية من الطريقة التي تتكوّن بها، وهيمنة العشوائية عليها تارة والتسلّط الاجتماعي تارة أخرى، فتنشأ الأسرة نشأة مضطربة، تنعكس سلبا على الأبناء فيما بعد... كل هذا كشفت عنه الهواتف، وأخرجته إلى السطح، في صورة قضايا اجتماعية إعلامية حينا، وفي قاعات المحاكم حينًا آخر... وكأنها وضعتنا إزاء مرآة معظمة ترينا فيها ما لم نكن نراه، أو كنا نراه ولكنّا لا نحب أن نواجهه أو نتحمل مسؤوليتنا كاملة عنه.

فليس صحيحا أن الهواتف ساعدت على تفكيك الأسر في مجتمعاتنا، كما يذهب إلى ذلك فريق من الدارسين الاجتماعيين، وإنما الصحيح أنها كشفت لنا هذا الجانب المعتّم، وأنها وضعتنا إزاء البناء الهشّ الذي تقوم عليه مثل هذه المؤسسة، وهو ما يحتاج منّا إلى وعي اجتماعي جديد، بخطورة تكوين الأسرة على نحو عشوائي، وخطورة التخلّي عنها وعن مخرجاتها -الأطفال- باعتبارهم أبناء المجتمع في الوقت نفسه، وهو ما يستوجب منه العناية بهم نفسيّا واجتماعيّا في كل الأحوال.

بالتأكيد سوف تتطوّر الهواتف أكثر فأكثر، وسوف تنتشر القيم العالمية معها أكثر فأكثر، وإذا كان ذلك قد أوجد المحلية بجوار العالمية، أو العالمية مجدولة بالمحلية فإنه لا يعني الخوف من الهواتف، ولكنه يفرض علينا مواجهة أنفسنا بمشاكل واقعنا، وأن قيمنا المحلية أو حتى الدينية لا تتعارض بالضرورة مع قيم عالمية إنسانية رحبة.

كاتب من مصر

محمد عبد الرسول

ملف

سينما المستقبل

الموبايل والسينما وفوضوية الحياة في مصر

إيهاب سلطان

الهاتف المحمول «الموبايل» إحدى أدوات التكنولوجيا التي غيّرت حياتنا، وأداة فعالة في إعادة تشكيل ثقافة المجتمع بعد ربطه بالشبكة العنكبوتية، حيث أصبح من أساسيات الحياة والأعمال، فمع دخول الهاتف الذكي في عام 2007 وما رافقه من ظهور تطبيقات لا سيما شبكات التواصل الاجتماعي تغيّرت حياة المجتمعات.

ولا يمكن للكثير من الناس تخيّل الحياة دون الهاتف المحمول بسبب التأثير العميق الذي أحدثه في حياتهم، وبدأ يعيد تشكيل ثقافة المجتمعات في إطار التقارب المزاجي لشريحة من المجتمع، وتجلت تداعياتها في اللهجة والأسلوب ومستوى الكلام والتزوّد بالمعارف. فهو الصحيفة والكتاب والصديق والحبيب والفن الجميل والإبداع الراقي.

حاصرت ثقافة «الموبايل» المصريين مثل باقي الشعوب العربية في كافة جوانب الحياة، وأخذت في الاتساع حتى شكل (الموبايل) ثقافة يألفها ويفهمها الجميع تبدأ بالكلام وتنتهي بالصور والفيديوهات، وبات لكل مواطن إذاعته وشاشته الخاصة التي يتواصل بها مع الآخرين ويعبر من خلالها عن آرائه وأيديولوجيته في الشأن العام والخاص سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو السلوكي وحتى الديني.

سينما الموبايل

ولدت من رحم ثقافة الموبايل وشبكة المعارف المتاحة عبر التكنولوجيا صناعة الفيديوهات التي اتخذها الشباب وسيلة متطورة لعرض فنونهم وإبداعاتهم عبر موقع يوتيوب ووسائل التواصل الاجتماعي على غرار فيسبوك وتويتر وغيرهما.

وجذبت ثقافة الموبايل جيلا جديدا من عشاق السينما، حيث تأثروا بها، واعتبروها الباب الذهبي لإنتاج أفلام سينمائية تعبّر عنهم بعيدا عن الميزانيات الضخمة ومقص الرقيب، في ظل تربّص الرقابة الحكومية بأعمال الفنانين سواء كانت في مجال السينما أو الدراما أو الغناء والحفلات.

وارتفعت معدلات إنتاج الأفلام السينمائية عبر الموبايل بعد انطلاق النسخة الأولى من مهرجان القاهرة الدولي لسينما الموبايل في نوفمبر عام 2015 رافعا شعار «سينما مناهضة العنف ضد المرأة». وتميّزت غالبية الأفلام المشاركة بالشجاعة والجرأة في التناول ما يبشر بجيل جديد من السينمائيين، كما جذب المهرجان الكثير من الشباب من مختلف المحافظات الباحثين عن عرض رسمي لأعمالهم، والحالمين بتسليط الضوء على أعمالهم وحصد الجوائز النقدية رغم ضآلتها، إلا أن أكثرهم كان يحلم بالفوز بجوائز المعدات السينمائية ليضمنوا الاستدامة لأعمالهم في ظل تواضع إمكانياتهم.

ويبدو أن النسخة الأولى من مهرجان القاهرة الدولي لسينما الموبايل رغم تواضعها وضعت الحكومة المصرية في مأزق، فلم تعترف به رسميا وترعاه ولكنها لم تنكره، واكتفت بحضور وزير الثقافة وقتها الكاتب الصحافي حلمي النمنم حفل توزيع الجوائز دون الإعلان عن رعايته أو استمراره تحت عباءة الوزارة.

ويصعب على الكثير من الشباب في مصر شراء موبايل بكاميرا عالية الجودة بسبب ارتفاع سعره، خاصة تلك الأنواع التي تمكنهم من صناعة محتوى فيديو بتقنية «4K » التي تقارب إلى حد كبير كاميرات صناعة شريط السينما، إلا أنهم يمارسون هوايتهم بكاميرات أقل جودة، ويصنعون فيديوهات بتقنية «HD»، حيث يقول محمد عبدالباسط، أحد الشباب المشاركين في مهرجان سينما الموبايل، بعد تسليمه شريط الفيديو لإدارة المهرجان «تكفيني صناعة فيديو عالي الإحساس، وحتما سيأتي اليوم لصناعة فيديو يجمع بين الإحساس والجودة».

ويكمل عبدالباسط حديثه «تحملت مشقة الحضور من إحدى القرى التابعة لمحافظة الدقهلية للمنافسة بفيديو مدته ثلاث دقائق يعبّر عن العنف ضد المرأة، وأنا أطمع في الفوز بأدوات تصوير، وليس بالجائزة المالية».

وإيمانا بأهمية الموبايل وشبكة المعارف التكنولوجية، وقوتها في جذب وتطوير وتعزيز المواهب الشابة المحلية والإقليمية والعالمية في فنون السينما، أطلقت مؤسسة مهرجان القاهرة الدولي لسينما الموبايل النسخة الثانية منه في 25 نوفمبر إلى 10 ديسمبر عام 2017 برعاية مركز وسائل الاتصال الملائمة من أجل التنمية، وهيئة الأمم المتحدة للمساواة بين

الجنسين وتمكين المرأة «Women UN»، وبصورة أكثر تنظيما ووفق لائحة وقواعد ومنافسة على جائزتين، الأولى: الشباب المبدع (من عمر 10 إلى 17 عاما، والثانية: المهنيين). وخلقت ثقافة الموبايل من خلال قطاع السينما، كما تؤكد إدارة المهرجان «فرصا للمهنيين العاملين في وسائل الإعلام والفنون وصناعة إنتاج الفيلم في مصر. إضافة إلى الدعم في إحداث تغيير وإعلاء قيمة الفن بشكل إيجابي في المجتمعات اليوم، من خلال إعطاء الشباب الفرصة للتعبير عن آرائهم عبر الوسائل السينمائية المناسبة. وذلك إيمانا بأن السينما هي أداة هامة في المجتمعات، حيث تسمح تلك الأداة بتجاوز الأمية لسهولة استيعابها وتعزيز الإبداع والانفتاح والتغيير الإيجابي».

وساهمت أفلام الموبايل في تقارب مجموعات كبيرة من العاشقين لفن السينما، حيث وراء كل عرض سينمائي كما تؤكد عزة كامل، المسؤولة عن المهرجان الدولي لسينما الموبايل، مجموعة كبيرة من العاملين شكلوا ورشا تدريبية حتى انتهوا من أفلامهم التي لا يتجاوز الكثير منها مدته الدقائق. والطريف أن هذه المجموعات لم تتفق في ما بينها على تسمية المخرج أو المصور أو الممثل أو المونتير بل تقاسمت الأدوار بأريحية شديدة حتى أخرجت أفلامها.

وتوضح كامل أن فكرة المهرجان تعتمد على إنتاج أفلام بتكلفة زهيدة ومؤثرة رغم مدتها القصيرة، مشيرة إلى أن الأعداد التي تقدّمت بأفلامها للمشاركة في المهرجان فاقت كل التوقعات، وأن الفئة العمرية التي شاركت في الدورة الأولى للمهرجان كانت من 19 إلى 55 سنة، والدورة الثانية كانت من 20 إلى 45 سنة، وأن إدارة المهرجان لا تزال تتلقى أعمالا رغم انتهاء المهرجان.

وحصد فيلم «أحمر» للمخرج مازن لطفي وبطولة رضوى حجازي، وحسام قنديل، الجائزة الذهبية للمهرجان وقيمتها عشرة آلاف جنيه (550 دولارا تقريبا)، والجائزة الفضية وقيمتها ثمانية آلاف جنيه (450 دولارا تقريبا) أسندت لفيلم «نور مطفي» من إخراج خالد خطاب، والجائزة البرونزية وقيمتها خمسة آلاف جنيه (280 دولارا تقريبا) أسندت لفيلم «غريبة عن المدينة» من إخراج عمرو موسى.

تشترط كامل ألا يحمل الفيلم المشارك في المهرجان رسالة عنصرية أو تحقيرا من المرأة أو يقلل من شأنها وألا يواجه العنف بالعنف، والاختيار يتم وفقا لمعايير تقنية وفنية مع وجود رسالة عالية ومضمون مؤثر. كما أنها تفكر جدّيا في توسيع دائرة المشاركين في مهرجان سينما الموبايل في دورته المقبلة لجذب أعداد أكبر من غير المصريين، حيث تأمل بأن يتم نشر فكرة المهرجان على المستوى الإقليمي والدولي وأن يزداد الاهتمام من جانب الشباب بمناهضة العنف ضد المرأة عن طريق استخدام الموبايل كوسيلة.

مفردات لغوية جديدة

بعيدا عن فن السينما، ساهم الموبايل كأداة فعالة في أيدي المصريين في إضافة مفردات جديدة للهجة المصرية من بينها على سبيل المثال وليس الحصر «فصلتني» كناية عن الانفصال عن الحالة التي كان عليها، «اشحن على الطاير»، «اشحن لي» كناية عن إضافة رصيد للموبايل، «الشبكة مشغولة» كناية عن انقطاع الاتصال بشبكة الموبايل، «الموبايل فاصل شحن»، «رن لي شكرا»، «رسايل ورنات بقى»، «اشحن على النوتة»، «شفرتو» كناية عن انقطاع الاتصال مع شخص ما، «مسيدج كول» كناية عن إرسال رسالة لموبايل آخر، وغيرها من المفردات التي باتت معروفة للجميع.

استخدام الرموز التعبيرية

لا يكاد يخلو تطبيق للتواصل الاجتماعي لمستخدمي أندرويد من استخدام للرموز التعبيرية «Emojis» ورموز المشاعر «Emoticon» الثابتة منها والمتحركة، والتي أصبحت لغة عالمية متعارف عليها (ثقافة تعبيرية دون كتابة نصوص) تمكن المستخدمين من التواصل مع بعضهم البعض أو مع أي شخص حول العالم مع اختلاف لغته ودون الحاجة إلى قواميس اللغات أو توحيد للصياغات.

وأبدع المستخدمون في التعبير عبر الرسائل القصيرة «SMS» والتي لها عدد معين من الأحرف سواء العربية (70 حرفا) أو الإنكليزية (160 حرفا) باختصارات عدة لتقليل عدد الأحرف قدر الإمكان وذلك لتقليل تكلفة الإرسال عبر الشبكات، حيث أنه في حالة زيادة العدد عن الحد الأقصى تحسب رسالتين أو أكثر.

لغة الفرانكو أربيك

لغة الفرانكو أربيك هي لغة جديدة للكتابة بين مستخدمي الموبايل، خاصة بين الشباب العرب من خلال أبجدية مستحدثة غير رسمية، وتنطق هذه اللغة مثل العربية تماما إلا أن الأحرف المستخدمة في الكتابة هي الحروف والأرقام اللاتينية بطريقة تشبه الشيفرة. وتعتبر الأوسع انتشارا في الكتابة عبر رسائل الموبايل لأن الأبجدية اللاتينية تتيح حروفا أكثر في الرسالة الواحدة عنها في نظيرتها العربية، مما دفع البعض الذين لا يتقنون الإنكليزية إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ولكن بصيغة عربية. وسرعان ما انتشرت لغة الفرانكو أربيك بين المستخدمين لتوفير أكبر كمّ من الأحرف، كما فضلها البعض ممن اعتاد على استخدام الأبجدية

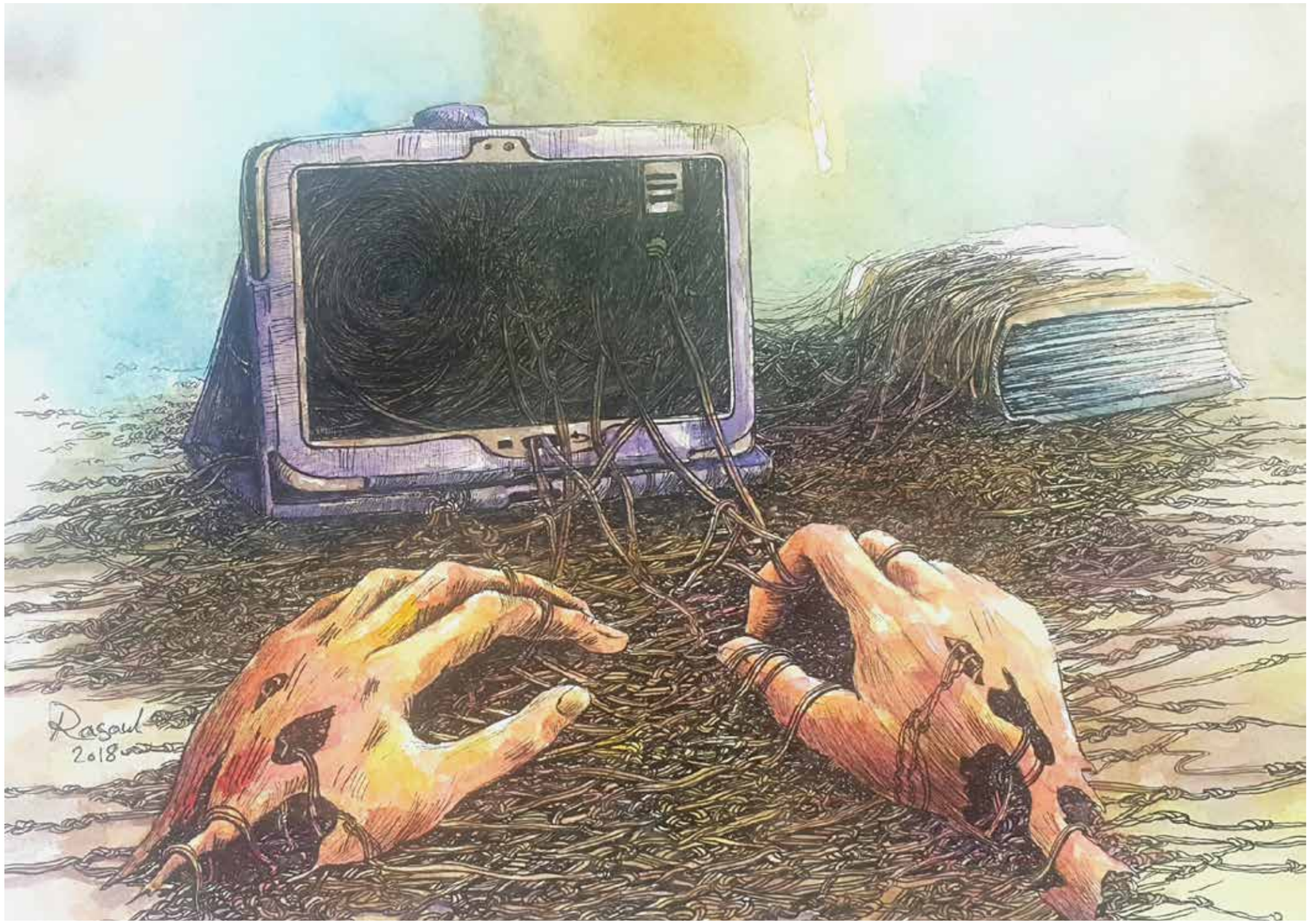

محمد عبد الرسول

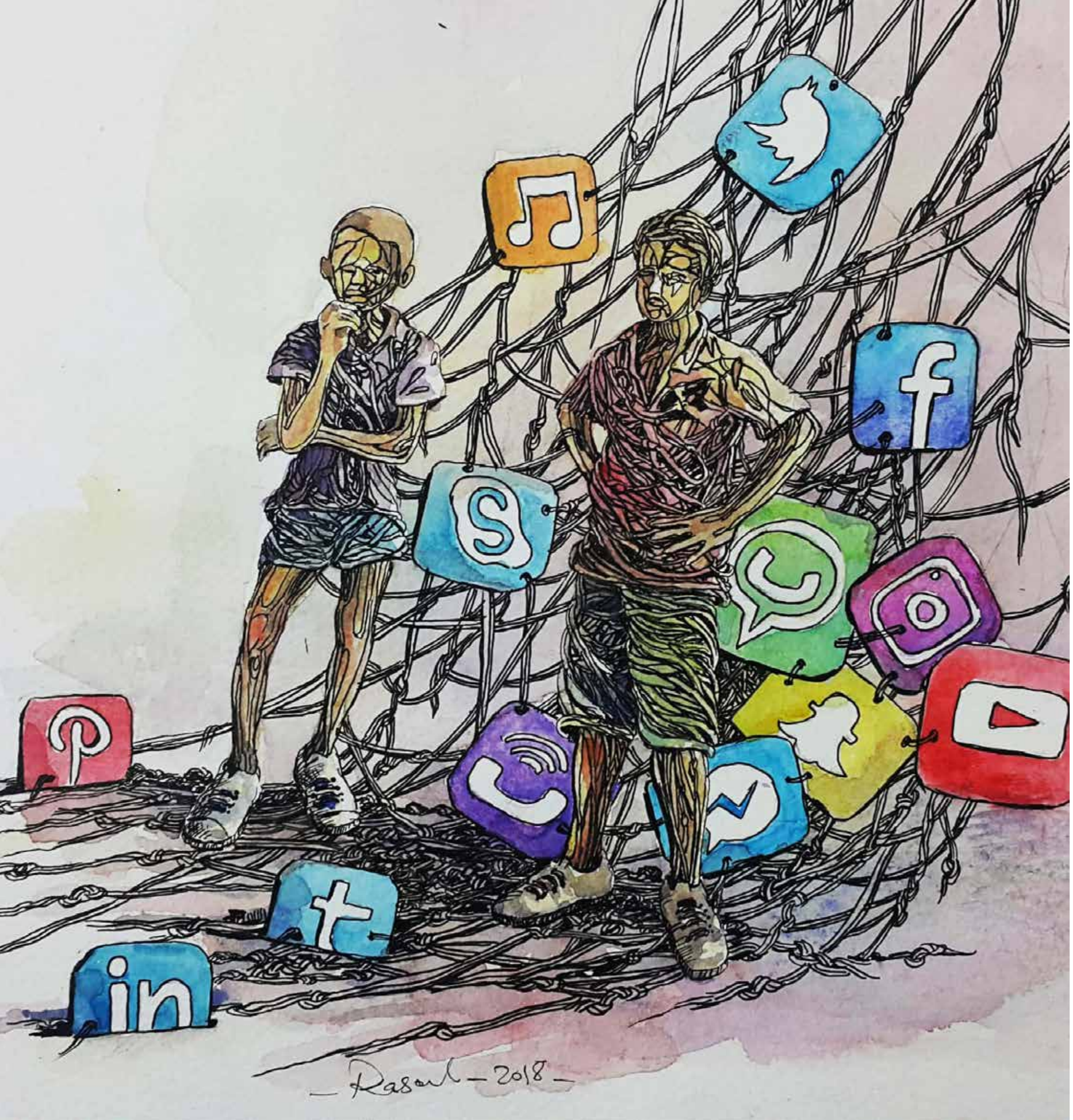

محمد عبد الرسول

اللاتينية. بالإضافة إلى أنها تحل مشكلة عدم دعم بعض أجهزة الموبايل للأبجدية العربية. وأصبح للغة الفرانكو أربيك قاموسها الخاص، بأبجدياتها التي انتشرت بين المستخدمين وأصبح متعارف عليها من بينها على سبيل المثال لا الحصر 6=b، 4=ش، 7=ح، 5=خ، 8=ق، 9=ص، أ a=، ب=b، ت t=، ج j=.. إلخ.

وتكتب عادة باللهجة الدارجة وليس باللغة العربية الفصحى، ويضاف إلى هذه الطريقة الكثير من الكلمات البسيطة والاختصارات المتعارف عليها في اللاتيني الإنكليزي.

ثقافة «أنا أعمل عند الله»

في ظني أن الموبايل ساعد على الدعوة الرقمية إلى الدين والثقافة الدينية في آن واحد، حيث انتشر بين مستخدمي الموبايل من خلال بعض المتطوعين والجماعات الدينية شعار «أنا أعمل عند الله» يتضمن رسائل دينية تحتوي النصوص القرآنية الثابتة والأحاديث النبوية الشريفة، وأخرى تتضمن الثقافة الدينية باختلاف التفسيرات والفهم الخاص لنصوص الدين عبر تطبيقات لقراءة القرآن وأخرى للاستماع إليه، وكذلك الأحاديث النبوية والأذكار، بالإضافة إلى إنتاج فيديوهات للثقافة الدينية بمؤثرات سمعية وبصرية وتتوافق مع التفسير الخاص للنص والتشريع والعبادات من جهة ومع العادات والتقاليد من جهة أخرى.

وتطور الأمر إلى استخدام آيات القرآن الكريم أو الأذن على هيئة نغمات لهواتف المستخدمين جهلا منهم بقدسية هذه الآيات ومكانتها الخاصة رغم صدور فتوى من دار الإفتاء المصرية بتقنين نشر الدين من خلال الموبايل استنادا إلى عظمة وقدسية القرآن وأن للمصحف الشريف عظمته وجلاله، وله آداب عامة لا بد من اتباعها عند قراءته أو حتى وضعه على الهاتف المحمول، كما أنه ليس من اللائق جعل كلمات الله سبحانه وتعالى مكان رهن هاتف لمدى قدسية هذه الكلمات وما ورد في كتاب الله عزّ وجل.

وأكدت دار الإفتاء المصرية أنه لا مانع من استخدام الأناشيد الدينية أو المديح النبوي والتي قد تناسب قصر وقت الرنة (جرس التنبيه بالمكالمة) ولا يجب أن يتم العبث بكلام الله سبحانه وتعالى وقدسية كتابه.

ورغم الإيجابيات الكثيرة التي صنعها الموبايل في حياة المصريين إلا أنه دفع بالكثير منهم إلى الحياة الفوضوية بسبب سوء استخدامه، خاصة أنه المتهم الأول في الحوادث المرورية بسبب استعماله أثناء القيادة، والمزعج دائما في الأماكن العامة التي يتطلب فيها مراعاة الهدوء التام، مثل قاعات المحاضرات، المساجد، المستشفيات والاجتماعات، والمناسبات الخاصة. بالإضافة إلى تأثيره السلبي على العلاقات الأسرية بسبب انشغال كل فرد من أفراد الأسرة بهاتفه وعدم اهتمامه أو اكتراثه بالجو العائلي الحميمي.

وتفاقمت مشكلات المراهقين من الجنسين بسبب غياب الوعي بالاستخدام الأمثل للموبايل، حيث يتبادلون الرسائل الجنسية ومقاطع الفيديو والصور الإباحية، كذلك تنتشر تجارب الحب الفاشلة وغير المستقرة، وخيانة الشريك وغيرها من صور الحياة الفوضوية التي تجاهد لتغيير منظومة القيم والأخلاق لمثيلاتها من القبح والانحطاط.

وكذلك تحميل الألعاب الترفيهية المساعدة على العزلة الاجتماعية والغياب التام عن الأحداث الأسرية كلية، والانغلاق الكامل على الذات وخلق حياة خاصة وأصدقاء افتراضيين قد يسيطرون تماما على الشخص ويعملون على جذبه من محيطه إلى عالمهم، مثلما حدث في تهافت الشباب على لعبة الحوت الأزرق التي سجلت أعلى معدلات بحث من قبل الشباب والمراهقين والأطفال ونتجت عنها حوادث انتحار لعل أشهرها حادثة انتحار الشاب خالد، نجل البرلماني السابق حمدي الفخراني، التي هزّت الرأي العام المحلي وبلغ صداها أبعد مدى، استفاق الكثير من الأهالي بعدها على حالات عديدة لشباب بلغوا عدة مراحل من هذه اللعبة التي تشترط السرّية التامة.

كاتب من مصر

العيش في غلاف معلوماتي

أي هوية لنا في المستقبل؟

محمد طيفوري

تُعد الأسئلة بشأن الهوية الشخصية، والتصور عن الذوات الاجتماعية أسئلة قديمة قِدم السؤال الفلسفي «من أنا؟»، ربما يستغرب الكثيرون من العودة اليوم لإثارة هذا السؤال المؤسس في مسار الوعي الإنساني بشكل عام؛ إذ لا يُعقل -من منظورهم- أن يحمل هذا السؤال جديدا بشأن موضوع لا يُستعاد عادة إلا عند الحديث عن التأريخ الفلسفي.

لكن أصحاب هذا الحكم سرعان ما سيراجعون مواقفهم متى انتبهوا إلى حجم التغيرات، التي يعيش على وقعها الفرد؛ بدءا من الربع الأخير من القرن الماضي إلى اليوم. وقد تكشَّفت بوضوح مع ظهور سلوكيات، تؤسس لنمط حياتي جديد لدى الأفراد والجماعات على حدّ سواء، يختلف عمّا دأبت البشرية عليه في العصور السالفة.

تنقض عوالم الافتراضي يوما بعد آخر على مساحات الواقعي، وتلتهم تدريجيا أنشطة إنسانية، كان مجرد التفكير في دخولها لهذه العوالم -حتى الأمس القريب- ضربا من الخيال. وباتت أذرع الافتراضي تتجاوز الاقتصاد والثقافة والفنون والتواصل... لتترامى إلى نطاقات ذات طابع خاص من قبيل الأحاسيس والمشاعر؛ فبتنا نسمع عن الشخصية الافتراضية، والحب الافتراضي، والصداقة الافتراضية...

تحولات ترخي بظلالها على مستقبل الحياة على الكوكب الأرضي، ففي غضون الخمسين عاما من الآن، قد تنظر الأجيال القادمة إلينا على أننا آخر الأجيال التاريخية التي نظمتها الدولة. ليس باختلاف كبير عن الطريقة التي ننظر بها نحن إلى قبائل الأمازون باعتبارها آخر مجتمعات ما قبل التاريخ عديمة الدولة.

كما ستؤثر هذه التحولات؛ إن لم تكن شرعت في ذلك فعليا، في بناء وتشكيل هوية الأفراد والمجتمعات المعاصرة. لقد رأينا مثلا كيف انقلبت حياة الإنسان سريعا بعدما جرَّب مسألة الحياة المتصلة دائما (أون لايف)، التي أعادت تشكيل القيود والمحددات وأتاحت قدرات جديدة لتطوير هويتنا، واكتساب وعي جديد. باختصار، إنها تعيد تشكيل فهمنا الشخصي والجمعي للذات.

صحيح أن العيش في هذه العوالم يتيح هامشا كبيرا من الحرية للأفراد، وينطّ على فكرة الحدود بين الأوطان، ويلغي الحواجز بين الشعوب، ويفتح الأبواب في ما بين الثقافات واللغات الإنسانية. غير أن هذا الوضع يجعلنا «بالفعل نجتمع كلنا غير أننا وحيدون»؛ كما جاء في كتاب «عزلة جماعية». إنها بداية تشكل ذوات جديدة مستقلة عن الأخيرين لا تهتم إلا بنفسها. فكل واحد يسبح داخل فقاعته. إنها أمام الفردانية في صورتها البشعة، وهي ترقص وحيدة في العالم الافتراضي.

بذلك نجد أنفسنا مجبرين على العودة الآن إلى الأسئلة الأصلية من قبيل: من نحن؟ وماذا سنصبح؟ ومن الذي يمكن أن نكونه عندما تتزايد مستويات عيشنا في الغلاف المعلوماتي؛ أي حين ينحصر العيش في الحياة الواقعية وتتمطط الحياة في الفضاء الافتراضي؟

أسئلة تلاحقنا كلما استغرقنا في دوامات العوالم الافتراضية اللامتناهية، إلى درجة بات فيها حالنا أقرب ما يكون إلى أحد تأملات الفيلسوف الألماني غونتر أندرس مع بعض التصرف، يقول فيه «عندما يصبح الافتراضي حقيقيا، يصبح الحقيقي افتراضيا».

أي هوية نتوقع أن تكون عند أجيال أُلِفت إغواءات كمال الحياة في العالم الافتراضي، وكل شيء فيها قابل للتعديل والتوظيف، ولِمَ لا للتشطيب إن دعت الضرورة إلى ذلك؟ ما يدفعها إلى رفض العالم الحقيقي المثقل بالتعقيدات والتداخل والغرائب، وأحيانا بمصادفات لا متوقعة.

كيف سيكون مستقبل جيل يصارع قصد قتل الزمن، ويسعى للخلود من خلال توثيق وأرشفة كل صغيرة وكبيرة في حياته (صور، فيديوهات...)، حتى باتت حدود الفصل والتمييز بين الخاص والعام في حياته تكاد تنعدم. وبالموازاة مع ذلك، يصرّ على تحويل واقع حقيقي معيش متعدد الأبعاد إلى واقع ثنائي أو ثلاثي الأبعاد.

ما قيمة الإحساس والشعور بالرضا الداخلي لدى أجيال النت، حين تتحول كل لحظة عامة أو خاصة، وكل مغامرة يعيشها الفرد أو حتى الجماعة إلى فرصة ذهبية للتباهي، تقدم في صيغة محمول أو كائن إلكتروني، يقذف به في الفضاء الافتراضي، ليغزو الأرض في مشارقها ومغاربها.

الهوس بهذه العوالم الافتراضية تعززه لغة الأرقام، فبحسب تقرير يعود إلى سنة 2010، أنفقت الإنسانية 498 مليار دولار أميركي على الإعلانات. كما أنفقنا على وسائل الترويج عن أنفسنا، وربما للمرة الأولى، أكثر مما أنفقنا على وسائل قتل بعضنا البعض.

في العام ذاته، كان الإنفاق العسكري 74.1 تريليون دولار أميركي، أما الإنفاق على وسائل الترفيه ووسائط الإعلام فقد تعدى حدّ 2 تريليون دولار أميركي، مع نمو الترفيه الرقمي، وتشارك الوسائط ليصل إلى 34 في المئة من مجموع الإنفاق سنة 2015، بعد أن كان 26 في المئة في العام 2011.

تتوالى تباعا الكتب والمؤلفات في الساحة الأكاديمية الغربية التي تعتمد مداخيل ومقاربات متنوعة قصد لفت الانتباه إلى حجم المخاطر التي تتهدد البشرية، جراء الانزلاق المتسارع للإنسانية في دوامات حياة الإنفوسفير، لكنها تجابه بالتعتيم والحصار من جهتين إحداهما تتعلق بالمكاسب والعائدات التي يجنيها الاقتصاد من هذه التكنولوجيا، والأخرى بانتشاء الأفراد بفورة التكنولوجيا والمعلومات والحياة الجديدة.

لكن الأكيد أن السؤال عن الهوية المستقبلية، سوف يتكرر وبشدة في قادم السنوات، حين تجد المجتمعات أنفسها أمام شرخ هوياتي كبير بين مكوناتها؛ فأجيال النت القادمة سوف تنظر إلينا كمتخلفين وبدائيين وعاجزين عن مواكبة تطورات العصر، وفي المقابل سوف يتطلع الآخرون إلى هذه الهوية بنوع من الازدراء والاستهجان.

كاتب من المغرب

أليكس غروس

غاري باكر

ملف

صندوقنا الأسود

هيثم حسين

اللعنات التي نصبّها على الموبايل تحمل جزءاً من لعناتنا على استعمالاتنا له، والافتتان الذي نغدقه عليه كذلك هو وجه من وجوه استفادتنا منه، واستمتاعنا بالمزايا الكبيرة الاستثنائية التي يتيحها لنا، ويسهّل من خلالها حياتنا.. والحديث عن مساهمة الموبايل في تعقيد حياتنا يحمل مبالغة، وتحويراً للحقيقة، فهو رهن إشارتنا، نسأله فيقترح لنا الإجابات، ونهمله فلا يعتب علينا، لذلك فنحن مَن نحمّله آثام زمننا، ويحلو لنا كالعادة العثور على ما نلقي عليه من أعباء همومنا وتوتّرات حياتنا المعاصرة..

علينا الإقرار بأنّ العصر يتغيّر يوماً بيوم، وأنّ هذه المتغيّرات تفرض علينا مواكبتها ضمن الحدود المكنة، والموبايل يساعدنا ويسهّل لنا آليات التكيّف مع مستجدّات عصرنا ومواكبتها، ويفسح لنا المجال لنبقى على اطّلاع على تحديثات الحياة وتعقيداتها في الوقت نفسه.

والسؤال عن إمكانية العيش بعيداً عن الموبايل أو بدونه، يحمل أكثر من جانب، فيمكن أن نشير إلى أنّ مَن ينأى بنفسه عن الموبايل وحمله واستعماله، يظنّ أنّه يبقي نفسه بمأمن عن التوتّر، وينعزل بنفسه عن مسار الحياة المعاصرة، ينزوي وينقطع كنوع من الاعتكاف في وقت لا يناسب الحالة، وقد يشعر بسعادة التمتّع بخصوصيّته المنشودة، لكن هل هذا يعني أنّه استطاع التأقلم مع زمنه واستحقاقات التغيير فيه؟

وفي الوقت ذاته، هل الانغماس في شاشة الموبايل لساعات وساعات يعني أنّ مستخدمه أصبح ابن عصره ومتقناً لأدواته مستفيداً منها بالصيغة القصوى التي يأملها؟

لا يخفى أنّ كلّ حالة تحمل تطرّفها الخاصّ بها، فالنأي بالنفس عن ثورة الموبايل ابتعاد عن حركية العصر بمعنى ما، والارتهان لشاشة الموبايل وتضخيمه لينهب الوقت والجهد كلّه تقيّد وحبس في إطار محدود قد يضغط يوماً بيوم على صاحبه..

لا يمكن توصيف الموبايل بأنّه خادم أو مخدوم، هو يتبع أهواءنا ويكون مفتاحاً للاطلاع على الكثير من المعارف والمعلومات، بالإضافة إلى كونه خزانة أسرارنا وصندوقنا الأسود في عالمنا الحديث، لما يحويه من تفاصيل حياتنا، حيث يمكن من خلاله رسم خارطة لحياتنا نفسها بكل تفاصيلها.

ثقافة الموبايل تؤسّس لوضع تشريعات حياتية جديدة، وتغيّر مفاهيم العصر ومعاني مفرداته نفسها، فتراها تستدرج المعاني وتعيد إنتاجها وتصديرها، مثلاً لم يعد التجاهل مقتصراً على حالة مباشرة ومتجسّدة، بل بات يتجلّى بصيغ افتراضية، كأنّ تصادف منشوراً لأحدهم، أو صورة أو تعليقاً له، وتطنّش وتتجاهل، كأنّك لم تصادف شيئاً..

وقس على ذلك، سواء كان الأمر من باب الاطّلاع أو من منطلق إرواء جوانب نفسية معيّنة تبعاً لحالاتنا ومواقفنا الحياتية ممّن نتعاطى معهم بصيغة واقعية أو افتراضيّة.

والافتراض هنا أيضاً تخطّى مجازه، بل أصبح واقعياً لدرجة يرسم لوحة تحرّكنا الاجتماعية وخارطة تواصلنا مع الآخرين، صار الافتراضي حاضراً أكثر من الواقعيّ المجاور أو المصاحب لنا في بعض الأحيان، ابتدع أناس حيوات افتراضية لأنفسهم، اخترعوا شخصيّاتهم المفترضة، يعيشونها بتفاصيلها، قد تعكس رغباتهم المكبوتة بما لا يستطيعون تحقيقه واقعياً، أو قد تكون ملاذاتهم الآمنة في خضمّ مساعيهم ولهائهم اليوميّ المعتاد.

لا بدّ من الاعتراف أنّ الإنسان دائم البحث عمّا يلقي عليه بأسباب تقصيره، سواء في حياته الشخصية أو العامّة، والموبايل يوفّر هذه الميزة أيضاً بالإضافة إلى ميزات ومزايا أخرى كثيرة يوفّرها لمستخدمه، وتصوير الموبايل كوحش ينهش أوقاتنا وينهب حياتنا ما هو إلا تصوير لدواخلنا وما نسقطه عليه، وصورة من صورنا التي نتهرّب من مكاشفة أنفسنا بها.

يختصر بعضنا الموبايل بوسائل التواصل الاجتماعي، ويحمّله مسؤولية التسبّب بعزلة الناس عن بعضهم وانزوائهم في زوايا قصية عن الآخرين، وكأنّ الموبايل هو وسائل التواصل وليس أداة للدخول إليها والتجوّل بين جنباتها وفي دهاليزها، للبحث عن تفاصيل أو معلومات، أو سبل ووسائل لبلورة صورة مشتهاة أو التهرّب من أخرى تكون مثار خوف وتوجّس..

لا أدري هل سيكون من المبالغة القول بأنّ الموبايل أشبه ما يكون بالمورفين نفسه، يمكن استعماله كعقار لإنقاذ حياة الإنسان والمساهمة بمعالجته والتخفيف عنه، أو كمخدّر لتصفية الإنسان والقضاء عليه وتدميره.. والأمر يعتمد على الصيغة التي يستخدمها فيه.

حين تمشي فإنّك تستفقد جهاز هاتفك،

لأنّه بوّابتك إلى عالمك، ونافذتك المشرعة على فضاء لا محدود، يختصر عليك كثيراً من الوقت والجهد، يكون أداة طيّعة في يدك، أنيساً ونديماً، كتاباً وخارطة، نافذة لليأس أو كوّة للأمل.. الموبايل أداة لتيسير الحياة لا لتعقيدها.. اختر من رياضه ما تشاء فأنت حرّ في تطويعه واستخدامه.

هناك مَن يتحوّل إلى عبد للموبايل، يمشي كالمسرنم وهو يستخدمه وينصاع له، كأنّه يكون منوّماً يتبع أشباحاً يقودونه في سيره، يحبس نظره في هاتفه ويمشي منقطعاً عن ضجيج الحياة من حوله، كأنّه مجسّم في مدينة أشباح لا يدري عمّا يبحث..

لا يتّصف الموبايل بخير أو شرّ، هو صورة لخيرنا وشرّنا، لقبحنا وجمالنا، لجنوننا وتعقّلنا، لصورنا السوداء التي نتهرّب من مواجهتها والنظر إليها، ولتلك التي نجمّلها بوساطته لنرتاح لها ونخادع أنفسنا بها.

ربّما يخفّف الموبايل عنا بعض شعورنا بالذنب، فالمتسبّب بالعزلة والوحشة، المشارك في تفتيت المجتمع وعزل أبنائه عن بعضهم بعضاً في قواقع إلكترونية، ليس في الحقيقة كما نصوّره أو نقولبه أو يحلو لنا إلصاق التهم به، لكنّه حمّالُ تناقضاتنا وتجلٍّ لها بحيث يمرئي لنا ما نتهرّب من البوح به.. كما نراه مسعفاً لنا في التملّص من بعض الواجبات، يختصر المسافات ويلغي الحدود، يساعدنا على تلمّس الدرب الذي يوافق مزاجياتنا وأهواءنا.

ربّما يحمل عنّا الموبايل أعباء كثيرة، لكنّه في الوقت نفسه يضيف إلينا أعباء جديدة، فلا يمكن لنا أن نتهرّب من التواصل، أو نتملّص من الاستجابة للآخرين الذين يبحثون عنّا.. ولكنّ الرائع فيه أنّه يظلّ صندوقنا الأسود بكلّ ما يعترك فيه من تفاصيل وأسرار.

كاتب من سوريا مقيم في لندن

ثقافة الفيسبوك
من مواجهة التضليل إلى تكفير التنوير

أمين الزاوي

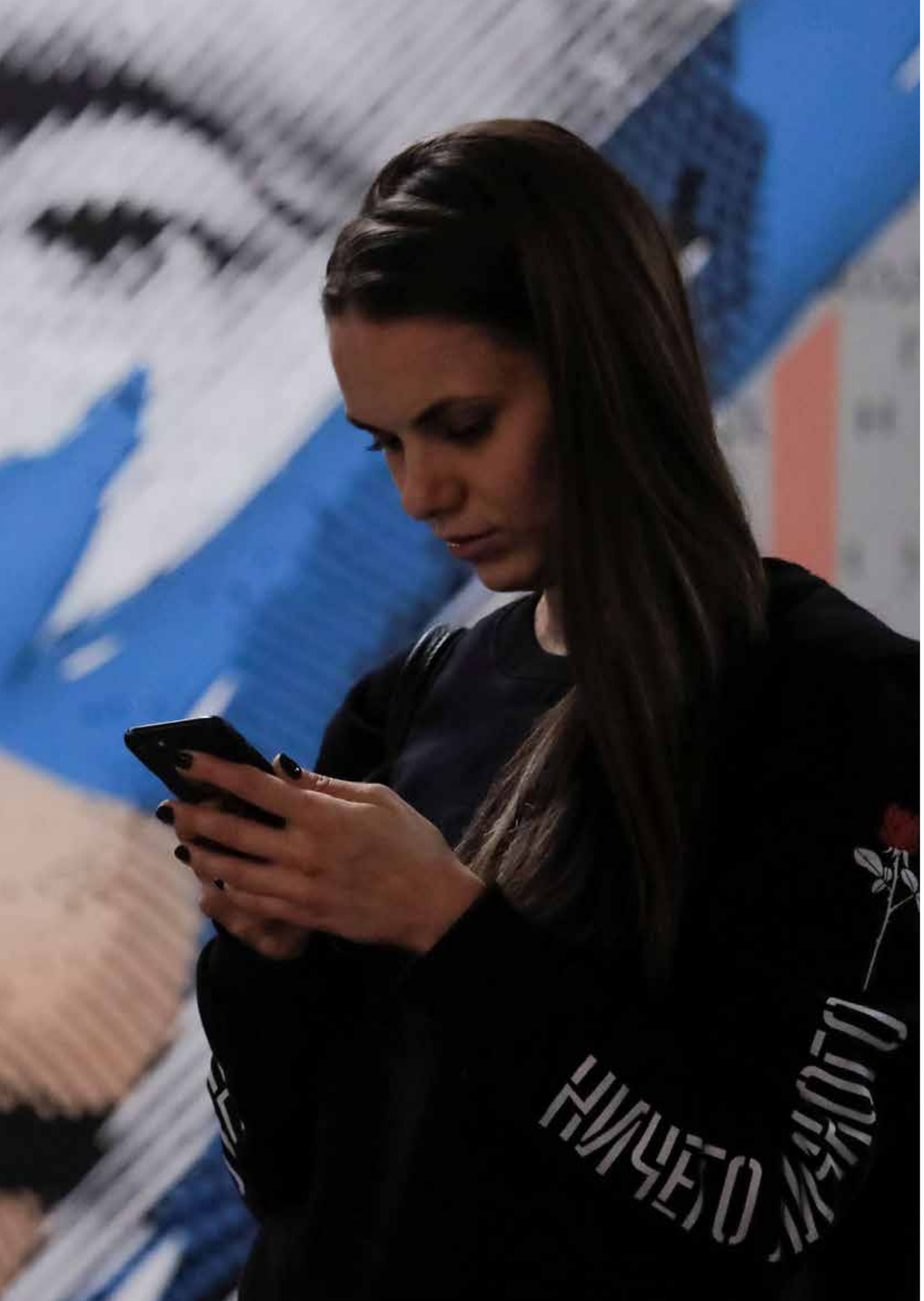

الموبايل جهاز غير محايد

شكل

الفيسبوك منذ وصوله بين أيدي الجيل الجديد منصة بأصوات شابة متطلعة لطالما أخافت الأنظمة الاستبدادية العسكرية والثيوقراطية الدينية وأرّقتها، تجندت القوى التنويرية في معركة إعلامية وثقافية وسيكولوجية فريدة من نوعها مستثمرة هذا الفضاء الأزرق، فخلال العشرية الماضية من هذا القرن وجدت الأصوات النقدية في هذا الإعلام سندا لمعركتها ضد مؤسسات مريضة واقتصادات هشة قائمة على الرشوة والفساد والفوضى التي في غالبيتها تعود إلى سنوات الاستقلالات الوطنية.

لقد استطاعت منصّات الفيسبوك أن تنقل الخوف من معسكر المواطنين البسطاء، الرعايا، إلى معسكر الحاكمين بأمر العسكر أو بأمر الله.

لقد جاء خطاب منصّات الفيسبوك بكودات جديدة، منذ بداية شيوعه في العالم العربي والمغاربي، كودات لم تستطع الأنظمة فك لغزها لأنها ببساطة كانت من اجتهاد جيل جديد، يريد الحياة مؤسسة على قيم أخرى. قيم حقوق الإنسان والعيش الكريم، وهي القيم التي ظلت مغيبة في دول العالم الثالث العربية منها والمغاربية.

لم يعد خطاب الوطنية الزائد في الحماس والفروسية السياسية ليقنع الجيل الجديد، فالناس لا تتعشى بالعلم الوطني ولا تشرب الأناشيد الوطنية ولا تتغطى بالآيات القرآنية، الجيل الجديد الذي وجد بين يديه الفيسبوك ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى لا يريد أن يعيش كما عاش الآباء تحت الذل المغلف في انتصار كاذب.

كان جلوس مئات الآلاف من الشبان والشابات أمام أجهزة الكمبيوتر يثير قلق الأنظمة التي لم تفهم أساليب هذه المعركة ولا نوعية هذا السلاح الذي هو غنيمة تكنولوجيا الغرب الكافر، الغرب المستعمر، كما ظلت تقدمه لنا الأنظمة العسكرية أو الدينية الثيوقراطية على حدّ السواء.

لقد عرّى الخطاب الفيسبوكي المضاد في سنواته الأولى كثيرا من وجوه الأنظمة الفاسدة التي مسها الربيع العربي قبل أن يصادر الإخوان المسلمون الثورات وأفسدوا مراميها.

ولعل المعركة الأولى التي خاضتها جيوش الفيسبوك التنويريون، وعلى الرغم من انهيار حلم التغيير كما كانت تحلم به هذه الجيوش التنويرية، إلا أن الأنظمة وجدت نفسها مجبرة على التراجع قليلا ولو مرحليا فأطلقت الوعود بتغييرات جوهرية في مؤسسات الدولة وسنّ قوانين جديدة متصلة بالشفافية في الحكامة، ومتصلة أيضا بكيفية تدبير أمور المجتمع كالمدونة الأسرية وحقوق الطفولة وفتح مجال الإعلام والسماح بتأسيس أحزاب جديدة، والسماح للأقليات بالحفاظ على لغتهم وثقافتهم كما هو الشأن بدسترة اللغة الأمازيغية في الجزائر لتصبح لغة وطنية ورسمية إلى جانب اللغة العربية.

وفي مقابل تراجع الأنظمة سارعت السلفية التكفيرية إلى تشكيل جيش جديد من الفيسبوكيين الجدد، منصات فيسبوك بخطاب تكفيري تارة وتخويني تارة أخرى أو تهويدي في حالة ثالثة، كل ذلك للرد على الأصوات التنويرية ووضع اليد على مستقبل البلد.

وفي فترة وجيزة تحول الخطاب في الفيسبوك من خطاب بمفردات تنويرية ضد قوى الوهابية والظلامية إلى خطاب تكفيري يمارس عملية تجييش العامة الغوغاء ضد المثقفين التنويريين.

وبثقافة التكفير هذه تعود الأنظمة القديمة بلبوس جديد مستغلة القوى الظلامية لتهديد المثقفين، وبالتالي البحث عن نقل «الخوف» من معسكر الأنظمة إلى معسكر قوى التنوير كل ذلك بتحالف غير معلن بين الأنظمة الفاسدة والخلايا النائمة من الإرهابيين.

روائي وأكاديمي من الجزائر

الموبايل والسينما

الاستخدام الإشكالي للجوال في السرد الفيلمي

طاهر علوان

لا يتعلق الأمر بخصوص الموبايل أو الهاتف الخليوي بتلك المرحلة من حياة البشرية التي طورت فيها استخدام الإشارات اللاسلكية حتى صارت بديهية من بديهيات الحياة، بل بما هو أبعد من ذلك، إلى الوعي الإشكالي بتلك الضرورة - الأداة وكيف تفعل فعلها في حياة الفرد الشخصية ومحيطه الاجتماعي.

من هنا صارت تلك الضرورة - الأداة وسيلة من وسائل الدراما الفيلمية خاصة في أفلام الخيال العلمي، وسببا في بث المزيد من الحبكات الثانوية لغرض تصعيد الدراما.

هي مقاربة فنية - إبداعية بالصورة لواقع صرنا نعيشه يوميا وكيف يمكن للهاتف النقال أن يفعل فعله في تغيير الكثير من المعطيات السائدة وكيف يمكن أن يكون أداة تحقق منفعة، فيما يمكن أن تتحول إلى وبال وشر على الوجود البشري، كلتا الحالتين وجدناهما في سينما تجد في مستحدثات العصر، ومنها هذا الجهاز النقال، نقطة تحول غيرت كثيرا من المسارات.

ولعل من العوامل الإضافية في هذا الاستخدام البشري أن يتحول الهاتف النقال في الدراما الفيلمية إلى وسيلة لا غنى عنها لكشف الحقائق والوصول إلى حالة من الانقلاب الدرامي والتحولات الدرامية.

الموبايل هنا، يكشف الحقيقة ويراقب الخصم ويفتعل الأصوات ويشهد على الجريمة ويصورها ويصبح أيضا أداة قاتلة في بعض الأحيان.

على وفق هذه المعطيات وضمن محور ثقافة الموبايل الذي وضعته مجلة الجديد محورا في هذا العدد فقد اخترت من بين العديد من الأفلام ثلاثة أفلام بمثابة عينات لاستقصاء الظاهرة من زوايا عدة.

فيلم خليوي: اتصال عشوائي وغوص في جريمة اختطاف

في هذا الفيلم من إخراج ديفيد ايليس سوف نكون مع استخدامين مختلفين للهاتف التقليدي السلكي القديم في مقابل الموبايل.

بعد أن يتم اختطاف جيسيكا (الممثلة كيم باسنجر) لسبب تجهله كما تجهل خاطفيها، تجد أمامها هاتفا سلكيا محطما، صورة امرأة مذعورة وخاطفين قساة وعزلة عن العالم الخارجي، ولهذا لا بد أن تحضر تلك الأداة لكي تساهم في دفع الدراما الفيلمية إلى الأمام.

المرأة المذعورة التي تتوقع أن يتم اختطاف ابنها الوحيد وربما قتل زوجها وهي في قمة ارتباكها تحاول إعادة الحياة لحطام ذلك الهاتف، فتربط الأسلاك بطريقة ما وتنجح في فتح خط وتطلب رقما عشوائيا ليكون على الطرف الآخر رايان (الممثل كريس ايفانس) وتناشده أن يذهب إلى الشرطة لإبلاغهم بما جرى.

تتحول تلك الأصوات المستنجدة إلى سبب في حيرة كاملة بالنسبة لرايان، هنا يتبلور دراميا استخدام الحبكة الثانوية للهاتف الخلوي الذي سوف يتسبب في قلب حياته رأسا على عقب.

الانتصار لامرأة مختطفة ثم أن يكون هو على إثر ذلك شاهدا وحيدا على اختطاف صغيرها ومن ثم اختطاف زوجها، كل ذلك يبنى على أساس وجود امرأة يجهلها وتجهله والقناة الوحيدة هي تلك المكالمات الهاتفية المتقطعة والمشوشة.

يشعر المشاهد أن الموبايل لم يعد تلك الأداة التي من خلالها يتم التواصل فحسب، بل هي الرئة التي تتنفس من خلالها جيسيكا الهواء من أجل إنقاذها وإنقاذ أسرتها، ولهذا سيكون سقوط الهاتف النقال من أعلى في اثناء مطاردة العصابة لرايان من المشاهد الصعبة بالنسبة للمشاهد.

كل ذلك الجحيم سيكون سببه هو أن الزوج يحتفظ بكاميرا مسجل عليها جريمة قتل قام بها الشرطيون أنفسهم الذين يلاحقون جيسيكا وزوجها.

ولعل من المفارقات الدرامية أن يقوم رايان بتسليم الكاميرا ليتم الإفراج عن المخطوفين، لكن مالم يكن في حسبان العصابة أن نسخة أخرى من الفيلم محفوظة في الهاتف النقال لرايان والذي بوساطته يتم فضح العصابة.

في سياق هذا النوع من أفلام الحركة تم بناء الأحداث بشكل متصاعد وبث العديد من الحبكات الثانوية المتقنة في توقيتها وتأثيرها وصار الهاتف النقال رمزيا ودلاليا مرتبطا بمجاز سردي ممتد على امتداد الزمن الفيلمي.

الرمز والدلالة هنا محملة بمعطيات تتعلق بالشكل والمحتوى الدرامي وبعنصر الحركة الطاغي على الأحداث ومن ثم بث الكثير من عناصر التوقع والتي يبقى حضور الهاتف النقال فيها فعالا.

الاستخدام اللحظي للأداة الاتصالية كان في كل مرة يولد سلسلة من الإحالات كمثل موجات متلاحقة ومع كل موجة كانت الدراما الفيلمية تسير مجتازة مرحلة اكتشاف وانكشاف حقائق باتجاه مرحلة أخرى وهو عنصر تميز في بناء تلك الهياكل الصورية التي تم استخدام السرد الفيلمي فيها بشكل متقن.

في وداع المعقل الأخير للهاتف الثابت واستقبال ثقافة الهاتف النقال

في فيلم كابينة الهاتف للمخرج جويل شوماخر سنكون في نقطة تحول اجتماعية وتكنولوجية، إنه زمن انتهاء الهاتف السلكي التقليدي وهاهي مدينة نيويرك تحتفظ بآخر كابينة هاتف عمومي تقليدي وكأنها تحتفظ بها للذكرى.

وفي وقت لا يجد في استخدامه أي ضرورة تذكر يجد فيه ستيوارت (الممثل كولن فاريل) أداته الوحيدة للتخفي عن زوجته والتواصل مع صديقته لأن الهاتف السلكي صعب الاقتفاء من طرف الزوجة في مقابل الموبايل.

لكن ما لم يكن في الحسبان أن يرن الهاتف فيما ستيوارت في داخل الكابينة ليطلب منه المتحدث على الطرف الآخر أن ينفذ ما يأمره به وإلا سوف يطلق عليه الرصاص من قناص في أعلى سطح إحدى بنايات نيويورك الشاهقة.

ما يجري تاليا من احتجاز ستيوارت مضطرا في داخل الكابينة وإطلاق رصاص من قناص ومقتل أشخاص، يخلق فوضى عارمة ويدفع بتعزيزات للشرطة، لكن اتصالات الطرف الآخر تدفع باتجاه الكشف عن فضائح تكون أولى علاماتها ستيوارت نفسه في استخدامه كابينة الهاتف لمواعدة امرأة.

وبسبب نقل شبكات التلفزة للوقائع يتحول ستيورات إلى موضوع يتداوله الناس في كل مكان في المدينة، والصور يجري تبادلها عبر الهواتف النقالة حتى عُدّت بملايين الصور التي تدفقت مشفوعة بالفضائح التي تم الكشف عنها.

تتحول المكالمات الهاتفية المتعاقبة ونداءات الشرطة وتدخلات مراسلي المحطات

فيلم « هاتف خلوي»: حبكة عززها استخدام الهاتف النقال في الكشف عن جريمة

فيلم كابينة الهاتف: انتقالات متصاعدة من زمن الهاتف السلكي الى الهاتف النقال

التلفزيونية إلى ما يشبه العرض المسرحي المتكامل.

هنا يصبح استخدام الهاتف - الثابت والمتحرك - أداة لتتبع مجريات فضائحية متعاقبة منها ما يتعلق بأولئك الذين يعملون في شركات الترويج والمبيعات الذين يخادعون المجتمع وجمهور المستهلكين ومنها ما يتعلق بإباحيين ومتاجرين بصور الأطفال.

ولعل ذلك المسار السردي الذي كانت المكالمات الهاتفية دعامته الأساسية قد أحالنا إلى معطيات تم فيها استخدام الزمن الفيلمي بالتوازي مع نمو الأحداث وتصاعدها دراميا.

خط سردي ارتبط بشكل مؤثر بشخصية ستيوارت ومن خلالها واجهنا خطا سرديا آخر قائما على فاعل مجهول، يصعّد الأحداث ويتعمق حضوره فيما هو متوار عن الأنظار وليس عنده من فعل سوى إصدار الأوامر عبر نداءات هاتفية لا تكاد تنقطع.

على الصعيد المكاني شهدنا كيف تحولت كابينة الهاتف إلى سجن صغير لا يستطيع ستيوارت مغادرته وإلا تعرض للموت. كما لا يستطيع فك سماعة الهاتف عن أذنه، وفي الجانب الآخر تظهر غابة من الهواتف النقالة متلامعة الشاشات التي تتبادل القصص بلا توقف.

خلال ذلك كأن المجتمع يمر بمرحلة انتقالية في الوعي بالتكنولوجيا والتماهي معها.

هنا سوف نلمس سلسلة إزاحات ضمنية تمخضت عن السرد الفيلمي في دائرته المغلقة المتمثلة في دائرة ستيوارت الأكثر ذاتية، من هذه الإزاحات الإزاحة الدرامية في انكشاف الخداع الذي مارسه تجاه الزوجة وتاليا ما يشبه التطهير عندما ينهار باكيا طالبا الصفح من زوجته.

وبموازاة هذه الإزاحة الأولى فإن الإزاحة الثانية كانت تلك التي تتعلق بالكشف عن حقيقة ذلك القناص المتواري عن الأنظار والمختبئ في بناية ما والتي تتمخض عن هجوم القوات الخاصة على مكان المشتبه به بعد تعقب مكالماته، ثم الإجهاز على عامل بيتزا فيما يمر الفاعل مرور الكارام قرب كابينة الهاتف لا يلتفت إليه أحد.

الإزاحة الثالثة تمثلت في الأجواء التي كانت شبه مغلقة والمرتبطة بعمل ستيورات وإذا به يمعن في خداع من يتعامل معهم حتى في مظهره المزيف، فالساعة التي يدعي أنها ثمينة والبدلات والأحذية ليست جميعا إلا ماركات رخيصة، مع أن العبرة لا تتعلق بهذا الانكشاف في حد ذاته بل بالأجواء المرتبطة بالاستلاب والضعف وفقدان الحقيقة أو التهرب منها، وذلك ما عاشه ستيوارت لتكون الرسائل الهاتفية سببا في ثقافة أخرى ومنطق آخر مختلف.

الموبايل علامة الرعب وأيقونة الموت

لا أحد يقترب من الموبايل وإلا فسوف يلاقي حتفه في طور انتقالي من كائن أدمي يتلقى إشارات مدمرة للدماغ تفقده السيطرة العقلية والجسمية متحولا إلى زومبي فرد ثم إلى زومبي في شكل قطيع وصولا إلى مجتمع الافتراس البدائي فالهلاك الدامي والوحشي.

تلك هي الخلاصة التي يمكن الخروج بها من فيلم «خلوي» للمخرج تود ويليامز.

فالعالم الممتد من حولنا يمتلئ بالأشعة الكهرومغناطيسية التي تبثها العديد من الأجهزة الإلكترونية ومعدات الاتصال، ومن أهمها أجهزة الموبايل التي تعد اليوم بالمليارات، حتى صرنا بسببها وبسبب غيرها ما شابهها من أجهزة نعوم يوميا في وسط بحر شاسع من تلك الأشعة والإشارات اللاسلكية.

السؤال الذي يمكن التوقف عنده في مقاربة هذا الفيلم هو: ماذا لو بدأت تلك الأشعة والإشارات تجد لها مستلمات حسية وعصبية لدى البشر؟

ماذا لو تفاعل البشر مع تلك الإشارات وصاروا مجبرين على الاستجابة اللا شعورية لها وصاروا مسيطرا عليهم بشكل ما؟

تلك الإشارات القادمة من أجهزة الموبايل سوف تكون سببا في قلب حياة البشر رأسا على عقب، ذلك ما تبحر فيه عميقا رواية الخيال العلمي التي تحمل نفس الاسم للكاتب الأميركي الراحل ستيفن كينك، والتي قام المخرج تود ويليامز بتحويلها إلى فيلم تحت عنوان «خلوي».

يوم يبدو عاديا تماما في أحد المطارات

فيلم خلوي: خيال علمي ممتزج بالرعب من جراء استخدام الهاتف النقال

فيلم « هاتف خلوي» : دلالة استخدام العنوان وتوظيف الهاتف الخلوي لمواكبة الاحداث

الأميركية، والكل منهمك في مراحل الإجراءات الأمنية والمرور عبر أجهزة الفحص بالأشعة السينية، بينما قسم آخر لا ينقطع رنين هواتفهم يتواصلون مع أعزاء لهم أو من لهم مصالح معهم، ولكن فجأة يقع ما هو غير متوقع.

تضرب الإشارات الكهرومغناطيسية القادمة من الهواتف النقالة أدمغة كل من يستخدمها ويصبحون خاضعين لسيطرة تامة من مصدر الإشارات، حتى يفقدون السيطرة على أنفسهم ويتحولون فجأة إلى كائنات زومبي يقتل بعضها بعضا في مشهد مروع تمتلئ فيه صالات المطار بالدماء والقتلى، ذلك هو مدخل الفيلم.

شخصيات تعيش في مآزق متلاحقة، ويتم من خلالها التصعيد الدرامي وقطع الأنفاس، الناجون هما اثنان فقط، كلاي (الممثل جون كوساك) رجل يريد رؤية ابنه الصغير بعد فراق بسبب الطلاق مع أمه، وتوم (الممثل صامويل جاكسون) سائق قطار الأنفاق، وهما اللذان يفران من حشود البشر الزومبي.

يختلط في دراما الحصار النفسي والجسدي الكانيباليون والزومبي عن سائر البشر، فبمجرد أن يغامر شخص ما بوضع سماعة هاتفه النقال على أذنه يصبح جزءا من النظام، وهكذا صار سواد الناس خاضعين لا إراديا لسيطرة خارجية لا خلاص منها من خلال الإشارات التي تصدرها أبراج الاتصالات التي تنتشر في كل مكان.

السرد الفيلمي الذي يغوص في الخيال سرعان ما سيمتزج بالرعب، وكل انتقال في الأحداث ما هو إلا انتقال إلى مذبحة أخرى، بعد أن فقد الناس صوابهم وخرجوا عن السيطرة، وصار لزاما على الأحياء والناجين أن يتصدوا بكل الوسائل للقضاء على الزومبي الهائج.

هنا لن تضرب الناس جائحة ولم يخوضوا حروبا ولا صراعات، بل إن الأداة الحداثة العصرية التي تجمّل لهم حياتهم فتربطهم بالمجتمعات التي ينتمون إليها هي التي سوف تدمر حياتهم، الموبايل الذي سوف يتحول إلى أداة رعب وموت حتمي والجموع الفاغرة أفواهها تستجيب لإشارات أبراج الاتصالات تنتظر لحظة الانقضاض على ضحاياها.

مشاهد قطع الأنفاس في وسط الغابات والشوارع المهجورة، تقدم لنا صورة سريالية للجحيم الذي صنعته أجهزة الهاتف النقال ليكتشف الناجون في ما بعد أن تلك الكائنات تفقد الحس وتنطفئ عنها الإشارات في الليل، ولهذا تكون الفرصة مواتية لرشها بالبنزين وإضرام النار فيها. ذلك ليس إلاّ مثالا من أمثلة في فيلم يعج بمشاهد الإبادة لعالم مستقبلي سيتحول فيه جهاز الهاتف النقال إلى عدو فتاك.

تلفت النظر خلال تلك الرحلة الشاقة، الانتقالات والتحولات في السرد الفيلمي مصحوبة بتحولات مكانية، ففي كل مغامرة هنالك أماكن ستشهد مفاجآت جديدة، المقهى الذي يختبئ فيه البعض من الناجين، الأكاديمية التي لم يبق فيها سوى رئيسها وشاب صغير وبيوت مهجورة إلاّ من ناجين قلائل، هذا هو الإطار الذي يمضي فيه السرد الفيلمي، وهو يمضي برشاقة إلى مساراته. وخلال كل ما سبق، لا نتوقف عن اكتشاف المكان وهو في الغالب إما معتم وإما قليل الإضاءة، وبهذا صارت الإضاءة عاملا إضافيا في رسم المكان الكابوسي، وصار البحث عن متنفس وملاذ آمن هو الذي يحرك السرد الفيلمي، وبالتالي يتم من خلاله المضي في إبراز خصوصيات المكان، وبهذا برزت جماليات السرد والمكان متلازمين في مسار الأحداث.

الحوارات المعمقة والمدروسة بعناية كانت استخداما مؤثرا ليعبر عن الشخصيات المأزومة، وخاصة تلك الفلسفة العميقة التي يخرج بها رئيس الأكاديمية، وهو إحدى الشخصيات الناجية، بأن ما يجري هو عملية مقصودة الغرض منها هو السيطرة على البشر بأبسط الطرق والوسائل من خلال هواتفهم النقالة، وتاليا الإجهاز عليهم والتخلص منهم، وكأن هنالك قوة ما خفية تلك التي أنتجت كل هذا الرعب والهلع والدماء لكي تسيطر على المتبقين من البشر الذين يشعرون في كل لحظة أن العالم يضيق والتهديد قائم، يتربص بهم وبانتظارهم.

كاتب من العراق مقيم في لندن

قنص الأحلام

"تسجيل دخول"

مسرحية الحياة الافتراضية والواقع المفقود

شريف الشافعي

مشهد من المسرحية.. مواقع التواصل الاجتماعي وحوش تهاجم الشباب

تَسْخَر الكوميديا المسرحية "تسجيل دخول" التي عرضت في القاهرة مؤخرا، من مواقع التواصل الاجتماعي، رامية إلى تفجير طاقات الشباب الخلاّقة من أجل بلوغ الواقع الحقيقي المفقود وقنص الأحلام المهدورة في حياة عبثية لا يُعوّل على مساراتها الافتراضية.

يعاني البشر خلال السنوات الأخيرة من الاغتراب والاستلاب وغياب البوصلة وفقدان الهوّية في ظل التفوق المعلوماتي والهيمنة الرقمية وطغيان المادة والآلة وانحسار الروحانيات، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى ارتياد مسالك الحياة الافتراضية ومتاهاتها اللانهائية بحثا عن بديل، عبر بوابات الشبكة البينية ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها، فزادت حدة المشكلة وتفاقمت حالة الفصام.

يأتي العرض المسرحي "تسجيل دخول" ليناقش هذه الأمور الضبابية وغيرها من القضايا المجتمعية الراهنة في مصر والعالم العربي بأسلوب كوميدي مثير، ويرصد العلاقة بين الثورات التي شهدتها المنطقة العربية وثورة التقنيات الاتصالية.

يصوّر العرض المسرحي الذي افتتح به مركز الهناجر للفنون إنتاجه في الموسم الشتوي، مواقع التواصل الاجتماعي بوصفها وحوشا تهاجم رؤوس الشباب وتفرغها من محتواها الإنساني، فالداخل إلى هذا الفضاء هو في الحقيقة خارج لأنه يصير منفيّا مغيّبا عن عالمه.

تنطلق المسرحية، التي ألفها إسماعيل إبراهيم وفادي سمير وأخرجها هاني عفيفي، من قناعة مؤداها أن الحياة الافتراضية والواقع المعيش على طرفي نقيض، فلا يمكن أن يجمع بينهما شخص سويّ، فإما أن تكون حركة الإنسان متّزنة على الأرض، وإما أن تتخطفه النداّهة الإلكترونية فيحلق في تهويمات خيالية ويسبح في متاهات وأوهام، وتسوقه الشائعات إلى الهاوية.

تستثمر المسرحية الكوميدية طاقات الشباب الخلاقة وابتكاراتهم الأدائية من خلال الفكرة الجديدة والثيمة غير النمطية والارتجالات المسموح بها فنيّا من أجل هدف تسعى إليه، هو تقريب المجتمع من واقعه الحقيقي المفقود، والقبض على الأحلام المستحيلة بقوة الإرادة وطاقة المثابرة.

يستفيد العرض من إمكانات مسرح العبث، خصوصا مسرحية "المغنية الصلعاء" للكاتب الفرنسي الروماني يوجين يونسكو (1909-1994)، ويشكل العرض بمعالجته المدهشة وتقنياته المتطورة محاولة جادة لتحريك المياه الراكدة في المشهد المسرحي بمصر، فضلا عن نجاحه في إلقاء الضوء على حصاد الثورات العربية، وأبرز القضايا المجتمعية الملحّة.

اصطياد الحقيقة

يتقاطع عرض "تسجيل دخول" مع مسرحية "المغنية الصلعاء" في أمر جوهري، هو تعثر كل محاولات القبض على الحقيقة، ففي نص يوجين يونسكو، تصير كل الأشياء والبديهيات أمورا محتملة غير مؤكدة بالنسبة لزوجين يتقدم بهما العمر وهما يعيشان معا، وكذلك يغدو الناس جميعا غير متيقّنين من معنى وجودهم وهويتهم.

تطرح المسرحية أيضا قضية المعرفة النسبية، إذ لا تيقُّن، ولا حقيقة مطلقة، فالزمن يمضي متعجّلا (هناك ساعة في خلفية المسرح تدور عقاربها بسرعة فائقة على مدار 75 دقيقة كاملة، هي مدة العرض)، والأصدقاء الستة "أبطال العرض" يتشكك كل منهم في الآخر، وفي نفسه، وفي طبيعة المكان والزمان المحيطين، وذلك بعد اختلاط أحداث الواقع بالشطحات الافتراضية.

تتناول المسرحية مشاهد من العلاقات المتوترة التي تجمع ستة أصدقاء من الشباب (ثلاثة ذكور وثلاث إناث) في الأيام القليلة التي تسبق ثورة 25 يناير 2011 في مصر، فهم مقربون من بعضهم البعض، يلتقون بصفة دورية، ويكادون يعيشون معا، لكنهم صناديق مغلقة، لاستغراق كل واحد منهم بشكل منفرد في الإبحار الإلكتروني في الشبكة العنكبوتية، وتغليب مواقع التواصل الاجتماعي والاهتمام بالشكليات على حساب أبجديات الاندماج الحقيقي مع الأهل والأقران والمجتمع.

يصوّر العرض كيف ينسلخ الشباب من ذواتهم، وينأون عن مشكلات وطنهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بسبب حُمّى السوشيال ميديا والهوس بـ"الترينـد" والوسائط الإلكترونية، وبالتالي يتم نفيهم خارج المكان والزمان، ويتوقفون "محلك سر" في موضعهم الذي يلتقون فيه، ولا تصلهم "وجبة الديليفري" التي طلبوها في بداية العرض من أحد المطاعم، رغم مرور سنوات وهم ينتظرونها.

هكذا، تضيع أعمارهم سدى، وتتعطل حواسهم عن العمل والاستشفاف، ويفتقدون القدرة على متابعة ما يجري حولهم، من قيام الثورة وما أعقبها من تغيرات سياسية

واجتماعية كاسحة في البلاد، وتقلبات في سلوك البشر والعادات والتقاليد.

وتتعرض خصوصيات هؤلاء الأصدقاء المنعزلين إلى الانتهاك من خلال هذه الوسائط غير الآمنة، ويغرقون في طوفان من التشويش والشائعات والأخبار والمعلومات المتناقضة، فتصير الحياة في عيونهم مغلوطة، تتألف من دوامات عبثية متلاحقة، وتغيب تماما إمكانية معرفة الحقيقة.

الفانتازيا والجنون

هذه الحالات الرمادية للأصدقاء الستة، المشحونين بالمخدر الإلكتروني، وفّرت بيئة ملائمة تماما لكوميديا اللامعقول القائمة على هلوسات الغيبوبة والتخريف والارتجالات والحوارات الثنائية المليئة بالجنون والفوضى والانتقال من موضوع إلى آخر للتعليق عليه، والسخرية منه، دون منطق حاكم.

في نقلات سريعة، تمكن العرض من خلال لغة الشباب العصرية والتعبيرات المتداولة في الإنترنت من التهكم بأسلوب كوميدي على الكثير من المظاهر والأمور السلبية في المجتمع، منها: انتشار الفساد في سائر القطاعات وبين الدخلاء على الثورة، الاتّجار بالدين والسياسة، الإعلام الدعائي الانتهازي، الدعاة الجدد في الفضائيات العشوائية، التحرش، الزواج العرفي وعلاقات "التيك أواي" بين الشبان والفتيات، وغيرها.

يرسم العرض مسارا عامّا للحكاية والمشاهد الكوميدية القصيرة من خلال قماشات عريضة، مطلقا العنان للممثلين ليصنعوا التفصيلات كلها بأنفسهم من خلال الارتجالات، التي هي ثيمة فنية وتدريبات مطولة وليست مجرد عبارات و"إفيهات" خارج النص كما في عروض أخرى.

يلجأ العرض إلى تقنيات مساعدة أيضا، منها الأفلام التسجيلية ونشرات الأخبار، وتتيح شاشة السينما توثيقا لأبرز الوقائع والعبارات والأقوال التي صارت أيقونات للسنوات الماضية، في أثناء وأعقاب ثورة يناير 2011، من قبيل: "جمعة الغضب"، "الشرعية للميدان"، "دولة البرلمان"، "الانتخابات الرئاسية"، وغيرها.

اتسم أداء الممثلين الشباب: أحمد السلكاوي، أوسكار نجدي، شادي الدالي، عمرو جمال، محمد الشافعي، منة حمدي، ندى نادر، وهبة الكومي، بالتلقائية والبساطة، فجاء مقنعا نابعا من شخصياتهم الحقيقية، كأنهم لا يمثلون، خصوصا مع إفساح المجال واسعا للارتجال (البطل الحقيقي للعرض) ليعبّر كل واحد عن نفسه بطلاقة.

رسمت ديكورات مي كمال، وأزياء مروة عودة، صورة ملائمة للعرض الذي يدور كله في مكان واحد، هو بيت أحد الأصدقاء الستة الذي يلتقون فيه ويتفقون على الخروج معا أكثر من مرة، لكن ذلك الاتفاق لا يتم أبدا لتشككهم دائما في بعضهم البعض.

هذا البيت مجهز إلكترونيّا، كبيت عصري يتسع للتكنولوجيا والاتصالات والأرقام، لكنه يفتقد دفء العائلة وحميمية العلاقات الإنسانية. وجاءت ملابس الأصدقاء (الجينز المقطّع والتيشيرتات الغربية) ملائمة لاهتماماتهم وقناعاتهم الداخلية بأسلوب معين لممارسة الحياة الفوضوية.

في النهاية، تصل كوميديا "تسجيل دخول" إلى ذروة السوداوية، بإعلان حلول اليوم العالمي للصمت، حيث يتلاشى الأبطال جميعا بعدما فرّطوا في فطرتهم الإنسانية، ويبقى "المانيكان" وحده على المسرح منتظرا أن تتلبسه روح متوثبة لتدب فيه الحياة بعد التجمّد.

مواقع التواصل الاجتماعي تلتهم رؤوس الشباب ارتجالات كوميدية في "الهناجر" تحرك المياه الراكدة في المشهد المسرحي بمصر. معالجة فنية إلكترونية لحصاد الثورات العربية وأبرز القضايا المجتمعية الراهنة

كاتب من مصر

يلجأ العرض إلى حشد كبير من مكونات العصر الرقمي

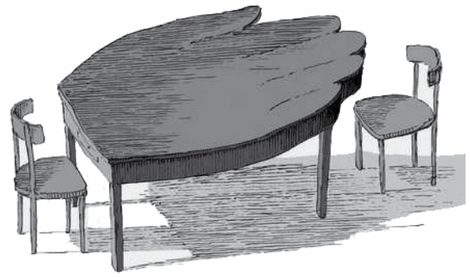

يقدّم كتاب "تاريخ العرب الحديث من الفتح العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، للكاتب أحمد زكريا الشلق، الصادر مؤخرا عن المكتب المصري للمطبوعات في القاهرة، عرضا مركزا وشاملا لتاريخ العالم العربي في العصر الحديث، ويغطي فترة تاريخية تبلغ نحو أربعة قرون، تبدأ بالفتح أو التوسع العثماني في بلاد الشام ومصر، وتمتد حتى بداية الحرب العالمية الأولى (1914-1918)؛ مبينا أن تاريخ العرب مرّ خلال هذه الفترة بمرحلتين، أولهما المرحلة التي انفرد فيها الأتراك العثمانيون بحكم العالم العربي واستمرت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثامن عشر، أي أنها بلغت نحو ثلاثة قرون إلا قليلا. وثانيهما مرحلة النفوذ والاستعمار الأوروبي، التي بدأت مع الحملة الفرنسية على مصر والشام (1798-1801) وانتهت إلى استعمار معظم أقطار العالم العربي طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ما شكّل عنصرا حاكما ومؤثرا في مسيرة التاريخ العربي الحديث، انعكست آثاره على علاقة العرب بالدولة العثمانية، وأسهم في إضعاف هذه العلاقة، حتى بلغت، بفعل عوامل أخرى أيضا، مرحلة الصدام بينهما قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها.

النساء والجنس
من الثأر إلى المغامرة

حنان عقيل

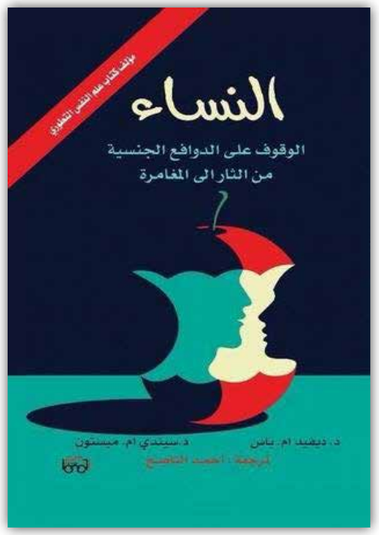

ثمة محاولات قليلة يمكن رصدها تتوخى تفسير الظاهرة الجنسية ومحركاتها لدى البشر، إذ يتم التعامل مع مسألة الجنس في الثقافة العربية خصوصًا بشيء من الحذر وكثير من القيود التي تفرضها النظم الأخلاقية والاجتماعية والدينية في هذه المجتمعات. من هنا تأتي أهمية صدور الترجمة العربية لكتاب «النساء: الوقوف على الدوافع الجنسية من الثأر إلى المغامرة» تأليف الباحثان في علم النفس: ديفيد أم باس وسيندي أم ميستون، والذي قام بترجمته أحمد الناصح، وصدر مؤخرًا عن دار المعقدين للنشر والتوزيع في العراق.

يُركّز الكاتبان في مؤلَفهما على تحليل دوافع السلوك الجنسي عند البشر لا سيما عند النساء؛ فثمة شبكة من الدوافع لدى النساء أكثر تداخلًا وتعقيدًا مما هو عليه الحال مع الرجال، ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل بعضها تتعلق بأسباب فسيولوجية وأخرى طبية وثالثة اجتماعية، ومن ثم فالكتاب رغم أنه لا يهدف بشكل رئيسي للوقوف على تأثير العوامل الثقافية على تحديد الدوافع الجنسية لدى النساء إلا أنه يتبينها في تحليله لعدد من الدوافع.

اعتمد الكاتبان على تحليل التجارب الجنسية التي أدلت بها النساء لهما في هذا البحث، مُستفيدان من نظريات عدة: دراسة الدافعيات من المنظور التطوري، المنظور الفسيولوجي بما يتضمنه من تأثير للهرمونات والخواص التشريحية على جنسانية النساء، والمنظور الثالث هو الطبي السريري ويشمل الصعوبات التي تواجه النساء في ما يتعلق بالرغبة والاستثارة الجنسية، أما الرابع فهو المنظور النفسي ويشمل تأثير الحالات الذهنية المختلفة على جنسانية النساء وتأثير التجارب الجنسية على الحالة الذهنية للمرأة.

من خلال عمليات إحصائية اعتمدها الكاتبان تم تصنيف الدوافع في تجميعات طبيعية، وفيها وصف مفصل للعلاقات الجنسية للنساء ودوافع ممارستهم للجنس مُحددين 237 سببًا لممارسة النساء الجنس وطلبا من النساء اختيار أحدها. ومن خلال «السيكسولوجيا» تفرّعت الدراسة نحو علم النفس، علم الأناسة، علم الاجتماع، البيولوجيا التطورية والطب. وركزت على فهم السلوكيات والعلاقات الجنسية وتأثير العوامل البيولوجية وظروف الحياة على الرغبات والهويات الجنسية وتأثير الجنسانية على العلاقات الاجتماعية.

فصّل الباحثان أهم الدوافع في أبواب منفصلة إلا أنهما أشارا في نهاية بحثهما إلى أن الدوافع الجنسية للمرأة في الكثير من الأحيان قد تتناقض؛ فأحيانا ترغب في الجنس في الموعد الأول لكنها ترغب بتأجيله كي لا تظهر سهلة جدا، قد تتقاذفها الرغبات بين رغبة ممارسة الجنس مع عاشق جديد ورغبتها في الحفاظ على إخلاصها لزوجها وتعيش صراعًا بين رغباتها المتضادة كما أن ممارسة المرأة للجنس غالبا ما تكون معقدة ومتنوعة ومتراكبة.

نقاط الجذب

يبحث الكتاب في فصله الأول في سؤال «ما الذي يثير النساء جنسيًا؟» محاولًا الوقوف على أبرز الصفات الشكليّة والخارجيّة التي تُمثل عوامل جذب بالنسبة للمرأة. قد يكون «جمال الشخص تزكية له تفوق أي رسالة تعريف يكتبها عن نفسه» كما يقول أرسطو، فبعض نقاط الجذب بالنسبة للنساء تعود جذورها إلى الماضي بينما نشأت دوافع أخرى بسبب الكيفية التي نعيش بها. ووفق الدراسة، قد تنجذب النساء في الرجل إلى عطره المميز والقوي، ملامح وجهه ووسامته، قوة بنيانه الجسدي وبنيته العضلية، طول قامته، صوته، طريقة حركته، حس الدعابة، إلا أن جاذبية الشكل وحدها قد لا تكون كافية أو قد لا تكون بنفس تأثير جاذبية «الشهرة والمكانة والسلطة» لدى بعض النساء. فالدافعيات وراء جعل بعض الصفات جذابة جنسيا للنساء مجهولة جزئيا وخارج الإدراك الواعي. ورغم أنه قد شاع لعقود مقولة إن الرجال يمارسون الجنس من أجل اللذة وأن النساء يمارسنه من أجل الحب إلا أن الكاتبين يؤكدان أنه من بين الثلاثة أسباب الأكثر تقديما من قبل النساء كدافع لممارسة الجنس هو تجريب اللذة الجنسية، وبالتالي الرجال ليسوا أكثر بحثا عن اللذة في ممارستهم للجنس من النساء؛ إذ عبّرت نساء على أنهن يحصلن على اللذة الجنسية من التغيرات الفسيولوجية والنفسية أثناء الإثارة الجنسية والنشوة، كما أن اهتمام الرجل باللذة الجنسية للمرأة يعد مؤشرًا بالنسبة للنساء على لا أنانيته وصلاحيته كشريك طويل الأمد وأب جيد.

مثلث الحب

يعد الحب من أكثر الأسباب شيوعًا لممارسة الجنس، من خلال الدراسة وجد الباحثان أن السعي وراء الحب والتعلق العاطفي قاد

الكثيرات إلى الدخول في علاقات جنسية، كان الحب والقرب العاطفي من الأسباب الأولى الدافعة لممارسة النساء للجنس.

يقول الباحثان: «الحب الرومانسي شيء قوي إلى درجة أن السياسيين والسلطات الدسنسة حاولوا عبر التاريخ ومختلف الثقافات التحكم به خوفا من أن يزعزع النظام الاجتماعي والسياسي والديني». يستند الباحثان في تحليلهما للحب كدافع جنسي إلى نظرية «مثلث الحب» لعالم النفس روبرت ستيرنبرغ الذي يوضح أن الحب يتألف من ثلاثة مكونات هي: الحميمية، الولع، الالتزام. الحميمية تمثل الترابط والقرب مع شخص آخر والرغبة في مشاركة التجارب الخاصة معه. الولع والشغف مشاعر رومانسية حادة ورغبة جنسية تجاه شخص آخر ولهفة للتوحد معه. الالتزام كمكون أساسي للحب هو رغبة في الحفاظ على العلاقة:

عبرت العديد من النساء عن أن «الحب» كان دافعًا لهم لممارسة الجنس. أحياناً كان هذا الحب يتوقف عند الحميمية أو الشغف وأحيانًا كان متضمنًا لأضلاع المثلث الثلاثة. بعض النساء كان الجنس بالنسبة إليهن رغبة في حمل الشريك على الالتزام بالعلاقة. يعتقد علماء النفس التطوريون أن العواطف شكل من أشكال الالتزام في علاقة طويلة الأمد لأن اختيار الشريك بناء على معايير عقلية كحيازة الموارد قد يدفع الشريك للتخلي عن شريكه لصالح منافس آخر حائز على أكثر مما لديه من الصفات المرغوبة.

قد لا يكون الحب دافعًا بالنسبة لبعض النساء، وهنا يحلل الباحثان ذلك بالقول: «بعض النساء يمارسن الجنس رغم وجود قدر قليل من الحب أو الارتباط العاطفي وهن عادة يكن ذوات شخصية انبساطية ومنفتحات أكثر على التجارب الجديدة من كل الأنواع، ورغم أن العديد من النساء لا يتطلبن الحب أو يبحثن عنه للإقدام على ممارسة الجنس، فإن النساء أكثر من الرجال يعتقدن أن الجنس لابد أن يكون مصحوبا بالحب، فالنساء غالبا ما يرين الحب كأحد الشروط المطلوبة للجنس بينما الرجال يرون الجنس أحد ملامح الحب.

التنافس الجنسي

أجرى مختبر باس مقابلات مع النساء لمعرفة أي التكتيكات أكثر شيوعا وفعالية يستخدمنها للفوز بالقرين وتبيّن أن الكثير

يؤكد السجل التاريخي للبشر وجود الاغتصاب في جميع الثقافات وعبر كل العصور، وتظهر المدونات التاريخية شيوعه خصوصا في الحرب. بعض الأنثروبولوجيين يُنظِّرون بأن الاستحواذ الجنسي على النساء بالقوة كان السبب الرئيسي لشن الحروب حتى أن الغازي جنكيز خان اعتبر الاغتصاب من فوائد الحروب. تُبين الدراسة أن أعدادا كبيرة من النساء يمارسن الجنس لأن الرجال يكرِهونهن ويجبرونهن بالقوة ويدخل الاغتصاب الزوجي ضمن هذه الفئة

منها يتمحور حول المظهر الجسمي للنساء وطرق العناية بأنفسهن. وأوضح الباحثان أن هناك دراسات عدة تؤكد أن النساء في طور الإباضة يزدن من شهوانية مظهرهن من أجل النجاح في التنافس الاقتراني. قد يكون هذا الدافع مدخلًا لدافع آخر وسببًا له، فالتفاخر والتباهي بعلاقة جنسية قد يكون دافعا للمرأة للثأر من منافسة جنسية لها، فممارسة الحب مع حبيب سابق لامرأة أخرى يمنحها إحساسا بالانتصار والثأر في آن واحد.

تشير الدراسة إلى أنه في المجتمعات التي تمارس تعدد الزوجات يجد الرجال الأكثر مرغوبية غالبا أكثر من زوجة، فالكثيرات من النساء يفضلن أن تكون الزوجة الثانية أو الثالثة لرجل ذي مكانة مرموقة على أن تكون الزوجة الوحيدة لرجل منخفض المكانة، وفي المجتمعات أحادية الزواج فالنساء يجدن أن الرجال الأكثر مرغوبية مقترنون بالفعل وتجعل العادات والتقاليد الثقافية والقواعد الدينية هؤلاء الرجال الجيدين خارج اللعبة، ما قد يدفع النساء لتبني استراتيجية إغواء القرين وسلبه من قرينته الحالية والرجال أيضا يمارسون نفس الاستراتيجية.

في دراسة أجراها عالم النفس التطوري ديفيد شمت شملت 16964 فردا في 53 بلدا وجد أن نسب إغواء القرين تختلف عبر الثقافات. إذ تميل لأن ترتفع في بلدان الشرق الأوسط وتنخفض في بلدان آسيا ولكن في جميع البلدان أقر عدد كبير من الأفراد أنهم حاولوا يوما غواية قرين مرتبط. ففي العديد من بلدان الشرق الأوسط وفي ظل تقييد جنسانية النساء بالعادات والتقاليد العربية والشريعة الإسلامية فإن ما يقارب 64 بالمئة من الرجال و54 بالمئة من النساء أقروا بأنهم تم إغراؤهم رغم ارتباطهم بشريك فعلي.

الغيرة الجنسية

ينوه الباحثان بأن الغيرة وردود الأفعال إزاءها تكاد تتماثل في جميع الثقافات مع وجود استثناءات طفيفة، فالدراسات عبر الثقافية للغيرة أظهرت أن التعاطي مع الخيانة بوصفها تهديدا يكون أكثر حدوثا تحت ظروف معينة منها: إذا كان الزواج لابد منه، إذا كان من المتعذر ممارسة الجنس خارج الزواج، إذا كانت الملكية فردية، إذا كان امتلاك أطفال مهماً.

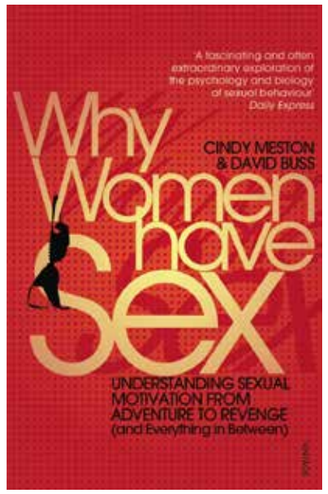

يشير الكتاب إلى أن الشعور بالغيرة كان دافعًا ومحركًا لقرارات عدة على مدار التاريخ، ففي القرون الوسطى ونتيجة محاولة التحكم بسلوك الحبيب بسبب الغيرة، كان النبلاء يقومون بإلباس زوجاتهم أحزمة العفة لضمان إخلاصهن، أيضا فكرة ممارسة ختان الإناث الشائعة في العديد من الثقافات هي نتاج الغيرة، إذ يقدر الخبراء أن 80: 120 مليون امرأة عبر العالم قد أخضعت لشكل من أشكال بتر العضو التناسلي الخارجي بهدف خفي هو تقليل النشاط الجنسي للمرأة بالخصوص خارج الزواج.

في الدراسة، صرّحت النساء أكثر من الرجال بتعمدهن إثارة غيرة الشريك لتحقيق ثلاث وظائف: الرفع من مرغوبيتها في عين شريكها، ردة فعله على الاستفزاز تعد اختبارًا لمدى التزامه بالعلاقة، احتمالية ارتفاع التزام الرجال مع المرأة المرغوبة من قبل الآخرين تزداد بشكل كبير. كما تشير الدراسة إلى أن ممارسة الجنس كان محركه لدى بعض النساء الرغبة في الشعور بالجاذبية وتعزيز الثقة بالذات، فهناك ارتباط نفسي بين نجاح الحياة الجنسية والانطباع الذي نكونه عن أنفسنا.

اختلافات ثقافية

رغم ما تمتلكه النساء في بعض المجتمعات من رقعة حرية أكثر اتساعًا خصوصًا في ما يتعلق بأوضاع المرأة إلا أن الكتاب يشير إلى أن التقاليد تفرض أوضاعًا تكاد تتشابه ما بين الثقافات المختلفة، ومنها مسألة إفصاح النساء عن غرائزهم الجنسية؛ إذ يظل الرجال أكثر إفصاحًا عن غرائز أقوى، وهو ما تبرره الدراسة بأسباب تتعلق بطبيعة الهرمونات المختلفة عند الرجال والفروق التشريحية للأعضاء التناسلية لدى كل من الرجل والمرأة، لكنه في الوقت ذاته ثمة تقاليد تفترض ضرورة اتخاذ الرجل لخطوة المبادرة في العلاقة. ضعف الرغبة الجنسية لدى النساء ترجعه الدراسة إلى أسباب ظرفية أحيانًا تتعلق بالإرهاق وتراكم المسؤوليات والمهام على عاتق المرأة، وفي بعض الأحيان تنخفض الرغبة بسبب عوامل أطول تأثيرًا كالحمل، التقلبات الهرمونية، العلاجات الطبية، الملل الجنسي، النزاع مع الشريك.

من الأسباب التي شخصتها الدراسة لممارسة بعض النساء الجنس: زيادة المرتب، الحصول على فرصة عمل، الحصول على ترقية، جني المال. إذ أوضحت الدراسة أن مقايضة الجنس لا تقتصر على الأميركان؛ فمبادلة العطايا بالجنس موجودة في جميع الثقافات. درس عالم الأنثروبولوجيا دونالد سيمونز الظاهرة من منظور عبر ثقافي وصنّف العطايا التي استُلِمت في سياقات المغازلة، التودد، الاغواء، ووجد أن 79 بالمئة من المجتمعات المدروسة يمنح فيها الرجال فقط العطايا.

قيمة العُذرية

ثمة تقديس في المجتمعات العربية لعذرية المرأة ممثلة في الحفاظ على غشاء البكارة حتى الزواج، ورغم ما أثبتته البحوث العلمية من وهن الفكرة وتخلفها، إلا أنها لا تزال قائمة ولا تزال مقياسًا يمكن من خلاله الحكم أخلاقيًا على المرأة. تلفت الدراسة إلى أنه تاريخيا لم يكن ينظر إلى امتلاك الخبرة الجنسية والإقدام على المغامرات كصفات ايجابية للمرأة، النساء اللواتي يمارسن الجنس قبل الزواج يعتبرن ملوثات وفي المقابل النساء اللواتي يبقين عفيفات حتى الزواج يعتبرن محترمات؛ إذ اعتبرت العذرية قيمة ثمينة في المرأة اجتماعيا وروحيا وحتى سياسيا.

يقول الباحثان: تغيرت أهمية الحفاظ على العذرية على الأقل في العالم الغربي. الكثير من النساء في الدراسة ضحين بعذريتهن وكان دافعهن لممارسة الجنس الرغبة في اكتشاف جنسانيتهن، بعضهن قالت إنهن أردن اكتساب خبرة وتحسين مهاراتهن الجنسية أو اختبار الأداء الجنسي لمن يردن الارتباط به.

الجنس الإجباري

يؤكد السجل التاريخي للبشر وجود الاغتصاب في جميع الثقافات وعبر كل العصور، وتظهر المدونات التاريخية شيوعه خصوصا في الحرب. بعض الأنثروبولوجيين يُنظِّرون بأن الاستحواذ الجنسي على النساء بالقوة كان السبب الرئيسي لشن الحروب حتى أن الغازي جنكيز خان اعتبر الاغتصاب من فوائد الحروب.

تُبين الدراسة أن أعدادا كبيرة من النساء يمارسن الجنس لأن الرجال يكرِهونهن ويجبرونهن بالقوة ويدخل الاغتصاب الزوجي ضمن هذه الفئة. أدرج الباحثان الاغتصاب كواحد من الدوافع لتأثيراته على جنسانية المرأة؛ إذ يمكن لتجربة الجنس الإجباري أن تنحت جنسانية المرأة لمدة طويلة بعد وقوع الأمر، والخوف من الجنس الإجباري قد يؤثر بشكل دائم على إحساس المرأة بالأمان، حسبما فصّلت هذه الدراسة.

كاتبة من مصر

المختصر

عواد علي

تاريخ العرب الحديث

يقدّم كتاب "تاريخ العرب الحديث من الفتح العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، للكاتب أحمد زكريا الشلق، الصادر مؤخرا عن المكتب المصري للمطبوعات في القاهرة، عرضا مركزا وشاملا لتاريخ العالم العربي في العصر الحديث، ويغطي فترة تاريخية تبلغ نحو أربعة قرون، تبدأ بالفتح أو التوسع العثماني في بلاد الشام ومصر، وتمتد حتى بداية الحرب العالمية الأولى (1914-1918)؛ مبينا أن تاريخ العرب مرّ خلال هذه الفترة بمرحلتين، أولهما المرحلة التي انفرد فيها الأتراك العثمانيون بحكم العالم العربي واستمرت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثامن عشر، أي أنها بلغت نحو ثلاثة قرون إلا قليلا. وثانيهما مرحلة النفوذ والاستعمار الأوروبي، التي بدأت مع الحملة الفرنسية على مصر والشام (1798-1801) وانتهت إلى استعمار معظم أقطار العالم العربي طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ما شكّل عنصرا حاكما ومؤثرا في مسيرة التاريخ العربي الحديث، انعكست آثاره على علاقة العرب بالدولة العثمانية، وأسهم في إضعاف هذه العلاقة، حتى بلغت، بفعل عوامل أخرى أيضا، مرحلة الصدام بينهما قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها.

الجذور التاريخية لقيام دولة الإمارات

يتناول الدكتور محمد عمران تريم في كتابه "الجذور التاريخية لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة"، الصادر حديثا عن دار الشروق للنشر والتوزيع في عمّان، الجذور التاريخية لدولة الإمارات العربية المتحدة، وقد خصص الباب الأول من الكتاب للجذور الجيوسياسية لدولة الإمارات، والباب الثاني للاتحاد الإماراتي: المخاض والولادة والآفاق؛ معتمدا على التاريخ المعاصر الممتد، في محاولة لملامسة ذهنية الإنسان الإماراتي، ورد الأمور إلى عمقها التاريخي لتظهر أن هذه الجذور العميقة والمتنوعة والمنفتحة كانت حاضرة بقوة في ذهن الحكام وقت تأسيس الاتحاد. ويتطرق الكتاب إلى الدور الحاسم للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في تأسيس الاتحاد من خلال الوثائق المتوفرة في دور الأرشيف ومراكز البحوث المحلية، خاصة مركز دراسات الخليج (دارة الشيخ سلطان القاسمي في إمارة الشارقة، والدول الأجنبية مثل: البرتغال، هولندا، بريطانيا، والتي مكنت المؤلف من تقديم قراءة ومعرفة لخبايا الدبلوماسية الإنجليزية).

تاريخ عُمان الحديث

يسرد كتاب "تاريخ عُمان الحديث" لمؤلفيه جيرمي جونز ونيكولاس ريدوت، الصادر عن دار الرافدين بترجمة أيمن بن مصبح العويسي، قصة عُمان منذ اللحظة التي تولى فيها الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي مؤسس الدولة البوسعيدية مقاليد الإمامة في البلاد عام 1749 إلى بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين. وقسَّم الكاتبان تاريخ عُمان إلى قسمين رئيسيين، أولهما المراحل التأسيسية لبناء عُمان في شكلها الحالي، وشملت هذه المرحلة تأسيس الدولة البوسعيدية؛ مرورا بأبناء الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي، وتأسيس النفوذ العُماني في زنجبار في عهد سعيد بن سلطان. أما القسم الثاني فيتطرق إلى تاريخ عُمان الحديث الذي قام على تلك المراحل التأسيسية؛ بدءا من تولي السلطان سعيد بن تيمور الحكم خلفا لوالده عام 1932م، وصولا إلى عهد السلطان قابوس الذي كان له النصيب الأكبر من الكتاب منذ عام 1970 وحتى عام 2015. وربط الكاتبان الأحداث التي مرت بها عُمان، مثل توسّع النفوذ العُماني في القرن التاسع عشر، وحرب ظفار، وحرب الجبل الأخضر، واكتشاف النفط، ومظاهرات عام 2011 بالنطاق الإقليمي والعالمي الأوسع من حيث صلتها بالهيمنة البريطانية، والرأسمالية والاشتراكية، وقيام حركة النهضة العربية، وبروز القومية العربية، ونهاية الاستعمار الأجنبي، واندلاع الصراعات الإقليمية والدولية.

دوافع الجهاد في الغرب

آخر إصدارات عالم الاجتماع الفرنسي من أصول إيرانية فرهاد خسروخوار كتاب بعنوان «الجهاد الجديد في الغرب»، يحلل فيه الوضعيات المؤدية إلى التطرف ثم إلى الجهاد، من خلال بحوث أجراها في عدة بلدان، من أوروبا وأمريكا الشمالية إلى أستراليا والمغرب العربي، ليبين أن الجهادية فعل مجتمعي شامل، يتولد من عوامل مدينية واجتماعية وسياسية وأنثروبولوجية وسيكوباتية، وأن ثمة نقاطا مشتركة بين المرشحين الغربيين للجهاد، رغم تنوعهم واختلاف هوياتهم. من هذه البحوث التي امتدت زهاء عشر سنوات، اصطفى خسروخوار مائة جهادي غربي، من أهل البلاد وشباب المهاجرين، لفهم جذور كراهيتهم للغرب وعوامل مرورهم إلى الفعل، وانتهى إلى حقيقة مرعبة وهي أن نجاح الجهاد لدى الشبان مرده إلى أزمة الديمقراطيات الغربية، وهي في رأيه أزمة عميقة قد تكون لها عواقب دائمة.

حقوق الإنسان والقانون

في كتابه «القانون الطبيعي وحقوق الإنسان» يرى بيير مانان أستاذ الفلسفة السياسية بمعهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية أن مذهب حقوق الإنسان صار المرجع الشرعي الوحيد لتنظيم عالم البشر وتوجيه الحياة الاجتماعية والفردية، وأن القانون السياسي لم يعد يصلح إلا لضمان الحقوق البشرية التي تزداد اتساعا. فالقنون لم يعد يحكم، أو يوجه، أو يهدي بل يسمح فقط. لم يعد القانون يحمي حياة المؤسسات كالأمة والجامعة والأسرة بل يمنح كل فرد حقا غير مشروط في الوصول إليها، وبذلك لم تعد المؤسسة محمية ولا منظمة بقانون يواجَه به الفرد، لأن الفرد صار يتمتع بحق غير مشروط يواجه به المؤسسة. ما يعرّض الحياة البشرية إلى نقد اعتباطي غير محدود يرحم الحياة الفردية والحياة الاجتماعية من كل معيار تقييمي.

النخبة العالمية والشعوب

يعتقد ميشيل جوفروا في كتاب بعنوان «الطبقة العالمية السوبر ضد الشعوب» أن الغرب لم يعد يعيش في نظام ديمقراطي بل في نظام ما بعد ديمقراطي، لأن الحكومات ما عادت تحكم بل تطيع الأسواق والبنوك، وقوى المال تقود الميديا، والشعوب تفقد سيادتها وحرياتها. لماذا؟ لأن السلطة الاقتصادية والمالية شبت عن الإطار القومي منذ انهيار الاتحاد السوفييتي ورامت الحكم بدل الدول. ولأن نهاية الشيوعية حررتنا من الحرب الباردة، فنابت عنها رغبة أنكلوسكسونية عنيدة في فرض رؤيتها للعالم على الناس أجمعين، ولو بالقوة. هذه الحركة المضاعفة تجسدها طبقة جديدة تمارس الحكم في مختلف البلدان الغربية عوضا عن الحكومات، ألا وهي الطبقة السوبر، مركزها في الولايات المتحدة وفروعها ممتدة في كافة البلدان الغربية، ولا سيما الأوروبية، وهي طبقة تدافع عن مصالح الأثرياء الكبار والشركات العملاقة المعولمة، تحت ستار أيديولوجيتها: الليبرالية المتحررة والكونية، التي تطمح إلى فرض مشروعها أي إقامة حكومة عالمية، تقود إلى تسليع العالم واستعباد البشرية كلها.

الجذور التاريخية للأزمة اليمنية

يتتبع الباحث الأردني الدكتور محمود الجبارات، في كتابه «الجذور التاريخية للأزمة اليمنية»، الصادر مؤخرا عن دار الآن ناشرون وموزعون في عمّان، علاقة المذهب بالدولة/ السلطة في تاريخ الفرقة الزيدية، وهي المذهب الذي ينتمي إليه الحوثيون، وغيرهم من العشائر اليمنية، في اليمن خلال مختلف مراحله التاريخية، منذ نشأت الدولة الزيدية الأولى على أرض اليمن في القرن الثالث الهجري، العاشر الميلادي إلى وقتنا الحاضر. ويرصد الباحث التجربة التاريخية للفرقة الزيدية في الحكم على شكل معارضة سياسية لنظام سياسي قائم، أو أداء أتباعها عند وصولهم إلى السلطة. ويبيّن أن الأزمة اليمنية منذ اندلاعها عام 2011 كشفت عن بعض مكنونات المجتمع اليمني، ورؤاه، واحتقاناته المتماهية مع واقع مكوناته الداخلية، وعلاقات قواه الحيّة مع محيطها الإقليمي، وشكّلت الأزمة، بصورة عرضية، ظاهرة تشي وتُغري بإعادة قراءة صيرورة تاريخ اليمن المعاصر بمناهج وأدوات وطرائق تفكير جديدة. كل ذلك في محاولة للإجابة، المباشرة أو غير المباشرة.

على التساؤلات الهامة التي أثارتها تطورات الأزمة اليمنية وهي: هل تتطور الزّيدية، بتجلياتها الحالية بصفتها حركة حوثية، وتتحول إلى حزب سياسي يمني يقبل التشاركيّة في الحكم، والتبادل السلمي للسلطة في دولة يمنية مدنية حديثة؟ أم أن استعادة الزيدية المذهبية، ممثلة بالحركة الحوثية، ستتجسد مجددا في تأسيس إمامة زيدية؟ وفي كل الأحوال، كيف ستتعامل

المختصر

الزيدية الحوثية مع بقية المكونات السياسية والفقهية والمناطقيّة في اليمن؟

الآموريون الساميون الأوائل

يتناول يبحث الباحث والشاعر العراقي الدكتور خزعل الماجدي في كتابه «الآموريون الساميون الأوائل: التاريخ، المثولوجيا، الطقوس، الفنون»، الصادر حديثا عن دار ميزوبوتاميا في بغداد، كل ما يتعلق بالآموريين من تاريخ ومظاهر حضارية كالسياسة والاجتماع والاقتصاد والديانة والثقافة والفنون. ويجمع الماجدي مختلف جوانب الحياة الآمورية من خلال شظايا متناثرة في الحفريات والتاريخ، ويرسم لوحة نادرة وعريقة لواحد من أقدم شعوب العالم القديم، الذي ظهر منذ الألف السادس قبل الميلاد. ويسلك الباحث طريقا صعبا برصده أمرين في غاية الأهمية هما، أولا أن الآموريين كانوا أكبر مجموعة سامية في التاريخ ظهرت في وادي الرافدين، ثم انتشرت منه إلى ماحوله، وثانيا أن الآموريين هم أقدم الشعوب السامية، وهم وأجداد العرب المباشرين.

ويذهب إلى أنهم كانوا الآباء الأوائل لأربعة شعوب سامية كبرى ظهرت منهم في بيئات جغرافية مختلفة، ففي السواحل صاروا الكنعانيين شعب شام، وفي المرتفعات صاروا الآراميين، وفي السهول صاروا الكلدانيين، وفي الصحراء صاروا العرب. ويمضي الماجدي في إثبات نظريته هذه متتبعا تفاصيلها في أدق الكتابات والنقوش والآثار، ليهزّ بها قناعات كثيرة سادت عند المؤرخين والمهتمين بالحضارة.

ملكات الفراعنة

يبحث كتاب «ملكات الفراعنة: دراما الحب والسلطة» لعالم الآثار المصري الدكتور حسين عبد البصير، الصادر حديثا عن دار نشر «أنباء روسيا» في القاهرة، ضمن سلسلة المصريات، في سيَر ثلاثين ملكة مصرية منذ الملكة نيت حتب في الأسرة الأولى المصرية القديمة، مرورا بالملكات العظيمات حتشبسوت وتي ونفرتيتي ونفرتاري وتاوسرت، وصولا إلى الملكة الشهيرة كليوباترا. ويقدّم عبد البصير، من خلال هذه السيَر، معرفة عميقة لتاريخ مصر وأحداثها السياسية، ودور المرأة المصرية القديمة المهم والمؤثر بقوة في المجتمع، خاصة في عالم الملكية المصرية المقدسة؛ موضحا أن أهمية دور المرأة في مصر القديمة، وتقلدها مقاليد الحكم، وتحقيق إنجازات لا تقل عظمة عما أنجزه ملوك مصر من الرجال. كما يؤكد الكاتب أن المرأة في مصر القديمة كانت سيدة مجتمعها، ووصلت إلى أعلى درجات التقدير فيه، وكانت خير رفيق للرجل في الدنيا والآخرة، وتميزت بالسبق والإبداع والتميز في مجالات كثيرة، وحملت العديد من الألقاب، سواء في البيت أو في القصر أو في المعبد أو في المجتمع. وقد شجع المجتمع المصري القديم على الزواج، ونصح الحكماء بالإقدام عليه في سن مبكرة.

الكتاب قدّم له عالم الآثار الدكتور زاهي حواس؛ موضحا أنه يحفل بمعلومات علمية دقيقة عن كل ملكة تمت صياغتها وعرضها بشكل بسيط ورائع وجميل، ومن ثم فهو مفيد لكل دارسي الآثار، ويشكّل إضافة متميزة للمكتبة العربية التي تفتقد هذه النوعية من الكتب.

عرب الإمبراطورية العثمانية: تاريخ ثقافي واجتماعي

يتتبع الباحث جون ماسترز، في كتابه "عرب الإمبراطورية العثمانية: تاريخ ثقافي واجتماعي (1516-1918)، الصادر حديثا عن دار الرافدين في بيروت، بترجمة عبد الحكيم ياسين، حكم العثمانيين للأراضي العربية لأربعة قرون تمتد من عام 1516 إلى عام 1918، ويقدم فيه مسحا شاملا محايدا للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الأراضي العربية إبان الحكم العثماني. ويتناول أيضا طرق إدارة وحكم الامبراطورية العثمانية للأراضي العربية التي بقيت تحت حكمهم لأربعة قرون. كما يتطرق الكاتب إلى دور رجال الدين في منح الشرعية للسلاطين العثمانيين في حكمهم للولايات العربية، وكذلك يلقي الضوء على قضية السلطنة والخلافة، والتجربة التاريخية للمسلمين العرب مع الحكم العثماني. ويشير بشكل كبير إلى الصراعات الطائفية والثورات وأعمال التمرد التي عصفت بالمنطقة العربية خلال فترة حكم العثمانيين، وطرق تعامل العثمانيين معها بالقمع مرات أو بالحلول التوفيقية مرات أخرى. الكتاب يشكّل مرجعا تاريخيا ذا فائدة كبيرة للباحثين والدارسين لتاريخ العرب وعلاقتهم بالدولة العثمانية، وذلك لاعتماده على كم هائل من المصادر التاريخية المعتبرة العربية والتركية الموثوقة في تتبع مجريات الأحداث وتفاصيلها الدقيقة، وكذلك لحياديته في طرح الأمور والأحداث وتسمية الأشياء بمسمياتها بعيدا عن الانحياز لجهة على حساب جهة أخرى.

أصول العنف: الدين والتاريخ والإبادة

ضمن سلسلة دراسات فكرية، التي تصدرها جامعة الكوفة في العراق، صدر حديثا كتاب «أصول العنف: الدين والتاريخ والإبادة» للباحث السترالي جون دوكر، بترجمة علي مزهر، وتوزيع دار الرافدين في بيروت. وجاء في نبذة عن الكتاب «حقل الإبادة بالعربية حقل بالغ الفقر. إننا نرتكب الإبادات ولا نكلّف أنفسنا التفكير فيها ودراستها. وأعداد الكتب الصادرة بالعربية تأليفا وترجمة في هذا الحقل لا تناسب مطلقا أعداد الإبادات التي حدثت في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر. هذا الكتاب المترجم للأستاذ لجون دوكر هو أول كتاب شامل بالعربية عن الإبادة؛ يغطّي تاريخها في المجتمع الحيواني والإنساني. وهو يوظّف مفهوم

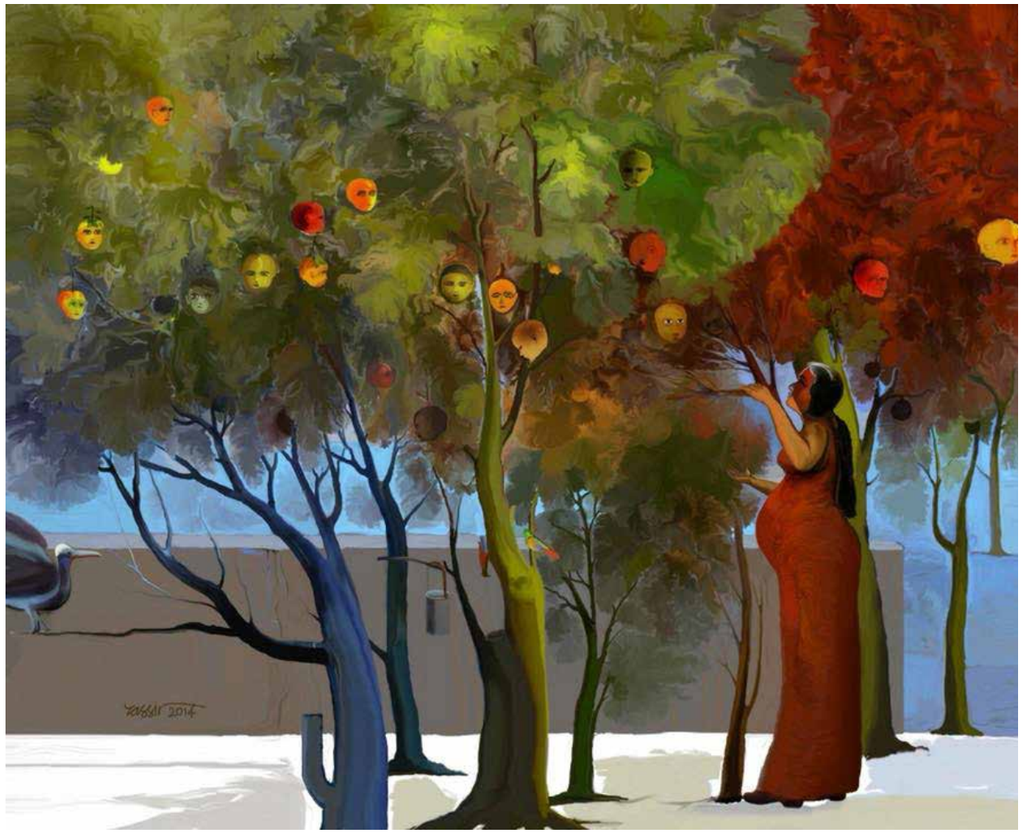

ياسر أبو الحرم

الإبادة عند رافائيل لَمْكِن، وينحو به إلى أن يكون دراسة ثقافية تتناول الإبادةَ في الكتابة التاريخية (هيرودوت وثوسِّديدس)، والأدب والأسطورة عند الإغريق والرومان (هوميروس، فرجيل، إسخيلوس وآخرين)، والفلسفة (أفلاطون، شيشرون)، والنصوص الدينية (التوراة)، والمسرح (العاصفة لشكسبير وموضوعة الاستعمار النبيل)، والفكر الاستعماري، وعصر التنوير، وينتهي بالفلسفة الحديثة والمعاصرة (سبينوزا، تولاند، هيوم، ليوتار، دولوز). وقد بذل المترجم جهدا كبيرا في ترجمة هذا الكتاب المتنوّع المصادر، عسى أن يكون باعثا على المزيد من الاهتمام بهذا الحقل».

التاريخ والذاكرة

يضمّ كتاب «الذاكرة والتاريخ» للباحث الفرنسي جاك لوغوف، الصادر مؤخرا عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة، بترجمة جمال شحيد، أربعة فصول، يبحث الأول في التعارض بين الماضي والحاضر في علم النفس وفي ضوء الألسنية، كما يطرح تساؤله حول نسبة التجديد التي تقبل بها المجتمعات في تعلّقها بالماضي. وفي الفصل الثاني، وتحت عنوان «ثنائي غربي وملتبس»، يقول لوغوف إن التعارض بين عتيق وحديث تطور في سياق ملتبس ومركّب، لأن لا تعارض دائما بين المفردات والمفاهيم، فقد استُبدلت كلمة عتيق بكلمة قديم وتقليدي، واستُبدلت كلمة حديث بكلمة قريب العهد أو جديد. يتحدّث في الفصل الثالث عن الذاكرة الإثنية، فيميّز بين الثقافات الشفوية والثقافات الكتابية في ما يتعلق بالمهمات الموكولة إلى الذاكرة مؤسسة على كون العلاقات بين هذه الثقافات تتوسط تيارين مغلوطين في غلوّهما، يؤكّد أحدهما أن البشر كلهم يمتلكون الإمكانات نفسها، ويقيم التيار الثاني تمييزا واضحا بين الهُم والنحن. أما الفصل الرابع فيتطرّق إلى مفارقات التاريخ والتباساته، فيسأل: هل التاريخ هو علم الماضي أو ليس ثمة تاريخ إلا التاريخ المعاصر؟ ويتناول موضوعية الماضي والتلاعب به، والمفرد والكوني في تعميمات التاريخ واتساقاته.

كاتب من العراق مقيم في عمان

المصباح الذكي X

السارق من الآخرين كل عزيز

هيثم الزبيدي

لو أن أحدا قال قبل 10 أعوام إن هناك جهازا سيتمكن من إزاحة التلفزيون عن عرشه وانتزاع الكتاب والصحيفة من بين أيدينا وأن يجعل الهاتف المنزلي قطعة أثاث مهملة ويطلق النار على صناعة الكاميرات التقليدية والرقمية، ذات الصور الثابتة أو الفيديو، بل وينفذ انقلابا عمليا وفكريا على الكمبيوتر المكتبي أو المحمول، لقلنا إنه يبالغ. هذا لا يعني أننا لا ندرك قدرة التكنولوجيا على إحداث الاختراقات المذهلة.

عصرنا هو عصر الفتوح التكنولوجية. لكن الأمور كانت تبدو وكأنها تسير بخطوات منفصلة. أي أن التلفزيون كان يسابق كل وسائل الإعلام الأخرى وينتصر عليها بما صار يوفره من وفرة وتنويع في المحتوى. وأن الهاتف الأرضي، ومنذ عقود، أصبح قادرا على التواصل عبر القارات. وأن الكتاب والصحيفة صارا ينتجان بأساليب وطرق أرخص وبنوعية أفضل وربما على قدر المقاس. وأن الكاميرات باتت أصغر وأكثر دقة وبلا فيلم ينتهي بعد 32 صورة. وأن الكمبيوتر يصبح أرخص وأسرع وبشاشة بعرض لوحة فنية وبدقة تُجارى أفضل المطبوعات لونا وتفاصيل. نحن ندرك كل هذا، لكننا تعودنا على توزيع هذه الأشياء في أركان المنزل. التلفزيون أمامنا في غرفة الجلوس، والهاتف على الطاولة الجانبية، والكتاب على رف المكتبة، والصحيفة على الطاولة أمام الكنبة، والكمبيوتر على مكتب، والكاميرا بعيدا عن أيدي الصغار.

الهاتف الذكي طوّح بهذه الأدوات. سرق منها كل عزيز. الخبر المرئي والمسلسل والفيلم من التلفزيون. الخبر المكتوب من الصحيفة. النص من الكتاب. الصوت من الهاتف. الصورة والفيديو من الكاميرا. الغرور من الكمبيوتر. الهاتف الذكي انقلاب حقيقي كامل الأوصاف.

مع الهاتف الذكي تغيّرنا. لم نعد كما كنا. حرية الحركة جعلتنا نفكر بالأشياء بشكل مختلف. ومع هذا التغيير تغيّرت أشياء كثيرة. أنظر ماذا حلّ بالإعلام. صارت القنوات تشتغل وعينها على الهاتف الذكي كمنصة. الصحف تنشر مقالات أقصر وبعناصر بصرية. الكتاب يتحوّل بالحجم الذي يناسب حجم الشاشة. الهاتف يعمل على الشبكات المدفوعة التقليدية لكنه يستخدم المكالمات عبر البرامج المجانية للتحادث والتواصل المرئي بدلا من المكالمات التقليدية. الكمبيوتر صار في جيبنا. تغيرت ثقافة الاستهلاك تماما. أنت تتسوّق من خلال هاتفك الذكي وأنت في الباص. أنت تتسوّق من أمازون وليس من تلك المحلات الكبيرة التي تتصارع اليوم لاستعادة بعض من حصّتها. إذا كانت السلاسل الشهيرة للتسوّق قد قتلت الدكاكين الصغيرة في الحي والشارع، فإن التسوّق الإلكتروني صار يقتل فرص الجميع، الكبير قبل الصغير.

تغيّرت ثقافة النقل. سيارتك صارت شيئا ثانويا والتاكسي يعاني. بوجود أوبر هناك 10 سيارات تحوم حولك تنتظر الإذن. هاتفك الذكي يستقبل شفرة مفتاح سيارة زيبكار التي تركها زبون في الشارع، فتشغلها بالمفتاح الإلكتروني وتسوق بلا وجل.

تغيّرت ثقافة الثقافة. كل يوم تجد أبعادا جديدة للثقافة البصرية والأدائية من خلال منصة الهاتف الذكي. قبل سنوات، أول شيء فعله ابني بهاتفه الجديد أنه بدأ بمعالجة الصور التي التقطها بمؤثرات. ابني صار فنانا تشكيليا في ثوان. أنت منتج للثقافة ولست مستهلكا لها فقط.

تغيرت ثقافة العلاقة الاجتماعية. الكل ينظر في هاتفه الذكي. إذا وصلك فيلم على واتساب وتريد لصديقك الجالس بجانبك أن يراه، فأنت لا تحدثه به، بل ترسله. قلّت الحوارات الشفاهية وزادت النصوص المتبادلة. فيسبوك أعاد عزّ القبيلة وأعاد التواصل مع أصدقاء المدرسة والجامعة وزملاء الوظائف السابقة والأقارب. كلمة تغريد تعني محادثة مترامية الأطراف ولا علاقة لها بالبلابل. اليوم هناك أكبر كمية من الصور لك ولي ولمن تعرفهم على الشبكات الاجتماعية وبأدق التفاصيل الحياتية. كلها تأتي لكم وغيرها من البث الحي من محطة تلفزيون «الهاتف الذكي».

لا يمكن بسهولة إحصاء التطبيقات المتوفرة على منصات الهاتف الذكي المختلفة. فلنقل ونبالغ، كما قالت العرب، إنها ألف ألف تطبيق. ومع كل تطبيق هناك ثقافة خاصة تنشأ. وفي كل بيئة من هذه الثقافات الجديدة، تتفرع أساليب وثقافات فرعية متشابكة بين ثقافة وأخرى. تطبيقات الصوت للغناء والموشحات الدينية وسماع الكتب بدلا من قراءتها. تطبيقات التسوّق للبيع والشراء، للثريّ والفقير، للجديد والمستعمل، وللمزاد. كل واحد منا يكمل حصته في الألف ألف تطبيق.

هذا الهاتف الذكي صار أذكى. فهناك في جزء من برمجياته ذكاء اصطناعي يعمل على مدار الساعة. يجمع المعلومات عنك ويحللها ثم يبدأ بالتفكير والاقتراح بالنيابة عنك. وإذا كان الفعل السابق للهاتف الذكي أنه سرق كل الأدوات القديمة وجعلها شيئا واحدا اسمه أيفون أو سامسونغ أو هواوي، فإن الذكاء الاصطناعي سيسرق ما سرقه الهاتف الذكي وكل تطبيقاته المختلفة ليبني ثقافته الخاصة، التي هي شيء خليط منك ومن مصباح علاء الدين وآخر ما وصلت إليه الشركات التي تبيع التطبيقات. لنسميه، تيمّنا بآخر موديلات هواتف أبل الذكية: المصباح السحري X أو بالأحرى المصباح الذكي X ■

كاتب من العراق مقيم في لندن

منبر عربي لفكر حر وإبداع جديد
aljadeedmagazine.com
السنة الرابعة

أبو بكر العيادي
أحمد العجمي
أحمد الماجد
أحمد برقاوي
أمين الزاوي
أيمن بكر
إيهاب سلطان
ابراهيم قعدوني
جعفر حسن
جونثان دوداي
حسن مشهور
حنان عقيل
رجاء البوعلي
رضا إبراهيم محمود
ريما إبراهيم حمود
زكي الصدير
سميّة عزّام
شريف الشافعي
صابر بليدي
طاهر الزارعي
طاهر علوان
عباس الحايك
عبدالله الهميلي
علي كريم السيد
عمّار المأمون
عواد علي
محمد الحجيري
محمد السيد إسماعيل
محمد طيفوري
محمد عبدالباسط عيد
مخلص الصغير
ميموزا العراوي
نوري الجراح
هيثم الزبيدي
هيثم حسين

فكر حر وإبداع جديد

www.aljadeedmagazine.com